هنري ميللر



عملاق ماروسي

هنري ميللر

عملاق ماروسي

ترجمة
اسامة منزلجي

الطبعة الاولى

١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣ م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام

هاتف: ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٤٢٨ ص ب ١١٣/٦٣١١ بيروت ـ لبنان

الجزء الاول

ما كان ليقدَّر لي الذهاب إلى اليونان لو لم يكن ذلك إكراماً لفتاة تدعى بيتي راين كانت تقطن معي في نفس البيت في باريس . فقد بدأت حديثها ، في إحدى الأمسيات ، مع كأس من النبيذ الأبيض ، عن تجاربها التي اكتسبتها من تجوالها في أنحاء العالم . كنت دائماً أنصت إليها بانتباه عظيم ، ليس لمجرد أن تجاربها غريبة وإنما لأنها حين تتكلم عن رحلاتها تبدو وكأنها ترسمها فقد ثبت كل ما وصفته في ذهني كلوحات من الكانفا نفذها فنان كبير . كانت المحادثة في تلك الليلة ذات طابع خاص : بدأنا الحديث عن الصين واللغة الصينية التي كانت قد بدأت بدراستها . وسرعان ما وجدنا نفسينا في شمالي أفريقيا ، في الصحراء ، بين أناس لم أسمع بهم من قبل . وفجأة إذا بها وحيدة وحدة تامة ، تمشي بمحاذاة نهر ، وكان النور قوياً وأنا أتبعها كأفضل ما يكون التابع تحت الشمس المبهرة ، لكنها ضاعت وألفيتني وحيداً أتجول في أرض غريبة أنصت إلى لغة لم أسمع بها من قبل . هذه الفتاة ليست قاصّة بالمعنى الذي توحي به الكلمة ، وإنما هي فنانة بشكل ما ، إذ لم يسبق لإنسان أن نفحني إحاطته التامة عن أي مكان كما أعطتني هي عن اليونان . وقد اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل أنها قد ضاعت في مكان قريب من الأولومبيا وأنا معها ، ولكن في ذلك الوقت لم يكن المكان بالنسبة لي أكثر من اسم اليونان ، عالم من النور لم أحلم به مرة ولم يحدني الأمل في رؤيته .

كنت قبل هذه الحادثة بأشهر عدّة أتلقى رسائل من اليونان من صديقي لورنس دريل[1] وكان قد اتخذ من جزيرة كورفو مستقراً فعلياً له . كانت رسائله رائعة مثله تماماً ، إلا أنها بعيدة عن الواقع قليلاً بالنسبة لي . داريل شاعر ورسائله شاعرية كانت تثير بي فوضى معينة ، وذلك يعود إلى أن الحلم والواقع ، التاريخيّ والأسطوريّ ، قد مزجت ببراعة فائقة ، وقد توصلت فيما بعد إلى اكتشاف يخصني ، مفاده أن هذه الفوضى هي حقيقية ولا تعود بكاملها إلى الخاصية الشعرية . ولكن في ذلك الوقت خطر لي أنه يخطط للأمر ، وأن هذه كانت طريقته في استمالتي لقبول دعواته المتكررة لاتي وأقطن معه .

***

قبل اندلاع نار الحرب ببضعة أشهر قررت أن أمنح نفسي إجازة طويلة . فقد رغبت طويلاً في زيارة وادي الدوردوني[2] ولم أقدر . فحزمت حقيبتي واستقليت القطار قاصدا روكامادور ، ووصلت هناك في صباح باكر عند بزوغ الشمس ، والقمر لا يزال يتوهج لامعاً . كانت ثمة عبقرية مني أن أبدأ جولتي في منطقة دوردوني قبل أن أنغمس في عالم اليونان البهيج الجليل . إن مجرد إلقاء نظرة خاطفة على النهر الاسود الغامض عند الدوم من الجرف الجميل عند حافة المدينة هو شيء يبقى المرء ممتناً له طوال البقية الباقية من حياته . أنا أرى أن هذا النهر ، هذا البلد ينتمي للشاعر رينر ماريا ريلكه . إنه ليس فرنسياً ، ليس نمساوياً ، ولا حتى أوروبياً : إنه بلد السحر الذي استفرد به الشعراء ولهم وحدهم الحق بالمطالبة به . إن هذا الجانب من اليونان هو أقرب مكان شبهاً بالجنة . دعوني أسميه جنة الرجل الفرنسي كحلّ وسط . والواقع أنه لا بد كان جنةً لالاف عديدة من السنين . أوْ من أنه لا بد كان هكذا بالنسبة للإنسان الكرومانيوني ، رغم الدلائل الحفرية

على وجود كهوف هائلة مما يدل على وجود ظرف حياة محير ورهيب . أؤمن بأن الإنسان الكرومانيوني قد استقر هنا لانـه كان واعياً إلى حد بعيد وله حس عالي التطوّر بالجمال . أؤمن بأن الحس الديني الموجود فيه كان عالي التطور أصلاً وقد نمّاه هنا رغم أنه عاش عيشة الحيوان في غياهب الكهوف . أؤمن بأن هذه المنطقة الهادئـة العظيمـة من فرنسـا ستبقى دائماً بقعة مقدسة بالنسبة للإنسان وأنه حين سيأتي الوقت الذي تقتل فيه المدن جميع الشعـراء سيبقـى هذا المكان الملاذ والمهـد الحانـي لشعراء الزمن القادم . وأكرر القول إنه كان حدثاً فائق الاهمية بالنسبة لي أني كحّـلت عيني بمرأى منطقة الدوردوني : إنه يمنحنـي الأمـل في مستقبل الجنس البشري ، بل في مستقبل الارض نفسها . إن فرنسا قد تندثر يوماً ما ، أما الدوردوني فستبقى حية كما الاحلام لتغذّي أرواح الرجال .

***

في مارسيليا استقليت قارباً للذهاب الى بـيريوس(3) . وكان من المفروض أن يقابلني صديقي داريل في أثينا ومن ثم يأخذني إلى كورفو. كان في القـارب الكثير من النـاس القادمـين من الشرق، وفي الحال استفردت بهم، مفضّلاً إياهم على الأميركيين، والفرنسيين، والإنكليز. كانت لدي رغبة قوية بالتحدث مع العرب والأتراك والسـوريين ومـن شابههم . كنت تواقاً لمعرفة طبيعة نظرتهم إلى العالم . دامت الرحلـة أربعة أو خمسة أيام أتاحت لي وقتاً رحيباً للتعرّف إلى أولئك الذين رغبت في معرفة المزيد عنهم . وبالصدفة ا' عضة كان أول من عقـدت معـه صداقة هو طالب طب يوناني عائد ن باريس . فتحدثنا بالفرنسية . في الليلة الأولى تحدثنا حتى الثالثة أو الرابعـة صباحـاً ، وكان حديثنـا في

معظمه عن كنوت هامسن(*) ، الذي اكتشفت أن اليونانيين مولعين به ، بدا لي في أول الأمر أنه من الغريب التحدث عن هذا العبقري الشمالي ونحن نمخر عباب الميـاه الدافئة ولكن سرعان ماعلمتني هذه المحادثة أن اليونانيين هم أناس متحمسون ، فضوليون وانفعـاليون . الإنفعـال ـ شيء طالما افتقدته في فرنسا . ليس الإنفعال فقـط ، بل والتنـاقضية ، والفـوضى ، والعماء ـ كل هذه الخـلال الإنسـانية الأصيلـة اكتشفتهـا وتعلّقـت بهـا ثانية في شخص صديقـي الـذي اكتشفتـه حديثـاً . بل والشهامة ، التي كدت أؤمن بأنها قد انقرضت من الأرض . كنا وجهاً لوجه ، يوناني وأميركي ، مع قاسم مشتـرك ، رغـم الفـرق الشاسـع بينهما . وكان هذا بمثابة مقدمة رائعة لذاك العالم الذي كان على وشك أن ينجلي أمام عينيّ . وهِمْت باليونان واليونانيين قبل أن يقع نظري على هذا البلد . استطعت أن أرى مقدّماً أنهم ودُودون ، مضيافون ، سهل الإتصال بهم ، سهل التعامل معهم .

في اليوم التالي فتحت حديثاً مع الآخرين ـ تركي ، سوري وبعض الطلبة اللبنانيين ، وأرجنتيني من أصل إيطالي . وفي الحال أثار التركي كراهيتي . فقد كان مهووساً بالمنطق ممـا أثـار حنقي عليه . وكان منطقاً رديئاً أيضاً . ووجدت فيه ما وجدته في البقية ، وقد عارضتهـم جميعـاً وبعنف ، تعبيراً عن الروح الأمـيركية بأبشـع صورهـا . كان التقـدُّم هوسهـم . المزيد من الآلات ، المزيد من القـدرة ، المزيد من رأس المال ، المزيد من وسائل الراحة ـ كان هذا هو محـور حديثهـم كلـه . وسألتهم إن كانوا قد سمعوا عن الملايين العاطلة عن العمل في أميركا ، فتجاهلوا السؤال . سألتهم إن كانوا يدركون مدى الفـراغ ، والقلـق

(*) كنوت هامسن : روائي نورويجي ، نال جائزة نوبل لعام 1920 .

والبؤس الذي يتمرغ فيه الشعب الأميركي رغم وجود وسائل الراحة والرفاه الميكانيكية . لم تؤثر بهم سخريتي . أما ما كانوا يريدون فالنجاح ـ المال ، القوة ، مكاناً تحت الشمس . لم يرغب واحد منهم في العودة إلى وطنه . ولسبب ما كانوا جميعاً ملزمين بالعودة رغم أنفهم . قالوا إنه لا حياة لهم في بلدهم . ولكن متى تبدأ الحياة ؟ اردت أن أعرف . ستبدأ حين سيحصلون على جميع الأشياء التي حصلت عليها أميركا ، أو ألمانيا ، أو فرنسا . الحياة بالنسبة لهم تتكوّن من أشياء ، من آلات بشكل رئيسي ، مما أستطيع جمعه . الحياة بلا مال هي استحالة : على المرء أن يحصل على ثياب ، ومسكن جيد ، وراديو ، وسيارة ، ومضرب تنس ، وما إليها . قلت لهم إنه ليس لديَّ أي من تلك الأشياء وإنني سعيد بدونها ، وإنني أدرت ظهري لأميركا لأن هذه الأشياء بالذات لم تكن تعني لي شيئاً . فقالوا إنني أغرب أميركي قابلوه في حياتهم . لكنهم أحبوني . وظلوا ملازمينني طوال الرحلة ، يمطرونني بكل أنواع الأسئلة التي أجبت عليها عبثاً في الامسيات كنت أنضم إلى اليوناني. كنا نفهم بعضنا بشكل أفضل ، بل أفضل بكثير ، رغم ولعه بألمانيا والنظام الألماني(4). هو أيضاً أراد الذهاب إلى أميركا يوماً ما . وكل يوناني يحلم بالذهب إلى أميركا ليبيض بيضته . لم أحاول ثنيه عن الذهاب ، وأعطيته صورة عن أميركا كما عرفتها ، كما رأيتها وخبرتها . وخاف قليلاً . واعترف أنه لم يسمع دهره شيئاً مماثلاً عن أميركا . قلت له « إذهب واعرف بنفسك . قد أكون مخطئاً . إنني لا أقول لك إلا ما عرفته من خبرتي الخاصة » . وأضفت « وتذكر أن كنوت هامسن لأ يقضي وقتاً رائعاً هناك ، ولا عزيزك إدغار ألن بو . . . » .

وكان هناك عالم آثار فرنسي عائد إلى اليونان يجلس أمامي على

المائدة . كان بوسعه أن يزودني بكثير من المعلومات عن اليونان لكني لم أتح له الفرصة ، فقد أبغضته منذ اللحظة التي وقعت عيناي عليه . أما الشاب الذي أحببت حقاً خلال الرحلة فكان الإيطالي من الأرجنتين . كان أكثر من قابلتهم جهلاً وساحراً في الوقت نفسه . في نابولي نزلنا إلى الشاطىء معاً لتناول وجبة دسمة ولزيارة بومبي ، التي لم يكن قد سمع بها من قبل . وقد استمتعت بجولتي في بومبي رغم الحرارة التي لا تطاق ، ولو أنني رافقت عالم آثار ململتُ حتى الموت . في بيريوس نزل معي إلى الشاطىء للقيام بزيارة أكروبوليس . وكان الحر اشد مما كان عليه في بومبي ، مما جعل الوضع سيئاً جداً . لا بد أن الحرارة قد وصلت في التاسعة صباحاً الى 120 درجة تحت أشعة الشمس . وما إن ولجنا بوابة رصيف الميناء حتى وقعنا بين يَديْ مرشد يوناني ماكر يتقن القليل من الإنكليزية والفرنسية ووعد أن يُرينا كل شيء ممتع بأقل مبلغ ممكن . وحاولنا معرفة ما يريد مقابل خدماته ، ولكن عبثاً . كان الطقس حاراً جداً لا يناسب مناقشة الأسعار ، استقلينا سيارة وطلبنا منه أن يوصلنا الى أكروبوليس . وكنت قد صرفت فرنكاتي الى دراخمات وأنا لا أزال على المركب ، وكانت النتيجة لفافة ورقية هائلة حشوت بها جيبي وشعرت أن باستطاعتي أن أسدد أية فاتورة مهما كانت باهظة . وعرفت أننا بصدد تلقّي هذه الخدمة وانتظرت ذلك باستمتاع . والشيء الوحيد الذي ثبت في ذهني بقوة عن اليونانيين هو أنه لا يمكن الوثوق بهم ، وكان سيخيب ظني لو اتضح أن مرشدنا كان شهماً ونبيلاً . من ناحية أخرى ، كان مرافقي قلقاً نوعاً ما من الوضع ككل . كان ذاهباً إلى بيروت . كدت أستطيع أن أسمعه يقوم بعمليات حسابية عقلية ونحن نشق طريقنا في الغبار الخانق والحر .

إن الركوب من بيريوس إلى أثينا هو مقدمة جيدة للتعرف على

اليونان . ليس لأنه شيء جذاب ، بل لأنـه يجعلك تتسـاءل ما الـذي دفعك للقدوم إلى اليونان . إذ لا يكتفي المشهد الذي أمامك بكونه قاحلاً مقفراً فهو مرعب أيضاً . إنك تشعر أنك مجردٌ ، مسلوب، وتكاد تكون ممحوقاً . كان السائق كالحيوان تعلّـم وبمعجزة كيف يشغل آلة مجنونة ، وكان مرشدنا يوجّهه على الدوام للذهاب إلى اليسار أو اليمين ، وكأنهما لم يقوما بهذه الرحلة من قبل . وشعرت بتعاطف هائل نحـو السائـق الذي خمّنت أيضاً أنه سيُخدع بدوره . وشعرت فجأة أنه لا يستطيع العدّ لأكثر من المائة ، وشعرت أيضاً أنه مستعـد للإتجـاه إلى القنـاة إذا دلّـه أحدهم إليها . حين وصلنا الأكروبوليس ـ وكان من الجنون الدخـول إليها رأساً ـ كان قد سبقنا إلى هناك عدة مئات من الناس وقد انقضّوا على البوابة . في ذلك الحين كانت الحرارة قد أمست مرعبة إلى حد أنّ كل فكري انصبّ على إيجاد مكان أجلس فيه وأستمتع بقليل من الظـل . ووجدت لنفسي بقعة معتدلة تماماً ورحت أنتظر هناك بينما كان الأرجنتيني يأخذ بدل نقوده . وبقي مرشدنا عند المدخل مع سائق التاكسي بعد أن ولّى أمرنا لأحد المرشـدين الرسـميين . كان ينـوي مرافقتنـا إلى معبـد جوبيتـر والتيزيون والأمـاكن الأخـرى حالما نكون قد نلنـا وطرنـا من الأكروبوليس . وطبعاً ، لم نتمكن أبداً من زيارة هذه الأماكن . وطلبنا منه أن يقودنا إلى المدينة ، و يجد لنا خميلة ظليلة ويطلب لنا كريما مثلّجة . كانت الساعة قد بلغت العـاشرة والنصف حـين وصلنـا عنـد مسطبـة المقهى . بدا الإنهـاك على الجميع بفعـل الحـر ، حتـى على اليونـانيين أنفسهم . تناولنا الكريما المثلجـة ، وشربنـا الماء المثلـج ، ومـزيداً من الكريما المثلجة مع مزيد من الماء البارد . بعد ذلك طلبت بعض الشاي الساخن ، لأنني تذكرت فجأة أن أحدهم كان قد أخبرني مرة أن الشاي الساخن يشيع البرودة في الجسم .

كان التاكسي واقفاً عند طرف الطريق ولا يزال المحرك دائراً . الشخص الوحيد الذي لم يبدُ عليه التأثر من الحرّ كان مرشدنا . وأعتقد أنه كان يظن أننا سنبدأ تجوالنا بعد أن نبرد قليلاً لنتعرّض من جديد للشمس ونشاهد الآثار والنُصُب . أخيراً أخبرناه أننا قررنا إعفاءه من خدمتنا . قال إنه لا داعي للعجلة فليس لديه عمل آخر ينتظره ، وإنه سعيد بالبقاء معنا . وقلنا إنه يكفينا ما شاهدناه اليوم وإننا نريد أن نتوقف . فنادى على النادل ودفع ثمن الطلبات من جيبه الخاص . ورحنا نلح عليه ليخبرنا عن مقدار ما يريد . وبدا أنه كاره أن يخبرنا . لقد كان يريد منا نحن أن نقدّر ما تساوي خدماته . قلنا إننا لا نعرف - وإننا نترك الأمر لتقديره . بعد ذلك ، وبعد صمت طويل ، وبعد أن قلّب النظر فينا من قمة الرأس حتى أخمص القدم ، وهرش نفسه ، وأمال قبعته إلى الخلف ، ومسح على جلاجيبه ، والخ ، أعلن برقّة أنه يظن أن 2500 دراخما تفي بالحساب . ألقيت نظرة على مرافقي وأخبرته أن يفتح النار . وكان اليوناني في حالة استعداد كامل للرد على ردة فعلنا . ويجب أن أعترف هنا أن هذه الصفة الخاصة هي ما يعجبني حقاً في اليونانيين ، حين يكونون ماكرين مخادعين . فقد قال على الفور تقريباً « حسن ، عظيم ، إذا لم يعجبكما السعر يمكنكما أن تحددا السعر الذي يعجبكما » وهكذا فعلنا . وقدمنا له سعراً هو من الإنخفاض بشكل يسخر من سعره المرتفع . ويبدو أن هذا جعله يشعر بارتياح ، أقصد هذه الصفقة الجائرة . والحقيقة أننا جميعاً شعرنا بارتياح لها . وكأننا كنا نتعامل مع شيء مادي حقيقي كسلعة ما . وزنّاها وثمّناها ، وقذفنا بها في الهواء كقطعة بندورة ناضجة أو كقرن ذرة . وأخيراً وافقنا ليس على سعر عادل ، لأن هذا كان سيُعتبر بمثابة إهانة في حق قدرة مرشدنا ، وإنما وافقنا احتفالاً بتلك المناسبة الفريدة ، وبسبب

لحرارة، ولأننا لم نر كل شيء ، وهلـم جرا ، على أن نستقـر على المبلغ
نفلاني وعلى أن نفترق أصحاباً وإحدى النقاط الصغيرة التي توقفنا
ىندها طويلاً كانت المقدار المتوجب على مرشدنا دفعه للمرشد الرسمي
لذي عيّـنه في أكروبوليس . وأقسمَ أنه دفع له150 دراخما . وكنت قد
أيت إتمام الصفقة بأم عيني ، وعرفت أنه لم ينفحه غير50 دراخمـا .
كد لي بأنني لم أر جيداً ، وخفّفنا من وطأة الأمر عليه وادعينا أنه دفع
رجل بشكل غير مقصود مائة دراخما زيادة عما كان ينوي دفعه ، وهذا
نوع من التحـايل القانونـي هو خاصية بعيدة كل البعـد عن الخـلال
يونانية إلى حد أنه لو كان قد قرر عندئذٍ وفي الحال أن يجردنا من كل
لكاتنا لأنْصف ولكان القضاء اليوناني سانده في ذلك .

بعد ذلك بساعة ودّعت مرافقي ، ووجدت لنفسي غرفة في فندق
صغير بسعر مضاعف ، وتجردت من ثيابي وتمـددت عارياً على السرير
سط بحيرة من العـرق حتـى التاسعـة مسـاء . بحثـت عن مطعـم ،
حاولت أن آكل . ولكن بعد تناول بضع لقيمات تخليت عن الطعام .
م أعانِ في حياتي من الحرارة كما عانيت عندئذٍ . وكان الجلوس أمام
وحة الكهربائية تعذيباً . وبعد تناول كؤوس من شراب بارد نهضت
المسطبة حيث كنـت أجلس واتجهـت رأسـاً الى الحديقـة العامـة .
عتقد أن الوقت كان حوالي الساعة الحادية عشرة . كان الناس يعجّون
حركين من جميع الإتجاهات إلى الحديقة ذكّرني المشهد بنيويورك في
ـة قائظـة من ليالي آب . إنـه مشهـد القـطيع من جديد ، شيء لم
شعر به في باريس ، اللهم إلا خلال الثورة المجْهَضَة سرت الهوينا
خترقاً الحديقة باتجاه معبد جوبيتر . كان هناك موائد صغيرة مصفوفة على
ول الممـرات المغبـرة رُتِّبـت بطريقـة تدل على شرود الذهـــن : كان

العشاق يجلسون أزواجاً بهدوء في الظلام يتحدثون في صوت منخفض ، مع كؤوس الماء . كأس ماء ... . إنني أرى كأساً من الماء في كل مكان اذهب إليه . صار مسّاً يتملكني . وبتّ أفكر في الماء كشيء جديد ، كعنصر حيوي جديد من الحياة . التراب ، الهواء ، النار ، الماء . أما الآن فقد صار الماء هو العنصر الأساسي . إن مجرد رؤيتي لعاشقين هناك في الظلام يشربان الماء ، جالسين في سلام واطمئنان يتحدثان بنبرة خفيضة ، نفحني بشعور رائع عرّفني بالشخصية اليونانية . الغبار ، الحرارة ، الفقر ، القفر ، احتواء الناس ، والماء الموجود في كل مكان في كؤوس صغيرة تقف بين كل عاشقين هادئين ، مطمئنين ، كل هذا أعطاني الشعور بوجود شيء قدسي يشمل هذا المكان ، شيء يتنامى وينتشر . ورحت أتجول مسحوراً في ليلتي الأولى تلك في الزابيون . التي بقيت عالقة في ذهني كما لم تعلق أية حديقة عرفتها . إنها جوهر حديقة ، الشيء الذي يشعر به المرء أثناء النظر الى لوحة كنفا أو أثناء الحلم بمكان يتمنى أن يكون فيه ولا يجده . إنها رائعة في الصباح أيضاً ، كما اكتشفت . أما في الليل ، حين تأتي إليها من لا مكان وأنت تشعر بالأوساخ اليابسة تحت قدميك وتسمع أزيز اللغة التي لا تفقه منها حرفاً ، فهي شيء ساحر ـ وهي أكثر سحراً بالنسبة لي ربما لأنني أفكر بها دائماً باعتبارها مملوءة بأفقر الناس في العالم قاطبة ، وألطفهم . إنني سعيد لانني وصلت أثينا أثناء موجة الحر التي لا تصدق ، سعيد لأنني رأيتها تحت أسوأ الظروف . شعرت بقوة الناس المجردة ، بنقائهم ، بنبلهم ، باستقلالهم . رأيت أطفالهم ، وهو مشهد أشاع الدفء في أضلعي ، لانني حين أتيت من فرنسا كنت أشعر أن العالم يفتقر إلى الأطفال ، وكأنما لم يعودوا يولدون . رأيت أناساً بأثمال ، وكان هذا أيضاً مطهّراً . إن اليوناني يعرف كيف يعيش بأثماله . إنها لا تحط من قدره أو

تلوثه كما تفعل في بلدان أخرى زرتها .

***

في اليوم التالي قررت أن أستقلّ مركباً وأتوجه إلى كورفو حيث كان صديقي داريل ينتظرني . خرجنا من بيريوس منذ حوالي الخامسة بعد الظهر ، وكانت الشمس لا تزال تتلظّى كالأتون . وارتكبت غلطة بشرائي بطاقة من الدرجة الثانية فحين رأيت الحيوانات تصعد متن المركب ، وفرشة التبن ، وكل الممتلكات الجنونية التي يحرص جميع اليونانيون على جرّها معهم في رحلاتهم ، أسرعت بالإنتقال إلى الدرجة الأولى ، والتي لم تكن أغلى إلاّ بمقدار بسيط من الدرجة الثانية . لم يحدث لي من قبل أن سافرت على متن الدرجة الأولى على أية وسيلة مواصلات ، ما عدا مترو باريس ـ وكانت التجربة بمثابة رفاهية فائقة بالنسبة لي . كان النادل يتنقل باستمرار في المكان وهو يحمل الصينية المملوءة بكؤوس الماء . إنها الكلمة اليونانية الأولى التي تعلمتها Nero (ماء) وهي كلمة جميلة . كان الليل يمتد والجزر تلوح عن بعد ، دائماً تعوم فوق الماء ، وليست ثابتة عليه . وبرزت النجوم ببريق مذهل وكانت الريح لطيفة منعشة . بدأت باحتواء الشعور بكل شيء في الحال ، ما هي اليونان ، كيف كانت في الماضي البعيد ، وكيف ستكون دائماً حين سيقابلها سوء الطالع بطغيان السواح الأميركيين . حين سألني رئيس الطباخين عما أرغب من أجل العشاء ، حين تذكرت ما كنا ننوي تناوله على العشاء كدت أنهار في نوبة بكاء ـ الوجبات المقدّمة على متن مركب يوناني مذهلة . إنني أفضل وجبة يونانيه جيدة على وجبة فرنسية جيدة ، رغم أنه من قبيل الهرطقة الإعتراف بذلك . فهناك الكثير من الطعام والكثير من الشراب وفي الخارج الهواء والسماء المملوءة قد وعدت نفسي عند مغادرتي باريس أن أُضرِبَ عن أي

عمل ولمدة سنة كاملة . لقد كانت هذه أول إجازة حقيقية لي خلال عشرين سنةوكنت مستعداً لها. كان كل شيء يبدو لي صحيحاً. لم يعد هناك وجود للزمن، لم يكن هناك إلاّي أتقدم منساباً على مركب وأنا على استعداد لاستقبال جميع القادمين وتقبّل كل الآتي . ومن عمق البحر ، وكأن هومر نفسه هو الذي رتّب لي كل هذا ، ظهرت الجزر بغتة ، وحيدة ، معزولة غامضة في النور الذاوي . لم أكن لأطلب المزيد ، ولم أرغب في المزيد . كان لديّ كل ما يرغبه إنسان ، وكنت أعرف هذا . وعرفت أيضاً أنه لن تتاح لي فرصة أخرى للحصول عليه . لقد شعرت بقدوم الحرب ـ كانت تقترب وتقترب كل يوم . ولكن بقي هناك برهة قصيرة من السلام تتاح فيها للناس أن يتصرفوا كبشر .

***

لم نمر بقناة كورنيث بسبب حدوث انهيار صخري هناك : بل طِفْنا عملياً حول البلوبونيز . في الليلة التالية لخروجنا توجّهنا إلى باتراس المواجهة لميسولوني . وقد تردّدْتُ على هذا المكان مرات عديدة منذ ذلك الحين ، دائماً في الساعة نفسها ، ودائماً اختبر الروعة نفسها . إنك تتوجه رأساً إلى لسان من اليابسة ضخم ، كسهم يدفن نفسه في جنب الجبل . الأنوار الكهربائية المعلقة على طول الواجهة المائية تخلق أثراً يابانياً ، وثمة مسحة ارتجالية تشمل الإضاءة في جميع موانيء اليونان ، شيء يعطي انطباعاً باحتفال متوقّع . وحالما تتقدم داخلاً المرفأ تخرج القوارب الصغيرة لاستقبالك ، مملوءة بالمسافرين والأمتعة والمواشي وتبنها والمفروشات . يجذف الرجال وهم وقوف ، يدفعون بدل أن يجرّوا . يبدون أبعد ما يكون عن التعب وهم ينقلون أحمالهم الثقيلة في عزم بحركات رشيقة لا تكاد تدرك من الرسغ . وبينا هم ينسابون على

طول الشاطىء يضطرم جحيم من الهرج الكل يسير في الإتجاه الخاطىء ، كل شيء مختلط ، عشوائي ، مشوّش . ولكن لا أحد يضيع أو يتأذى . لا شيء يسرق ، لاتبادل ضربات . إنه نوع من الإهتياج خلقته الحقيقة القائلة إنه بالنسبة لليوناني كل حدث ، مهما كان تافها ، هو فريد من نوعه . إنه يقوم دائماً بالشيء نفسه للمرة الأولى : فهو فضولي ، فضولي بشراهة ، ويؤمن بالتجربة . إنه يجرب للتجربة ، وليس ليقيم أساليب أفضل أو أكثر فعالية لتنفيذ الأمور . إنه يحب أن ينفذ أموره بيديه ، بجسمه كله ، بل وبروحه أيضاً . وهكذا يبقى هومر حياً أبداً . ورغم أني لم أقرأ سطراً واحداً لهومر أعتقد أن اليوناني المعاصر هو نفسه لم يتغير . إذا كان قد تغير أبداً فقد صار أكثر يونانيّة من أي وقت مضى . وهنا يجب أن أضع بين قوسين كلمة عن صديقي مايو ، الرسام ، الذي تعرفت عليه في باريس . كان اسمه الحقيقي مالياراكيس وأعتقد أنه جاء أصلاً من كريت . حسن ، بينما كنا ندخل باتراس خطر على فكري فجأة وبعنف . تذكرت أنني سألته في باريس أن يخبرني شيئاً عن اليونان وفجأة ، وبينما نحن نقترب من ميناء باتراس فهمت كل ما كان يحاول أن يفهمني إيّاه في تلك الأمسية وشعرت شعوراً مزعجاً لأنه لا يقف إلى جانبي ليقاسمني متعتي . أذكر كيف قال لي بيقين هادىء ثابت ، بعد أن وصف لي البلد كأفضل ما يكون الوصف ـ « ميللر ، ستعجبك اليونان ، أنا واثق » لقد أثرت هذه الكلمات بي لسببٍ ما أكثر من أي شيء قاله عن اليونان . ستعجبك . . . هذه الكلمة علقت في أذني « يا الله ، نعم ، إنها تعجبني » رحت أردد هذا مراراً وتكراراً وأنا أقف عند الحاجز أتلقى الحركة والهرج . وتراجعت ثم نظرت الى السماء . لم أر في حياتي سماء كهذه . كانت فاتنة . شعرت أنني مفصول تماماً عن أوروبا . لقد دخلت عالماً جديداً باعتباري إنساناً

حراً ، المجد فيه كل شيء ليجعل التجربة فريدة مَن نوعها وخصبة . أيها المسيح كم كنت سعيداً . لكنها كانت المرة الأولى التي أكون فيها سعيداً بكامل وعيي السعـادة . رائـعٌ أن يكون المرء سعيداً هكذا ببساطـة . وأفضل منه بقليل أن تعرف أنك سعيد . أما أن تفهم أنك سعيد وتعرف لماذا وكيف ، وبـأية طريقـة ، وبسبـب أي تسلسـل للأحـداث أو للظروف ، وتظل بعد ذلك سعيداً ، سعيداً بالوجود والمعرفة ، فهـذا ـ والحق يُقال ـ يتجاوز السعادة ، إنه النعيم ، وإذا كان لديك أي حس فيجب أن تقتل نفسك حيث أنت ،وتبيدها معاً. وهذا ما كنت عليه عدا أنه لم تكن لديَّ القوة أو الشجاعة لقتل نفسي عندئـذٍ وهنـاك . وكان رائعاً أيضاً أنني لم أقتل نفسي لانه كانت لا تزالُ هناك لحظات أعظم على وشك الحدوث، شيء يفوق النعيم نفسه، شيء إذا ما حاول أحدهم وصفه لي لكان من الممكن أن لا أصدقه . إذ لم أكن أعرف عندئذٍ أنني في يوم من الأيام سيُقدَّر لي أن أقف على أرض ميسينا ، أو فيستوس ، أو أنني سأستيقظ ذات صباح لأنظر من كوة السفينة لأرى بأم عيني المكان الذي كتبت عنه في كتابي ، ولم أكن أعرف أبداً أنه موجود أو يحمـل نفس الإسم الذي أطلقته في مخيلتي . تحدث للمـرء في اليونـان أمـور رائعة ، طيبة لا يمكن أن تحدث له في مكان آخر من الأرض . ويبـدو بشكل ما أن اليونان ، كأنما الخالـق يحنـي رأسـه نعسـاً ، ظلـت تحت حمايته . قد يتخبط الناس في حيرتهم السقيمة العقيمة ، حتى في اليونان نفسها ؛ غير أن سحر الله يبقـى يعمـل ، ومهما يفعل الجنس البشري أو يحاول عمله فستظل أرض اليونان مقدسة وإيماني أنهـا ستبقـى كذلك حتى نهاية الدهر .

***

حين رسي القارب في كورفو كانت الشمس آنئذٍ في سَمْتها . كان

دريل ينتظرني على الرصيف مع سبيرو أميركانوس ، مُسْتَخْدَمه . استغرق السفر إلى كالامي حوالي الساعة ، وهي القرية الصغيرة التي تقع في الطرف الشمالي للجزيرة حيث يقطن دريل . قبل تناول الغداء سبحنا قليلاً أمام المنزل . حتى ذلك الحين لم أكن قد نزلت إلى الماء منذ حوالي عشرينَ عاماً . وكان دريل ونانسي ، زوجته ، كدلفينين ، يعيشان في الماء عملياً . بعد الغداء أخذنا قيلولة وبعدها جذفنا إلى خليج صغير آخر يبعد نحو ميل ، انتصب عنده ضريح مقدس صغير وأبيض اللون . وهنا عَمَّدْنا أنفسنا من جديد بالتراب المبلل . وفي المساء تعرّفت إلى كيريوس كارامينايوس ، الدركي المحلي ، ثم إلى نيقولا ، مدرّس الضيعة ، وسرعان ما صرنا أصدقاء حميمين . تحدثت مع نيقولا بلغة فرنسية مكسّرة ، ومع كارامينايوس بلغة أشبه بالقرقعة تكوّنت بشكل رئيسي بفعل النية الطيبة والرغبة في فهم بعضنا .

كنا نمضي إلى البلدة مرة كل أسبوع تقريباً في زورق كيك . ولم أستطع أن أحب بلدة كورفو أبداً . كان يشملها جو وقتيّ عابر يتحول في المساء إلى نوع من الخبل الهادىء المتوتر . فتجد نفسك دائماً جالساً تشرب مشروباً لا ترغب فيه أو تتمشى بلا هدف وأنت تشعر أنك سجين لا أمل في خلاصه . كنت أحياناً أثناء وجودي في البلدة أقص شعري وأحلق ذقني . كنت أقوم بهذا لاسفح الوقت ولأن الأجر زهيد بشكل يدعو للسخرية . كان حلاق الملك ، هكذا قالوا لي ، ودفعت مقابل العمل كله ثلاثة سنتات ونصف بما فيه البقشيش . كورفو هي المكان الأمثل للنفي . كان الامبراطور يقيم هنا قبل أن فقد تاجه . تجولت مرة في المكان لأتبين معالمه جميع القصور التي زرتها صدمتني بكونها كثيبة موحشة ، أما بيمارستان الامبراطور فكان أسوأ قطعة مبهرجة وقعت

عليها عيناي . إنها تصلح متحفاً ممتازاً للفن السريالي . ومن ناحية اخرى ، ففي أحد أطراف الجزيرة، قبالة القصر المنعزل تقع بقعة صغيرة تسمى كانوني ، منها تطل على التوتن إنسل[5] الساحر . في المساء يجلس سبيرو هنا يحلم بحياته في رود ايلاند حين تكون حركة المبيعات المهربة على أشدها . إنها بقعة تناسب تماماً صديقي هانس رايكل ، الرسام المائي . أعرف أن الملحقات ذات طبيعة هوميرية ، ولكني أرى أن المكان يتعلق بشتوتغارت أكثر منه باليونان العتيقة . وحين يكون القمر ساطعاً ولا يُسمَعُ أي صوت عدا تنفس الأرض يكون هذا هو تماماً الجو الذي يخلقه رايكل حين يجلس في حلم متحجّر ويصبح أقرب الى العصافير والحلزون وتماثيل الغورغويل، إلى حلقات الدخان والأحجار المتعرِّقة ، أو إلى الموسيقى المثقلة بالحزن التي لا تني تعزف في قلبه حتى وهو يشبّ كالكنغارو المخبول ويحطم كل ما يقع عليه نظره بذيله القادر على الإمساك بالأشياء . ولو أنه يقرأ هذه الأسطر ويعلم أنني ، وأنا أنظر إلى التوتن أنسلُ ، أفكر فيه ، وأنني لم أكن أبداً ذاك العدو الذي تصوَّره ، إذن لكنت في منتهى السعادة . وربما كانت ليلة من هذه الليالي التي جلست فيها في كانوني مع سبيرو نشرف على هذا المكان الساحر حين جُرَّ رايكل ، الذي لم يكنْ يكنّ سوى حُبِّه للفرنسيّين ، من عرينه في الامباس روه ووضع في معسكر اعتقال قذر .

***

وفي أحد الأيام ظهر ثيودور ـ الدكتور ثيودور ستيفانيدس . كان يعرف كل شيء عن النباتات ، والأزهار ، والأشجار ، والصخور والمعادن وأشكال الحياة الحيوانية البدائية ، والميكروبات ، والأمراض ، والنجوم ، والكواكب ، والمذنَّبات ، الخ . وثيودور هو أفضل مثقف

عرفته في حياتي ، وهو قديس حتى أخمص قدميه . وقد ترجم ثيودور عدداً من القصائد اليونانية إلى الإنكليزية . وعن طريقه سمعت لأول مرة باسم سيفيرس ، وهو الإسم الأدبي لجورج سيفيريادس . وبعد ذلك وبمزيج من الحب والإعجاب والفكاهة الخبيثة لفظ لي اسم كاتسيمباليس والذي ترك لديّ ويا للغرابة ، انطباعاً فورياً . في تلك الليلة أعطانا ثيودور وصفاً مشوّشاً عن حياته مع كاتسيمباليس في الجبهة البلقانية خلال الحرب العالمية . في اليوم التالي كتبت ودريل رسالة حماسية إلى كاتسيمباليس الذي كان في أثينا ، معبرين عن أملنا في أن نلتقي قريباً . كاتسيمباليس . . . كنا نستخدم اسمه بإلفة . وكأنما كنا نعرفه طوال حياتنا . بعد ذلك بوقت قصير غادَرَنا ثيودور ومن ثم جاءت الكونتيسة الكونتيسة مع نيكي وعائلة من لاعبي السيرك الشبان . جاؤوا إلينا فجأة ودون سابق انذار في قارب صغير محمّل بطعام رائع وقنان من أندرخور عزبة الكونتيسة . وسار الأمر منذ البداية بشكل لا عقلاني بوجود هذه الفرقة من علماء اللغات والمشعوذين والبهلوانات وحوريات البحر . كان لنيكي عينان بلون زرقة النيل وبدا شعرها مضفوراً بالأفاعي . وبين الزيارة الأولى والثانية لهذه الفرقة العجيبة ، التي كانت تأتي دائماً مثقلة بحملها من الأطايب ، كنت وعائلة دريل نقيم مخيم استجمام على الشاطىء الرملي مواجهة البحر . هنا كان الزمن يغيب تماماً . كانت تمر علينا صباحات كثيرة يوقظنا فيها راع مجنون يصر على أن يقود قطيعه فوق أجسادنا المنكفئة ، وإذ بساحرة حيزبون تظهر من فوق الجرف خلفنا مباشرة لتصب عليه لعناتها . كان كل صباح دهشة بحد ذاتها . كنا نستيقظ مع صرير ولعنات تتبعها جلجلات الضحك . ونقوم بغطسة سريعة في البحر ومن هناك نرقب الماعز وهو يتسلق منحدرات الجرف الشديدة

الإنحدار . كان المشهد صورة منقولة طبق الأصل عن رسوم الصخرة الرودوسية التي يراها المرء في متحف الإنسان في باريس . أحياناً كنـا نتسلق خلف الماعز تحدونا روح عالية ، ونهبط بعد ذلك ولم ننل غـير الجروح والرضوض . ومضى أسبوع لم نر أحداً خلاله اللهُمَّ إلا رئيس بلدية القرية الجبلية التي تبعد بضعة أميال ، وقد أتى ليتفقد أمورنا . أتانا في يوم كنت فيه وحدي مسترخياً في ظل صخرة هائلة . لم أعرف عندئذٍ أكثر من عشر كلمات يونانية ولم يكن هو يعرف أكثر من ثلاث إنكليزية . وتبادلنا يومها حديثاً فريداً من نوعه ، إذا أخذنا بعين الإعتبار اللغة المحدودة . ولما رأيت أنه نصف مخبول شعرت بارتياح ، ولما لم تكن عائلة دريل موجودة لتحذرني من أمثال هذا المهرج ، بدأت بأداء أغنيتي الخرقاء ورقصت له ، وكان ذلك بتقليد نجوم السينما من ذكور واناث ، وموظفي الصين القديمة ، وجواد البرونكو القزم ، والغاطس من الأعالي وما إلى ذلك . وبدا عليه أنه مستمتع وقد استمتع أكثـر ، والله أعلم لماذا ، بتقليدي الصيني . ورحت أتحدث أمامـه بالصينية ، دون أن أعرف منها كلمة واحدة ، فإذا به ويا للدهشة يجيبني بالصينية ، لغته الصينية الخاصة ، وكانت جيدة كلغتي ، في اليوم التالي صحب معه مترجماً لسبب واضح هو أن يُلقي عليّ كـذبة كبيرة ، ليعرض خفة دمه ، قائلاً إنه قبل عدة سنين مضت رسـا قارب صيني على هذا الشاطىء بالذات واستقر قرابة أربعمائـة صينـي على هذا الشاطىء حتى رمّـوا قاربهم . وقال إنه أحب الصينيين حباً جمّاً ، وإنهم كانوا قوماً رائعين ، ولغتهـم موسيقية ، ذكية جداً . وسألتـه إن كان يقصـد أنها « مفهومة » ولكن لا ، إنه يقصد أنها ذكية . واللغة اليونانية ذكية أيضاً . والألمانية أيضاً . ثم قلت له إنني أنا أيضاً ذهبت إلى الصين ، وهذه كذبة أخرى ، وبعد أن وصفت ذاك البلد انتقلت إلى إفريقيا وحكيت له عن

الأقزام الذين عشت معهم فترة من الزمن وأخبرني أن لديهم بعض الأقزام في قرية مجاورة لهم واستمر الأمر عى هذا المنوال من كذبة إلى أخرى ساعات طويلة استهلكنا خلالهـا كسية من الخمـر والزيتـون وبعد ذلك جاء أحدهم بمزمار ورحنا نرقص رقصـة القـديس فيتـوس الحقيقية واستمرت هكذا بلا انقطاع وانتهت في البحر وهناك رحنا نعض بعضنا بعضا كالبرطعانات ونصرخ ونجأر بجميع لغات العالم

أنهينا مخيَّمنا ذات صباح باكر عائدين إلى كالامي ، كان يوماً غريباً شديد الحرارة والرطوبة وأمامنا ساعتان من التسلق للوصول إلى القرية الجبلية حيث ينتظرنا سبيرو مع سيارته . كان هناك أول الأمر امتداد من الرمال علينا اجتيازه قفزاً لأنه حتى بوجود واقيات الأقـدام كان الرمـل يلذع أقدامنا . بعدها خضنا رحلة طويلة في حوض نهـر جـاف كانت بمثابة اختبار لأقوى الكواحل بسبب وجود الجلاميد فيه . وأخيراً وصلنا إلى الممر المؤدي إلى سفـح الجبـل ، كان أقـرب للأخـدود من للممر ، وجديراً بارهاق المُهْرة الجبلية التي حمّلناها امتعتنا. وبينما نحـن نتسلـق استقبلنا لحن سحري أتانا من الأعالي ، كالضباب الكثيف القـادم من البحر يغمرنا بتضاعيفه المفعمة بالحنين وفجأة ذوى واختفى . بعد أن ارتفعنا بضعة مئات من الأقـدام وصلنـا إلى بقعـة خالية من الأشجـار ووجدنا وسطها وعاء خمر هائل الحجم مملوء بسائل سام ، مبيد حشرات لأجل أشجار الزيتون ، كانت الصبايا يحرّكنه وهن يغنـين أغنية موت تمتزج بفرادة مع المشهد المغمـور بالضبـاب الـكثيف . وكانـت الغيوم الضبابية المنتشرة في كل مكان قد تراجعت قليلاً لتكشف عن كتلة من الأشجار أو عن كتل صخرية بارزة جرداء تشبه مخلباً مُثلّماً ، ورجّعت أصداء لحنهم الشبحي كجوقة نحاسية ضمـن فرقـة موسيقية . وبـين

الفينة والأخرى تبزغ منطقة هائلة زرقاء من البحر مخترقة الضباب ، ليست على نفس مستوى الأرض وإنما في منطقة تقع بين السماء والأرض ، وكأن إعصاراً ما قد انتهى لتوه . والبيوت أيضاً التي انبجست فجأة مخترقة بكتلتها المادية السراب ، بدت كأنها معلقة في الفراغ كان الفضاء الجوي بأكمله مغموراً بروعة إنجيلية تبعث على القشعريرة تنظمها رنات أجراس المهرة ، وأصداء أغنية السم ، وهدير أمواج الشاطىء الواهن في العمق السحيق ، وهمهمة الجبل المبهمة التي ، على الأغلب ، لم تكن أكثر من ضربات نبض الصدغين تحت تأثير ضباب صباح ايّوني عالٍ مفعم بالحرارة والرطوبة . وعند طرف الجرف توقفنا هنيهات للراحة ، وقد أخذنا الذهول وعجزنا عن متابعة دربنا للدخول إلى العالم اليومي النقي البراق للقرية الصغيرة في الطرف الآخر . في ذاك العالم الأوبرالي Operatic ، حيث التحم التاو ته كينغ[6] والفيداس[7] القديم بزخم من الحركة والشعور في فوضى من طباق موسيقيّ ، كان مذاق السجائر اليونانية الخفيفة أقرب شبهاً بمذاق التبن. حتى حاسة الذوق هنا أضحت متناغمة بالمعنى الغيبي : كان الحس المسرحي ينبع من الجو ، من المناطق العليا ، من الصراع الأبدي بين النفس والروح .

ثم يأتي الممر ، الذي سأظل أذكره باعتباره مفترَقَ طرقٍ لمجموعةِ مسالخ لا معنى لها . لا بد أن أكثر المذابح فظاعة وإيحاءً بروح الإنتقام قد ارتُكِبَت هنا مرة على مدى ماضي الإنسان الدموي اللا متناهي . إنه فخ نَصَبَتْه الطبيعة نفسها لإعاقة الإنسان . اليونان ملآى بأفخاخ الموتِ هذه . إنها أشبه بنغمةٍ كونيَّة قوية تضفي التناغم على العالم السكران اللاّهي حيث تهدد شخصيات الماضي المتألق ، البطوليّة والأسطورية

وبشكلٍ دائم بالسيطرة على الوعي . كان اليونانيّ القديم مجرماً : عاش وسط تجلّيات قاسية عذّبت الروح ومسّتها بالجنون . كان في حالة حرب مع الجميع ، بِمَن فيهم نفسه . من فوضويته الناريّة هذه انبثقت تأملات صافية ، شافية ، غيبيّة لا تزال إلى اليوم تأسر العالم أجمع . وبينما أنا أعبر الممر ، الذي يتطلّب أن يكون المرءُ نوعاً من صليبٍ معقوف يناور ليخرج من هذا المضيق متحرراً مشرقاً إلى النجد العالي ، شعرت أنني أخوض في بِحار وهميّة من الدماء ، ولم تكن الأرض جافة مُزلزلة بعنف على الطريقة اليونانية المعتادة ، بل منكمشة وملتوية ، كما الأطراف المتيبّسة الجامدة جمودَ الموتِ للمقتولين الذين تُركوا ليتعفّنوا ويهبوا دمهم ، هنا تحت أشعة الشمس القاهرة ، لجذورِ أشجارِ الزيتون البرّيّة المتشبّثة بسفح الجبل المنحدر بمخالب قوية. لا بد أن لحظات من الرؤى الصافية قد تجلّت في هذا الممر الجبلي لرجالٍ من أجناسٍ نائية وقفوا يمسك بعضهم بأيدي بعض وينظر كل واحد منهم في عينيّ الآخر بكل عطف وفهم . ولا بد أيضاً أن رجالاً فيثاغوريين قد توقفوا ليتأملوا في صمت وعزلة ، ليحصلوا على جلاءٍ نَضِر ، رؤيا نَضِرة من موقع المذبحة المغطّى بالتراب . اليونان كلها مُكَلّلة ببقع متناقضة كهذه ، وهذا يعطي تفسيراً للحقيقة القائلة إن اليونان قد تحرّرت كبلد ، وأمة ، وشعب ، كي تبقى مفترق طرق مضيئاً ورمزاً للإنسانية المتبدّلة .

انصرمت الأيام في كالامي منسابة كأغنية . وبين الحين والآخر كنت أكتب رسالة أو أحاول أن أرسم لوحة مائية . وكان هناك الكثير مما يُقرأ في المنزل ، ولكن لم تكن بي رغبة للنظر في أي كتاب . وحاول دريل أن يدفعني لقراءة قصائد شيكسبير ، وبعد أن حاصرني مدة أسبوع ، قرأت واحدة وربما كانت أكثر القصائد التي كتبها شيكسبير غموضاً

(اعتقد إنها كانت قصيدة « العنقاء والسلحفاة ») بعد ذلك بوقت قصير استلمت نسخة بالبريد من كتاب « المذهب السرّي » وقد انكببتُ عليه برلهبة وأعدت قراءة مذكرات نيجنسكي . وأنا أعلم أنني سأقرأها مراراً وتكراراً . ولا يوجد إلا كتب قليلة يمكنني أن أعيد قراءتها مراراً ـ « الغاز » أحدها و« الزوج الأبدي » أيضاً ، وربما يجب أن أضيف إليها أيضاً « أليس في بلاد العجائب » . على أية حال ، كان من الأفضل بكثير قضاء الأمسية بالتحدُّث والغناء ، أو بالوقوف على الصخور عند حافة الماء مع تلسكوب من أجل مراقبة النجوم .

حين ظهرت الكونتيسة ثانية على الساحة أقنعتنا بقضاء بضعة أيام في عزبتها الكائنة في الجانب الآخر من الجزيرة . وقد أمضينا هناك ثلاثة أيام رائعة معاً ، وفي منتصف ليلة أحد الأيام عُبِّئ الجيش اليوناني. لم تكن الحرب قد أُعلِنَت بعد ، إلا أن عودة الملك المفاجِئة إلى أثينا فسَّرها الجميع على أنها إشارة منذرة بالشؤم . وقد حذا حذو الملك كل صاحب ملك . وساد بلدة كورفو ذعر متفاوت . وأراد دريل أن يكتتب في الجيش اليوناني لأداء خدمته في الجبهة الألبانية ، وسبيرو الذي تعدّى السن لذلك أراد أيضاً أن يقدِّم خدماته . مرت عدَّة أيام على هذا المنوال من التحرُّكات الهسترية ومن ثم ، وكان الأمر رتَّبه مدير متخصص ، وجدنا أنفسنا ننتظر سفينة لتنقلنا جميعاً إلى أثينا . كان من المفروض أن تصل السفينة في التاسعة صباحاً ، ولم نصعد إلى متنها إلا في الرابعة من صباح اليوم التالي . في ذلك الحين كان رصيف الميناء قد امتلأ بنثار لا يوصف من الأمتعة جلس عليها أصحابها المحمومون أو تمددوا على الأرض ، متظاهرين بأنهم غير مبالين لكنهم في الحقيقة يرتعدون فَرَقاً . تبع ذلك مشهد هو من أكثرها خِزياً حين اقتربت المراكب أخيراً .

وكالعادة ، أصرّ الأغنياء على أن يصعدوا أولاً . وبما أنه كان لديّ بطاقة جلوس في الدرجة الأولى وجدت نفسي بين الأغنياء . كنت مشمئزاً كلّياً وكدت أقرر نهائياً ترك المركب بهدوء والعودة رأساً إلى منزل دريل وأدع الأمور تأخذ مجراها . وإذ بي وبفعل معجزة ما أكتشف أننا لم نكن الأوائل في الصعود الى المركب ، بل الأواخر . أفرغت المراكب جميعاً من الأمتعة الأنيقة بوألقيت على الرصيف من جديد . برافو ! وطَفَر قلبي فرحاً ، فقد كانت الكونتيسة ، التي بحوزتها أكبر كمية من المتاع ، هي آخر الصاعدين . بعد ذلك اكتشفت ويا لدهشتي أنها هي التي دبّرت الأمور لتسير على هذا المنوال . لقد أزعجها فقدان الكفاءة ولم يكن الأمر يتعلّق بالطبقة أو بالامتياز . ومن الواضح أنها لم تكن تخاف الايطاليين بتاتاً ـ أما ما كانت تحسب حسابه فهو الفوضى ، والتزاحم المشين . وكما قلت ، كان الوقت هو الرابعة صباحاً ، والقمر يتلألأ براقاً فوق صفحة بحر هائج مائج ، حين رحلنا عن الميناء في قوارب الكيك Caiques . لم أتوقع أبداً أن أغادر كورفو تحت ظروف كهذه . كنت مغتاظاً من نفسي قليلاً لأنه حكم عليّ بالذهاب إلى أثينا . كان اهتمامي بانقطاع إجازتي المفعمة بالنعيم أكبر من اهتمامي بمخاطر الحرب الوشيكة . كان الصيف لا يزال في أوجه ولم أكن قد نلت كفايتي من الشمس.والبحر . وفكرت في الفلاحات والأولاد بأسمالهم الذين سيصبحون قريباً بلا طعام ، في النظرة التي في عيونهم وهم يلوّحون لنا مودّعين . كان من الجبن أن نهرب على هذا الشكل ، تاركين الضعفاء والأبرياء لِقَدَرهم . إنه المال من جديد . الذين هربوا ، والذين لم يهربوا ذُبحوا جميعاً . ووجدت نفسي أصلّي كي يوقفنا الايطاليون ، كي لا تتاح لنا فرصة الفرار دون عقاب على هذا الشكل المخزي .

حين استيقظت وصعدت إلى السطح كانت السفينة تمرّ حينئذٍ من

«هسهق ضيّق ، وعلى الجانبين امتدّت هضاب جرداء واطئة ، أكمات ليّنة الحدود ، ومرصّعة بأزهار البنفسج على أرض ذات تقاطيع إنسانية أليفة تدفع المرء للبكاء من فرط الفرح . والشمس في سَمْتِها تقريباً ولهيبها يتلظّى بشدّة . كنت موجوداً على وجه الدقّة في ذاك العالم اليوناني الصغير الذي وَصفتُ حدوده في كتابي قبل بضعة شهور سبقت مغادرتي باريس وكأنني استيقظت فوجدت نفسي حيّاً داخل حلم . كان في حضورِ ذينك الشاطئين البنفسجيين البديهيّ الوضّاء شيء استثنائيّ . كنا نتزلق بنفس الطريقة التي وصفها روسو(*)موظف الجمارك le douanier في لوحته كان شيئاً أكثر من مجرد جو يوناني ـ كان شاعرياً ، لا علاقة له بأي زمان أو مكان حقيقيين معروفين لدى الإنسان . كان القارب نفسه هو صلتنا الوحيدة بالواقع . والقارب مملوء حتى الشفير بنفوس ضالّة تتشبّث بيأس بالقِلّة القليلة من متاعها الأرضي . نساء ذوات أسمال ، عاريات الصدور ، يحاولن عبثاً إرضاع أطفالهن العاوين ، جالسات على أرضية المركب وسط كومة من القيء والدم والحلم الذي يعشنه لم يداعب أجفانهنّ أبداً ولو أن قذيفة نسفتنا حيث كنا لانتقلنا كما نحن ، مع القيء والدم والفوضى ، إلى العالم السفلي المظلم . في تلك اللحظة بالذات ابتهجت لأنني كنت متحرراً من المتاع ، منعتقاً من جميع الروابط ، متخلصاً من الخوف والحسد والخبث كان بوسعي أن أعبر بهدوء من حلم إلى آخر ، لا أملك شيئاً ، لا أندم على شيء ، ولا أرغب في شيء . لم أكن دهري أكثر تأكداً من أن الحياة والموت هما واحد وإنه ليس بالإمكان الإستمتاع أو معانقة أحدهما في غياب الآخر .

***

(*) هنري روسو : (1844 - 1910) رسام فرنسي ، كان يلقب بـ « موظف الجمارك ». ن الرسم لديه هواية بدأها حوالي عام1880 . اشهر لوحاته « الغجرية النائمة » .

في باتراس قررنا أن نتوقف ونستقل القطار إلى أثينا . كان فندق سيسل الذي نزلنا فيه هو أفضل الفنادق التي نزلت فيها ، وقد زرت العديد منها . كانت تكلفته حوالي الثلاثة والعشرين سنتاً كل يوم للغرفة الواحدة وما كان يمكن لغرفة مثلها أن تُضاعَف في أميركا لأقل من خمسة دولارات . أتمنّى على كل من يمر باليونان أن يتوقف في فندق سيسل ويرى بنفسه . إنه حدث بارز يقع للإنسان . . . تناولنا الإفطار قرابة الظهيرة على مسطبة الغرفة المشمسة المطلة على البحر ، وهنا وقع بين دريل وزوجته شجار عنيف . وشعرت أنا بالعجز التام ولم يسعني إلا أن أشفق عليهما معاً من أعماق قلبي . لقد كان شجاراً خاصاً جداً استخدمت فيه الحرب كسبب مموّه للسبب الحقيقي . إن التفكير في الحرب يثير الرعب بين الناس ، ويجرفهم إلى الجنون ، حتى وإن كانوا أذكياء ومتبصرين بالأمور ، أمثال دريل وزوجته . وللحرب تأثير سيء آخر ـ فهي تجعل الشبان يشعرون بالذنب وبتأنيب الضمير . فقد كنت في كورفو أدرس التصرفات الغريبة لشاب إنكليزي ، في العشرين أو نحوها ، يتمتع بصحة كاملة ، ينوي أن يكون عالِماً يونانياً . كان يدور ويدور كدجاجة رافعاً رأسه وهو يتوسل ليعيِّنه أحدهم في الخط الأول حتى يحصل على شرف الإنفجار إلى أشلاء . والآن دريل يتكلم بالطريقة نفسها ، الفرق الوحيد هو أنه لم يكن مشتاقاً ليُقتَل قَدَر اشتياقه ليكون مع القوات اليونانية في ألبانيا ـ لأنه كان يفكر بالشعب اليوناني أكثر من تفكيره بأبناء بلده أما أنا فقلت أقل ما يمكن أن يقال لأنني لو حاولت ثنيه عن بغيته لما نجحت بغير تحريض دافع الإنتحار فيه . لم أكن أريد أن أراه مقتولاً ، فقد بدا لي أن بإمكان الحرب أن تستمر حتى نهايتها العقيمة دون التضحية بشخص مقدَّر له أن يمنح الكثير للعالم . كان يعرف رأيي في الحرب وأعتقد أنه كان يوافقني في

قلبه ، لكنه لما كان شاباً صغيراً ، وخدوماً ، وإنكليزياً رغم أنفه ، وقع في مأزق . كان مكان جلوسنا هو أسوأ مكان لنقاش موضوع من هذا النوع . والجو مشحون بالذكريات عن بايرون (8) . وكان من المستحيل علينا ، ونحن جالسون هناك ، وميسولوني بقربنا ، أن نتكلم عن الحرب بتعقّل . أما القنصل البريطاني في باتراس فقد كان أكثر عقلانية بكثير . فبعد أن تبادلت معه حديثاً مقتضباً شعرت باستعادة احترامي للامبراطورية البريطانية . وذكّرت نفسي أيضاً أن الحرب في الواقع لم تكن قد أعلنت بعد . فكثيراً ما هدّدت بالإنفجار ـ وقد لا تندلع أبداً .

تناولنا وجبة دسمة في الساحة العامة وقرابة بعد الظهر استقلينا الأوتومتريس قاصدين أثينا . وخلال حديث تبادلته مع بعض زملاء السفر رحّب بي يوناني كان عائداً من أميركا بطريقته المرحة منادياً إياي بيا أخي الأميركي وبدأ حديثاً مع نفسه طويلاً بليداً بشكل يثير الغضب عن أمجاد تشيكاغو ، وشككت في أن يكون قد عاش فيها أكثر من شهر واحد . وأهم شيء هو أنه كان مشتاقاً للعودة إلى الوطن ـ يقصد أميركا ، فقد وجد أن أبناء قريته جهلة ، قذرون ، متأخرون ، قاصرون ، إلخ إلخ . . . وقاطعنا دريل مرة ليسألني عن اللغة التي يتحدث بها الرجل ، فلم يكن قد سمع يونانياً يتحدث بهذا النوع من اللهجة الأميركية . وكان الرجال الذين أتحدث معهم مشتاقين لمعرفة ما يجعل هذا القروي الغريب منفعلاً إلى هذا الحد . وكنا حتى مجيء هذا المسخ نتكلم بالفرنسية . وأخبرتهم بالفرنسية أن الرجل جهول . عندئذٍ سألني اليوناني عن اللغة التي أتحدث بها ولما قلت له الفرنسية أجاب ـ « أنا لا أتقن هذه اللغات ، تكفيني لغة الأميركيين . . . . فأنا من تشيكاغو » ورغم أنني أبديت له وبوضوح أني غير مهتم بقصصه إلا أنه

أصر على أن يحكي لي عن نفسه . قال إنه الآن في طريقه إلى قرية جبلية صغيرة حيث تعيش أمه . وأضاف « ولأريك مدى جهالة أولئك الناس ابتعت حوض استحمام لأمي جلبته معي من تشيكاغو وركّبته بيدي فهل تظن أنهم أبدوا أي امتنان ؟ لقد ضحكوا مني ، وقالوا إني مجنون إنهم لا يريدون أن يحافظوا على نظافتهم . والآن في تشيكاغو . . . » واعتذرتُ من زملاء السفر لوجود هذا الأبله ، وشرحت لهم أن هذا ما تفعله أميركا بأبنائها بالتبني . وضحكوا على هذا من قلوبهم ، بما فيهم اليوناني الجاهل الجالس إلى جانبي الذي لم يفهم كلمة مما قلت ، بما أن ملاحظتي كانت بالفرنسية . وتتويجاً لكل هذا سألني ذاك الأبله أين تعلمت لغتي الإنكليزية . وحين أخبرته أني ولدت في أميركا أجاب بأنه لم يسمع أي شخص يتحدث الانكليزية مثلي ، قال هذا بطريقة أراد منها أن يلمّح إلى أن اللغة الإنكليزية المحترمة الوحيدة التي تستحق الإستخدام كانت لغته المشكّلة التي تعلّمها من المسلخ .

***

حين وصلنا أثينا كان البرد قارساً إلى حد يستوجب ارتداء المعاطف. فأثينا مثل نيويورك طقسها سريع التقلب ، وفيها الكثير من التراب أيضاً كلما اتجهت متوغلاً في الضواحي . حتى في قلب المدينة - حيث أكثر بيوت الأزياء حداثة - تكون الشوارع أحياناً لا أكثر من طرقات قذرة . بإمكان المرء أن يقطع المدينة مشياً في نصف ساعة . إنها حقاً مدينة كبيرة تعدادها حوالي المليون نسمة ، لقد كبرت مائة مرة منذ أيام بايرون . نظام الألوان فيها هو الأزرق والأبيض كما في جميع أنحاء اليونان . حتى الصحف تستخدم الحبر الأزرق ، الأزرق البراق بلون السماء ، مما يضفي على الصحف سمة البراءة والصبيانية . والأثينيون

يلتهمون الصحف فعلاً ، ولديهم نهم لا يُروى للأخبار . ومن شرفتي في الفندق الكبير أطل على ساحة الدستور ، التي تَسْوَدُّ ليلاً من حشود الناس ، آلاف منهم ، يجلسون على طاولات صغيرة مزدحمة بالمشارب والمثلجات ، والنُدُل ينطلقون مسرعين رائحين غادين بالصواني إلى المقاهي المتصلة بالساحة .

هنا وفي إحدى الأمسيات في طريق عودته إلى أماروسيون قابلت كاتسيمباليس . كان اجتماعاً مقدّراً حتماً وبصدد مقابلاتي المقدَّرة مع الرجال فإني على هذا الأساس لم أتعرف سوى على رجلين آخرين على هذا النمط خلال حياتي كلها - وذلك حين قابلت بليز سيندرار وحين قابلت لورنس دريل . لم يكن لدي الكثير لأقوله في الليلة الأولى ، بل أنصتّ وأنا مبهور ، مفتون بكل عبارة يتفوه بها . ورأيت أنه خُلِقَ خصيصاً ليلقي منولوجاً ، مثل سيندرار (9)، مثل موريكاند المنجّم(10). إنني أحب الحديث المفرد أكثر من الحديث بين اثنين ، حين يكون جيداً . إنه كمراقبة شخص يكتب كتاباً موجهاً إليك ، فهو يكتبه ، ويقرأه بصوت عال ، يمثّله ، يراجعه ، يتذوقه ، يستمتع به ، ويستمتع باستمتاعك به ، ومن ثم يمزقه قطعاً ويرميه للرياح . إنه عرض فائق الروعة ، لأنه بينما هو يؤديه تكون أنت الله بالنسبة له - إلا إذا كنت أبلهَ عديم الحس وفاقد الصبر . وفي هذه الحالة لا يحدث أبداً ذاك النوع من المونولوج الذي أشرت اليه

في تلك المناسبة الأولى وجدته يمثل خليطاً من الأشياء المثيرة للفضول ، كان يتمتع ببنية ثور ، وتماسك نسر ، ورشاقة فهد ، ووداعة حمل ، وخجل حمامة . رأسه غريب في ضخامته وهذا ما سحرني ودفعني ، لسبب ما ، لاعتبار هذه الصفة خاصة بسكان أثينا . كانت

يداه صغيرتين بالمقارنة مع جسده ، ورقيقتين بإفراط . كان رجلاً حيوياً قوياً ، قادراً على القيام بالتلميحات القاسية والتلفظ بالكلمات الفظّة ، ومع ذلك يعطي انطباعاً بالدفء ، وهذه صفة حسّاسة أنثوية . كان فيه أيضاً عنصر مأساوي عظيم لا تُظهِره إلا قدرته الفائقة على المحاكاة كان متعاطفاً إلى أقصى حدٍ وفي الوقت نفسه متحجر القلب كفلاح جلف . يبدو دائماً أنه يتكلم عن نفسه ، ولكن ليس بأنانية أبداً . يتكلم عن نفسه لأنه كان هو نفسه من أمتع الناس الذي عرفهم . وكم أحببت هذه الصفة فيه ـ إنني لا أتحلّ إلا بالقليل منها .

وتقابلنا بعد ذلك بعدة أيام لتناول العشاء معاً ـ هو ، وزوجته أسباسيا وعائلة دريل . بعد العشاء اجتمعنا ببعض من أصدقائه . وقد تواصلت بَقْبَقتهُ منذ لقائنا . كان دائماً على هذا الشكل ، حتى في الأيام السيئة حين يشتكي من صداع أو دوخة أو أي شيء من المائة مرض ومرض التي تضايقه . ويرافقنا إلى حانة في بيريوس لأنه ، كما قال ، يريدنا أن نستمتع بالطعام اليوناني على الطريقة اليونانية . وهو أحد الأماكن المفضلة التي كان يتردد عليها في الأيام الخوالي وقال « لقد ارتكبت خطأ بزواجي» وتُنْصِت زوجته وهي تبتسم بتسامح ـ « لم أكن مهيأ للحياة الزوجية ـ إنها تحطمني . لا أستطيع النوم ، لا أستطيع التدخين ، لم يعد باستطاعتي احتساء الشراب . . . لقد انتهيت » كان دائماً يتحدث عن نفسه وكأنه شخص منهار تماماً ، ويكون هذا بمثابة الفكرة الرئيسية التي يغزلها مع مونولوجه على سبيل التوطئة للخوض في موضوع ما . والأمور التي لم تحدث إلا في الأمس القريب تقع هي الأخرى ضمن نطاق هذا الماضي البائد المشحون بالحنين . أحياناً ، وهو يتكلم بهذا الشكل ، يوحي إليّ بأنه سلحفاة ضخمة انزلقت من

صدفتها ؛ مخلوق أنهك نفسه في صراع يائس للعودة إلى الصدفة التي صار يفوقها حجماً . وخلال هذا الصراع يسمح لنفسه دائماً بأن يبدو غريباً مثيراً للسخرية ـ وكان يقوم بهذا ببراعة ، فيضحك من نفسه ، على طريقة المهرج المأساوية . وكنا نضحك جميعاً ، حتى زوجته ومهما كانت الحكاية مغرقة في الحزن أو الكآبة أو مثيرة للشفقة نضحك بلا انقطاع . كان يرى الجانب الهزلي من كل شيء ، وهذه هي النكهة الحقيقية للحس المأساوي .

والطعام . . . إنه شيء هو شديد الولع به . يستمتع بالطعام منذ طفولته وأعتقد أنه سيظل على استمتاعه هذا حتى يموت . كان والده خبيراً كبيراً في أنواع المآكل ، ورغم افتقار كاتسيمباليس ربما إلى بعض رهافات أبيه الحسية ومآثره ، غير أنه ظل يتبع خطى تراث العائلة . فكان بين اللقم الكبيرة المؤلفة من اللحم يضرب صدره بشدة كغوريلا قبل أن يتبعها بوعاء من شراب الريزينا ، وقد شرب الكثير من الريزينا في زمانه قال إنه مفيد للإنسان ، مفيد للكلاوي ، ومفيد للكبد ، ومفيد للرئتين ، ومفيد للأمعاء وللعقل ، ومفيد لكل شيء وكل ما يدخل جوفه مفيد سواء كان سماً زعافاً أو طعام الالهة لم يكن يؤمن بالإعتدال أو بالحس السليم أو بأي شيء ممنوع كان يؤمن بأداء دور الخنزير كاملاً وبعدها فليتلقّ العقاب . كان ثمة أمور كثيرة لم يعد يستطيع القيام بها فقد أعجزته الحرب قليلاً . ولكن رغم ذراعه المصابة ، وركبته المزاحة عن مكانها ، وعينه المشوّهة ، وخلل العمل في كبده ، ووخز الروماتيزم ، وآلام المفاصل ، وألم الرأس النصفي ، والدوخة ويعلم الله ماذا أيضاً ، فما بقي من الكارثة كان حياً مزدهراً ككومة من الروث المدخن . كان بوسعه أن ينبّه الميت بحديثه . وكان

حديثه نوعاً من عملية التهام حين يصف مكاناً أكل منه ، يبدو كعنزة تهاجم سجادة . وإذا وصف إنساناً فإنه يأكله حياً من رأسه إلى أخمصه . وإذا كانت واقعة التهم كل تفصيل فيها ، كجيش من النمل الأبيض يهبط على غابة . كان يتواجد في كل مكان في وقت واحد ، من خلال حديثه . يهاجم من فوق ومن تحت ، من الأمام والخلف والجانبين . فإذا عجز عن التخلص من شيء ما في الحال ، لافتقاره لعبارة أو صورة ، يزيحه جانباً لبعض الوقت ويتابع ، ويعود إليه بعد قليل ويلتهمه تدريجياً . أو يتصرف كمشعوذ ، يرميه في الهواء ، وتكاد تعتقد أنه نسيه ، وأنه سيقع ويتحطم ، فإذا به يضع ذراعه خلف ظهره برشاقة ويتلقاه براحة يده ودون أن يدير عينيه . لم يكن ما يقوله مجرد كلام ، وإنما لغة ـ لغة الطعام والوحش . كان دائماً يتحدث بوجود منظر عام كخلفية ، كأنه بطل عالم مفقود . كان المنظر الأتيكي(11) هو الأنسب لغرضه فهو يحتوي على المقومات الضرورية للمونولوج المسرحي . وما على المرء إلا أن ينظر إلى المسارح المكشوفة المطمورة في سفوح الهضاب ليفهم أهمية هذا المشهد . حتى وإن حَمَلَهُ الحديث إلى باريس ، مثلاً ، إلى مكان مثل فوبور مونمارتر ، لضمَّخه بتوابل وطيوب مقوماته الأتيكية ، بالإيقاع ، والحكمة ، وحجر التوفا المساميّ ، ونبات البَرْوَق ، والعسل ، والطمي الأحمر ، والأسطح الأزرق ، وزركشات نبات الاقنثا ، والضوء البنفسجي ، والصخور الحارة ، والريح الجافة ، والغبار ، والريزينا ، والتهاب المفاصل والصدوع الكهربائية التي تمرح عبر الهضاب الواطئة كأفعى سريعة ذات فقرات مكسوة . كان يمثل تناقضاً غريباً ، حتى في حديثه . ورغم لسانه الأفعواني الذي يضرب كالصاعقة ، والأصابع المتحركة بعصبية ، وكأنها تحوم عبر آلة سبينت وهمية ، والإيماءات الفظة الساحقة التي

بشكل ما لا تحطّم أبداً أي شيء بل تثير ضجيجاً ، وكل دويّ تكسّر أمواج الشاطىء وهدير سقوطها وقصفها ، وإذا راقبته فجأة عن قرب فسوف يتراءى لك أنه يجلس مكانه دون حراك ، وأنه لم يتغير فيه شيء إلا عين الصقر المستديرة وأنه عصفور منوّم مغناطيسياً ، أو نوّم نفسه مغناطيسياً ، وأن مخالبه مثبّتة إلى رسغ عملاق خفيّ ، عملاق بحجم الأرض . كل تلك الضجة والإضطراب ، كل تلك الشعوذات المختلفة الأشكال والألوان ، لم تكن سوى نوع من السحر يستخدمه ليخفي كونه سجيناً ـ هذا هو الإنطباع الذي خلّفه حين درسته ، حين تمكنت من كسر دائرة السحر للحظة لأراقبه بانتباه . لكن كسر هذه الرقّية كان يتطلّب قوة وسحراً يعادلان تقريباً قوته وسحره ، وهذا ما كان يجعل المرء يشعر أنه غبي عاجز ، كما يشعر المرء دائماً حين ينجح في تدمير سلطان الوهم . والسحر لا يمكن قهره ـ وأقصى ما باستطاعتنا عمله هو أن نفصل أنفسنا عنه تماماً ، أن نبتر الهوائي الغامض الذي يعمل على وصلنا بالقوى التي تفوق قدرتنا على الفهم . وقد لمحت أكثر من مرة أثناء كلام كاتسيمباليس ، تلك النظرة على وجه أحد المنصتين والتي أنبأتني بأن الأسلاك الخفية قد وُصِلَت ، وأن اتصالاً ما يجري يفوق ويتجاوز أية لغة ، وأية شخصية ، شيء سحريّ كالذي نراه في الحلم ويجعل وجه النائم يرتخي ويرتاح مع تورّد ، ونادراً ما يُشاهَد في حياة اليقظة . غالباً حين أتأمل في خاصيته هذه أفكر في تلميحاته المتكررة إلى كمية العسل الهائلة التي يخزنها النحل على منحدرات جبله المحبوب هيميتوس . ويحاول مرة بعد أخرى شرح الأسباب التي جعلت عسل جبل هيميتوس فريداً . ولا يمكن لأحد أن يشرحها بإلمام . فيمكن للمرء أن يصف، أن يعبد، أن يهيم. وهذا كل ما أستطيعه إزاء حديث كاتسيمباليس .

ولم أقدّر المونولوج الكاتسيمباليسي بشكل أكبر إلا بعد ذلك ، بعد أن عدت إلى كورفو وتذوقت طعم الوحدة الرائع بقسط جيد . وبينما أتمدد وأنا عار تحت الشمس على شفا صخرة تطل على البحر غالباً ما كنت أغمض عينيّ وأحاول أن أعيد حَبْكَ نسيج أحاديثه . في ذلك الوقت بالذات اكتشفت أن لحديثه ترجيعات ، وأن الصدى يقضي وقتاً طويلاً ليصل إلى الآذان . بدأت أقارنه بالحديث الفرنسي الذي غلّفني زمناً طويلاً وهذا الأخير كان يبدو لي أكثر شبهاً بعبث الضوء على إناء مرمري ، شيء انعكاسي ، رشيق ، راقص ، مائع ، وقتيّ ، في حين أن الآخر ، اللغة الكاتسيمباليسية ، كانت مبهمة ، ضبابية ، حبلى بالرنين الذي لا يمكن فهمه إلا بعد ذلك بوقت طويل ، حين تعلن الأصداء تضاربها مع الأفكار ، والناس والأشياء الموجودة على مسافات مترامية من الأرض . الفرنسي يشيد أسواراً حول حديثه ، كما يفعل مع حديقته إنه شكّاك لأنه لا يؤمن بالخير المتأصل في الكائنات البشرية . لقد صار واقعياً لأن ذلك أكثر أماناً وعمليّ أكثر . واليوناني ، من جهة أخرى ، مغامر : إنه طائش ومتكيّف ، يعقد صداقات بسهولة . إن الأسوار التي تراها في اليونان ، حين لا تكون من أصل تركي أو فينيسي ، فهي تعود إلى العصر السيكلوبي (12). وأنا أقول من تجربتي الخاصة إنه ليس هناك رجل أكثر من اليونانيّ صراحة ، وسهولة في التعرف عليه والتعامل معه . وسرعان ما يصبح صديقاً : إنه هو الذي يتقدم منك . مع الفرنسي الصداقة عملية طويلة شاقة ، قد تستغرق مصادقته حياة كاملة . وهو أفضل في حالة التعارف فقط ، حيث لا يوجد إلا القليل من المخاطر والعواقب . إن كلمة ami لا تكاد تحتوي على نكهة الصداقة ، كما نشعر بها في اللغة الانكليزية . إن C'est mon ami لا يمكن ترجمتها بـ « هذا صديقي » ، وليس ثمة عبارة تقابلها في

اللغة الفرنسية . وهذا فراغ لم يملأ أبداً ، مثل كلمة«Home» . وهذه الأشياء تؤثر على إثارة الحديث . لا شك أن المرء يظل يستطيع إثارة حديث ، لكنه ليس حديث القلب للقلب . ولطالما قيل إن فرنسا كلها إن هي إلا حديقة ، فإذا أحببت فرنسا ، كما أحبها أنا ، فستصبح حديقة جميلة جداً أما بالنسبة لي فهي شافية ومسكّنة للروح ، لقد شفيت من الصدمات والرضوض التي تلقيتها في بلدي . ولكن سيأتي اليوم الذي تستعيد عافيتك وقوتك ، ولا يعود هذا الجو مغذياً ، وتشتاق للإنطلاق ولاختبار قواك . عندئذ لن تكفيك الروح الفرنسية . فتتوق لعقد صداقات ، لخلق أعداء ، لتمد بصرك فيما وراء الجدران ولحرث قطع من الأرض . وترغب في التوقف عن التفكير في التأمين على الحياة ، والفوائد السقيمة ، ومعاش التقاعد والخ .

بعد الطعام الريّان في الحانة في بيريوس ، وقد اجتاحنا جميعاً شعور بغيض قليلاً سببه الريزينا عدنا أدراجنا إلى ساحة أثينا الكبرى . كان الوقت حوالي منتصف الليل أو بعده بقليل والساحة ما تزال مزدحمة بالناس . وبدا كاتسيمباليس كأنه يضفي القدسية على مكان جلوس أصدقائه . وتعرّفنا على أصدقائه المقربين جورج سيفريادس وأنطونيو قبطان السفينة العظيمة أكروبوليس . وسرعان ما شرعوا يمطرونني بالأسئلة عن أميركا والكتّاب الأميركيين . وكجميع الأوروبيين المثقفين كانوا يعرفون عن الأدب الأميركي أكثر مما سأعرف مستقبلاً وقد زار أنطونيو أميركا مرات عديدة ، وتجول في شوارع نيويورك ، وبوسطن ، ونيو أورلينز ، وسان فرانسيسكو ، وموانىء أخرى . وقادني تصوري إياه متجولاً في مدننا الكبرى مذهولاً إلى استحضار اسم شيروود أندرسن [12] الذي طالما اعتبرته الأديب الأميركي الوحيد في زمننا الذي جاب

شوارع مدننا الأميركية كشاعر عبقري . ولما كانوا بالكاد يعرفون اسمه ، ولما كان الحديث قد أضحى ينحدر نحو أرضية أكثر إلفة ، أقصد إدغار ألن بو ، وهو موضوع بتٌ أسأم الإنصات إليه ، أخذتْ فجأة تتملكني فكرة أن أقرّبهم من شروود أندرسن . وكَلَفْتَةٍ تغيير من ناحيتي بدأت مونولوجاً ـ عن كتّاب جابوا شوارع أميركا ولم يلاحظهم أحد إلى أن استعدّ القبر لاستقبالهم . كنت شديد الحماس للموضوع إلى درجة أني طابقت نفسي مع شروود أندرسن . ولو أنه سمع بالمواهب التي نسبتها له لصُعِقَ حتماً . كانت دائماً لديّ نقطةضعف خاصةحيال مؤلف « زيجات عديدة » . ففي أسوأ أيامي في أميركا كان هو الإنسان الذي واساني بكتاباته . ومع ذلك لم أقابله للمرة الأولى إلا منذ وقت قصير . ولم أجد فيه أي تعارض بين الإنسان والكاتب . بل رأيت فيه قاصّاً بفطرته ، رجلاً بإمكانه أن يجعل حتى بيضة تشعر بالإنتصار(14).

وكما أقول ، تابعت كلامي عن شروود أندرسن بسرعة البرق الأزرق . كان كلامي موجهاً أساساً إلى الكابتن أنطونيو . وأذكر نظرته إليّ بعد انتهائي ، نظرة تريد أن تقول « اتفقنا ، لُقِّمهم وسآخذهم جميعاً» ومنذ ذلك الحين استمتعت بإعادة قراءة شروود أندرسن عدة مرات من خلال عيني أنطونيو . وأنطونيو دائم الإبحار من جزيرة إلى أخرى ، يكتب قصائده وهو يتنقّل بين مدن غريبة في الليل . قابلته مرة ، بعد ذلك بعدة شهور ، لبضعة دقائق في إحدى الأماسي في ميناء هيراكليون الغريب في كريت . كان لا يزال يفكر في شروود أندرسن رغم أن حديثه كان عن حمولات السفن وتغير الطقس ومصادر المياه . وأتخيله في كل مرة يخرج إلى البحر يصعد إلى مقصورته ، وبعد أن يتناول كتاباً عن الرف ، يدفن نفسه في الليل الغامض لإحدى مدن أوهايو لا إسم

لها»(15) . الليل جعلني دائماً أحسده قليلاً ، أحسده على الهدوء والعزلة وهو وسط البحر . حسدته على الجزر التي كان دائما يرسو عندها ، وعلى مشاويره المتوحدة خلال قرى هاجعة ، أسماؤها لا تعني لنا أي شيء . وأول مطمح جهرت به كان أن أصبح ربّاناً . أعجبتني فكرة التوحّد في البيت الصغير على المتن ، أوجّه السفينة في مسارها المحفوف بالمخاطر . ان أعي تقلبات الطقس ، أن أكون فيه ، أصارعه ، عنى لي كل شيء . كان دائماً في سحنة أنطونيو آثار تقلبات الطقس . وفي كتابات شروود أندرسن هناك دائماً آثار تقلبات الطقس . أحبُّ الرجال الذين تجري تقلبات الطقس في دمهم

افترقنا في الساعات الأولى من الصباح عدت إلى الفندق ، فتحت النافذة ووقفت برهة على الشرفة أنظر إلى الساحة التي أضحت الآن مقفرة . لقد عقدت صداقة مع اثنين من اليونانيين الأقوياء البنية وكنت سعيداً بهما رحت أفكر بكل الأصدقاء الذين حصلت عليهم خلال إقامتي القصيرة هناك . فكرت في سبيرو ، سائق التاكسي ، وفي كاريمينيوس ، الدركي . كان هناك أيضاً ماكس ، اللاجىء ، الذي يعيش كدوق في فندق الملك جورج ، ولم يكن يبدو أنه يحمل شيئاً في دماغه غير التفكير في كيف يجعل أصدقاءه سعداء بالدرخمات التي لم يكن يستطيع إخراجها من البلد . وهناك أيضاً صاحب الفندق ، الذي لا يشبه أيّاً من أصحاب الفنادق الفرنسيين الذين قابلتهم ، كان يقول لي أحياناً ـ « هل أنت بحاجة إلى نقود ؟ » وإذا أخبرته بأنني أقوم برحلة قصيرة قال « يجب أن تبرق لي إذا احتجت إلى نقود » وسبيرو كان على هذا الشكل أيضاً وعندما تبادلنا عبارات الوداع ونحن نقف على الرصيف لبلة عمَّ الرعب ، كانت كلماته الأخيرة هي ـ « سيد هنري ،

إذا عدت إلى كورفو أريدك أن تبقى معي . لا أريد أية نقود ، يا سيد هنري ـ أريدك أن تأتي وتعيش معنا أطول مدة ممكنة » وحيثما ذهبت في اليونان كنت أجد النغمة نفسها . حتى وأنا في دار الوالي أنتظر إتمام أوراقي ، كان الدركي يطلب لي قهوة وسجائر ليسرّني . بل وكنت أحب الطريقة التي يتسولون بها . لم يكونوا يخجلون من هذا . إنهم يعترضون طريقك هكذا صراحة طالبين نقوداً أو سجائر وكأنهم مؤهلون لهذا . إن التسول على هذه الصورة لهو بادرة جيدة . إنها تعني أنهم يعرفون كيف يمنحون . الفرنسيون ، مثلاً ، لا هم يعرفون كيف يمنحون ولا كيف يطلبون حسنات ـ إنهم في كلا الحالين ينزعجون . إنهم يجعلون من عدم التحرش بك فضيلة . إنه الجدار من جديد . لا وجود للجدران حول اليوناني : إنه يعطي ويأخذ دون عوائق .

للإنكليز الموجودين في اليونان ـ وهم ، على فكرة ، كُثُرٌ ويا للأسف ـ على ما يبدو رأي سقيم في الشخصية اليونانية . الإنكليز بلداء ، عقيمو الخيال ، يفتقرون للمرونة . ويبدو أنهم يعتقدون أنه على اليونانيين أن يكونوا ممتنّين لهم على الدوام لأن لديهم أسطولاً قوياً . والانكليزي في اليونان هو مهزلة وقذىً في العين . إنه لا يستأهل القذارة الموجودة بين أصابع قدم الفقير اليوناني . لقرون طويلة كان لليونانيين أقسى عدو قاسٍ منه شعب ـ وأقصد به الأتراك . بعد قرون من الإستعباد تخلصوا من النير ، ولو لم تتدخّل القوى الكبرى لطرحوا الأتراك أرضاً وأبادوهم . والآن صار الشعبان صديقين بعد أن اختلطا بطريقة لا يمكن وصفها ، إلا بأنها فوق عادية . إنهما يحترمان بعضهما والإنكليز ، الذين لو أنهم كانوا يتعرضون للتجربة نفسها لبادوا عن وجه البسيطة ، يتظاهرون بأنهم ينظرون إلى اليونانيين من علٍ

حيثما تذهب في اليونان تجد الجو مفعماً بالأعمال البطولية . إنني أتحدث عن اليونان الحديثة ، وليس القديمة . ولو نظرت في تاريخ هذا البلد الصغير لوجدت أن النساء لا تقل بطولة عن الرجال . بل إنني أكُنّ من الإحترام لليونانيات أكثر مما أكنّه لليونانيين . المرأة اليونانية والكاهن الأرثوذوكسي هما اللذان يساندان الروح المجاهدة . إنك لن تجد أمثلة أعظم في العناد والشجاعة ، والتهور ، والإقدام ، في أي مكان آخر ولا عجب إذا رغب دريل بالقتال إلى جانب اليونانيين . ومن ذا الذي لا يفضّل أن يحارب إلى جانب البوبولينا «١» ، بدلاً من المحاربة إلى جانب مجندين سقيمين مخنثين من أوكسفورد وكمبريدج ؟

لم أعقد أية صداقات مع الإنكليز في اليونان . وكلما وجدت نفسي بين اليونانيين شعرت بالميل للإعتذار لهم الأصدقاء الذين كسبتهم في اليونان كانوا يونانيين وأنا فخور بهم ، ويشرفني أنهم يعتبرونني صديقاً . آمل أن تدرك القلة من الإنكليز التي عرفتها في اليونان عندما يقرأون هذه الأسطر ، رأيي في سلوكهم ، وآمل أن يعتبرونني عدوّاً من جلدتهم .

إنني أفضّل التحدث عن شيء أكثر إمتاعاً ـ عن كاتسيمباليس مثلاً ، عن زيارتي لبلدته أماروسيون في غروب أحد الأيام . يوم بديع آخر ، يوم آخر بحروف حمراء من حياتي ! طلب منا أن نأتي باكرين لنراقب غروب الشمس . ترجم ستيفانيدس بعض القصائد اليونانية ـ وكنا ذاهبين لنسمعها باللغة الإنكليزية . حين وصلنا لم يكن كاتسيمباليس قد أنهى غفوته بعد . وشعر بشيء من الخجل لأننا رأيناه يغفو لأنه كان دائماً يتباهى بقلّة احتياجه للنوم نزل إلى الطابق السفلي ، يبدو عليه الحيرة والشحوب كان يتحدث كأنما إلى نفسه ،

ويقوم ببعض الإيماءات التي لا معنى لها بيديه وكأنه يدوزن آلة سبينت لعينة كان يغمغم بشيء حول كلمة تذكّرها في حلمه قبل لحظات . كان دائماً ينقّب في عقله عن الكلمات الإنكليزية المناسبة والعبارات التي تعبر عن صورة يونانية رائعة عثر عليها مصادفة في كتاب على أية حال ، وكما أقول ، أيقظناه من نوم عميق وأخذ يتجول وكأنه مخدَّر ، يرطن ويومىء كمن يحاول أن ينفض عنه أشراكاً لا تزال تطوّقه . بدأ كلامه عن أهداب هذا الحلم الذي لم يتخلّص منه تماماً . وللكلام عن حلم ما ، لا يهم من أين تبدأ ، وبما أنه كان يحلم فكلامه نفسه كان حلماً الحلم بحد ذاته ليس مهماً ، فقد نسيه بعد لحظة ، أما تذكّر الحلم فعاد به إلى الكلمة التي أقلقته ، وكان يتعقّبها لأيام طويلة ، هكذا قال ، وصارت الآن تتّضح له بما أنه كان هو نفسه يروق عندما أخذت الأشراك تنزاح عنه . والكلمة ، مهما كانت ، قادت إلى اللغة واللغة قادت إلى العسل والعسل لذيذ ، مثل أشياء أخرى كالريزينا مثلاً ، خاصة الريزينا ، فهي مفيدة للرئتين ، مفيدة للكبد ، ومفيدة لكل آلامك ، خاصة حين الإكثار منها ، وهذا ما يجب تفاديه ، يجب عدم الإكثار منها ، وهذا الإكثار هو ما كان يفعله على أية حال دون اعتبار لأوامر الطبيب ،خاصة إذا كانت ريزينا جيدة كتلك التي تناولناها في إحدى الأماسي في حانة من بيريوس ولكن هل لاحظنا أن لحم الضاني كان غضاً أيضاً ؟ ذكر هذا التلميح وهو يلعق أصابعه ، ومسح فمه بظاهر كفه ، واشتمّ في الهواء وكأنه يستعيد عبير الدخان المنبعث من الفرن . وتوقف لحظة ونظر حوله ، كأنه يبحث عن شيء يرطّب به لسانه قبل أن يختم حواره الإفرادي . ولم ينبث أحد بشفة . لم يعد يجرؤ أحد على مقاطعته الآن بعد أن قطع شوطاً بعيداً في حديثه . كانت القصائد ملقاة على الطاولة ، ووصول سفيريادس متوقعاً في أية لحظة

ومعه القبطان . واستطعت أن أشعر بأنه يزداد هياجاً في داخله ، وأنه يجري عملية حسابية سريعة ليرى إن كان لا يزال هناك متسع من الوقت ليزيح الأمر الجاثم على صدره قبل وصول أصدقائه . كان يرفرف قليلاً ، كعصفور علق جناحه . وتابع همهمته وغمغمته ، ليظل المحرك دائراً إلى أن يستقر على وجهة معينة . وإذا بنا بطريقة ما ، ودون أن نعي كيف انتقلنا ، نجد أنفسنا واقفين في الشرفة المهوّاة التي تستشرف التلال الواطئة ، كان على إحداها طاحونة هواء وحيدة ، وكاتسيمباليس في أقصى درجات انطلاقه ، كنسر فارش جناحيه يحكي عن الجو الصافي وتدرّجات اللون البنفسجي المائل للزرقة المنحدرة مع الشفق ، وعن عروج وهبوط منوعات من الرتابة ، عن أعشاب وأشجار نادرة ، عن فاكهة غريبة ورحلات برية ، عن الزعتر والعسل ونسغ الفريز البري الذي يُسْكِرُ ، وعن سكان الجزر وسكان الجبال ، عن شعب البيلوبونيسوس ، عن المرأة الروسية المجنونة التي أصيبت بضربة قمر ذات ليلة وتجرّدت من كل ثيابها ، وكيف راحت تتنقّل راقصة تحت ضوء القمر دون أن يستر جسمها شيء ، بينما هرع حبيبها ليحضر قميص المجانين وبينما هو يتكلم كنت أتشبّع بعينيّ وباضطراد ولأول مرة روعة المشهد الأتيكي الحقيقية ، ملاحظاً بإثارة متزايدة أنه في كل مكان من المرج الأسمر العاري ، وسط مزروعات غريبة عجيبة ، ثمة رجال ونساء ، بقامات منعزلة ، منفردة يتسكعون في المكان تحت الضوء الخافت الصافي ، وقد بَدَوْا لي لسبب مجهول أنهم يونانيون صميمون ، يمشون بطريقة لا تُشبه طريقة أية مجموعة أخرى من الناس ، راسمين بطريقتهم الأثرية في التسكع نماذج واضحة ، نماذج كالتي كنت قد رأيتها في وقت مبكّر من ذاك اليوم مرسومة على المزهريات في المتحف ، وهناك أساليب عديدة في التسكع وأفضلها ، في رأيي ، هو الأسلوب

يوناني ، لأنه هائم ، فوضوي ، وانساني بشمول وتنافر . وهذا
تسكع على المرج الأسمر وسط الأشجار الغريبة ، الشعثة ، والأوراق
سميكة ترفرف كشَعر منتصب في عمق الجبال النائية ، ممزوجة ويا
غرابة مع حوار كاتسيمباليس الإفرادي الذي سمعته ، وهضمته ونقلته
سمت إلى المتكاسلين الأسيويين في الطابق الأسفل والذي صاروا الآن
تلاشون في الضوء الباهت . . . وعلى الشرفة العالية في أماروسيون ،
حالما بدأ النور القادم من عوالم أخرى يفرش ضياءه ، لمحت اليونان
عتيقة والجديدة في شفافيتهما الرقيقة وهكذا ظلتا في ذاكرتي . في تلك
لحظة علمت أنه لم يعد ثمة عتيق أو جديد ، بل مجرد يونان ، عالم
سم في المخيلة وخُلِقَ ليكون أبدياً . ولم يعد الرجل الذي كان يتكلم
حجم وأبعاد إنسانية ، بل أضحى عملاقاً صورته الجانبية غافية تهتز
اماً وخلفاً على إيقاع عميق رتيب ينبع من عباراته العابقة بالمخدر .
سار يتابع ويتابع ويتابع ، بلا عجلة ، ولا انزعاج ، بلا كلل ، ولا
د ، صوت له شكل وهيئة وكيان ، شكل تخطّى إطاره الإنساني ،
ورة جانبية تهدر ترددداتها في أعماق سفوح الجبل النائية .

***

بعد هذا بحوالي العشرة أيام في أثينا اجتاحني شوق للعودة إلى
رفو . كانت الحرب قد بدأت ، ولكن بما إن الإيطاليين قد أعلنوا
هم في البقاء على الحياد لم أر داعياً لعدم عودتي كي أقضي الأيام المتبقية
الصيف . حين وصلت وجدت أن اليونانيين لا زالوا محتشدين على
بهة الألبانية . وكان عليّ أن أحصل على إذن بالمرور من البوليس كلما
رجت أو دخلت إلى البلدة . كان كارامينيوس لا يزال يخفر الساحل من
خه الصغير المصنوع من عيدان القصب القائم عند طرف الماء .

وقريباً سيعود نيقولا إلى القرية القائمة فوق الجبال ليفتتح مدرسة . يا لها من فترة رائعة من العزلة تلك التي توفرت حينئذٍ . لم يكن بين يديَّ إلا الوقت . أبعد سبيرو ابنه ليليس ليتسنى له تلقيني درساً في اللغة اليونانية . ثم عاد ليليس إلى البلدة وتُرِكْتُ أنا وحيداً وكانت المرة الأولى التي أبقى فيها وحدي حقاً . وكانت تجربة استمتعت بها بعمق . كنت أتوقف قرابة المساء قرب منزل نيقولا لأثرثر معه لبضع دقائق وأسمع أخباراً عن الحرب وبعد العشاء يأتيني كاتسيمباليس . وكان قد بات بيننا حوالي الخمسين كلمة من العملة اللغوية نتبادلها . بل حتى لم نكن بحاجة إلى كل هذا العدد ، كما اكتشفت بعد ذلك سريعاً . ثمة ألف طريقة لتبادل الحديث ولا نفع للكلمات إذا كانت روح التفاهم غائبة . كنت وكاراميتيوس في شوق للحديث . ولم يكن يهمني إن دار الحديث عن الحرب أو السكاكين والشُّوَك . أحياناً كنا نكتشف أن ثمة كلمة أو عبارة نستخدمها منذ أيام عديدة ، هو بالإنكليزية وأنا باليونانية ، تعني شيئاً يختلف تماماً عما كنا نظن أنها تعنيه . ولم يكن ثمة فرق . فقد فهم واحدنا الآخر حتى بكلمات خاطئة . وتمكنت من تعلّم خمس كلمات جديدة ونسيان ست أو ثمان أثناء النوم . وكانت أهم الأشياء هي المصافحة الحارة ، والنور في العيون ، والعنب الذي التهمناه سوية ، والكأس التي رفعناها إلى شفاهنا عربوناً للصداقة . وبين آن وآخر أثار فأستخدم خليطاً من اللغة الإنكليزية ، واليونانية ، والألمانية . والفرنسية ، والتشوكتاو ، والأسكيمو ، والسواحلية أو أية لغة أشعر أنها تفي بالغرض ، وبمعيّة الكرسي ، والطاولة ، والملعقة ، والمصباح وسكين الخبز أمثّل له شطراً من حياتي في نيويورك ، وباريس ، ولندن ، وتشولا فيستا ، وكانارسي ، وهاكنساك أو في أي مكان لم أعرفه أبداً أو في مكان زرته في الحلم أو أثناء نومي على طاولة

العمليات . أحياناً كنت أشعر شعوراً رائعاً ، أو شديد التنوّع والتعدد في جوانبه وسريع التقلّب والتحوّل ، حتى أني أقف على الطاولة وأغني بلغة غير معروفة أو أقفز من الطاولة إلى الخزانة إلى السلم أو أترنّح على عوارض السقف الخشبية ، أفعل أي شيء يسلّيه ، يجعله سعيداً ، يدفعه للتمايل من جنب إلى جنب من الضحك في القرية كان ينظر إليّ كعجوز بسبب رأسي الأصلع وشراشيب شعري الأبيض . فلم يسبق لأحدهم أن رأى عجوزاً محطماً تماماً مثلي . كانوا يقولون « العجوز ذاهب ليسبح ، العجوز يخرج القارب » دائماً « العجوز » إذا هبت عاصفة وعلموا أني في الخارج وسط البحيرة يُرسلون أحداً منهم ليرى إن كان « العجوز » سليماً معافى . وإذا قررت الذهاب في رحلة قصيرة عبر التلال يقترح كارامينيوس اصطحابي حتى لا يصيبني مكروه . وإذا تهت في مكان ما كان يكفي أن أعلن أني أميركي وفي الحال تمتد دزينة من الأيدي لمساعدتي . كنت أحياناً أخرج صباحاً بحثاً عن خلجان صغيرة جديدة ومداخل صالحة للسباحة فيها ، خالية من أي مخلوق . فأصبحُ روبنسن كروزو فوق جزيرة توباغو . ولساعات طويلة أستلقي في الشمس لا أفعل شيئاً ، ولا أفكر بشيء إن إفراغ الدماغ من كل شيء هو عمل فذ ، مفيد كثيراً للصحة . فأن تبقى صامتاً طوال النهار ، لا تقرأ صحيفة ، لا تسمع مذياعاً ، ولا تنصت إلى أية ثرثرة ، أن تكون متكاسلاً تماماً وكلياً ، لا مبالياً تماماً وكلياً بقدر العالم هو لعمري أروع دواء يمكن لإنسان أن يتناوله . وسرعان ما يتساقط علم الكتب رويداً رويداً ، ويصبح الجسد أداة جديدة رائعة التكوين ، وتنظر إلى النباتات أو الأحجار أو الأسماك بعينين مختلفتين ، وتتساءل عما يأمل الناس الذين يجاهدون بأكثر فعالياتهم سُعراً في تحقيقه ، وتعرف أن ثمة حرباً دائرة دون أن يكون لديك أدنى فكرة عن سببها

وسبب استمتاع بعض الناس بقتل البعض الآخر وتنظر إلى مكان مثل ألبانيا ـ كان دائماً يتفرّس في عينيّ بصورة مستمرة ـ وتقول لنفسك ، بالأمس كان الهدف هو اليونانيون واليوم الإيطاليون ، وغداً قد يكون الألمان أو اليابانيون وتدع الأمور تجري على هواها فحين تكون على وئام مع نفسك لا يهم عندئذٍ هوية العلم الذي يرفرف فوق رأسك أو عما يمتلكه فلان أو إن كنت تتكلم الإنكليزية أو المنغولية . والنعمة العظمى الوحيدة هي غياب الصحف ، غياب أخبار ما يفعله الرجال في بقاع مختلفة من العالم لجعل الحياة أكثر أو أقل قابلية للعيش . لو كان بإمكاننا فقط إلغاء الصحف لأحرزنا تقدماً هائلاً ، أنا متأكد . فالصحف تلد الأكاذيب ، والحقد ، والطمع ، والحسد ، والشك ، والخوف ، والخبث . إننا لسنا بحاجة إلى حقيقة من النوع الذي يقدّم لنا في الصحف اليومية . إننا بحاجة إلى سلام وعزلة وخمول . ولو أننا نخرج جميعاً في إضراب لنعلن ، وبشرف ، تنصّلنا من أي اهتمام بما يفعله جارنا لحصلنا على دفق جديد من الحياة . فقد نتعلم أن نحيا بدون أجهزة هاتف وراديو وصحف ، بلا آلات من أي نوع ، بلا مصانع ، بلا مطاحن ، بلا مناجم ، بلا متفجرات ، بلا سفن حربية ، بلا سياسين ، بلا محامين ، بلا معلبات ، بلا أجزاء آلية ، وحتى بلا شفرات حلاقة أو أوراق سيلوفان أو سجائر أو نقود . إنه حلم أفيوني ، أعلم هذا . الناس يضربون عادة من أجل تحسين ظروف العمل ، ورفع الأجور ، وفرص أفضل لتغيير أوضاعهم الحالية .

حالما حل الخريف بدأت معه الأمطار . وكان من المستحيل تقريباً ارتقاء درب الماعز المنحدر من خلف المنزل والمؤدي الى الطريق العامة . بعد العاصفة القوية كانت تُحدِث اجترافات وتسدُّ جميع الطرق بحطام

الصخور والأشجار التي تحدثها انزلاقات السفوح وتعزل أياماً طويلة مستمرة . وفي أحد الأيام وصلت نانسي بصورة غير متوقعة لتأخذ بعض الحاجيات المنزلية . كانت عائدة إلى أثينا على نفس القارب وفي اليوم نفسه . وقررت بشكل قاطع أن أعود معها .

***

في أثينا كان الجو جافاً ، وحاراً بصورة غير متوقعة . وكأننا عائدان إلى فصل الصيف من جديد. كانت الريح تهب بين الفينة والأخرى هابطة من الجبال التي تحوطنا وفجأة إذ بالبرد يحل جليدياً كحد الشفرة . في أوقات الصباح كنت في الغالب أتمشى حتى الأكروبوليس . أحب قاعدة الأكروبوليس أكثر من الأكروبوليس نفسها . أحب الأكواخ المتداعية ، الإضطراب ، التآكل ، الطابع الفوضوي للمشهد العام . لقد دمّر علماء الآثار المكان ، وخرّبوا رقعاً كبيرة من الأرض بغية الكشف عن كمية هائلة من الآثار العتيقة ستُخفَىْ عن العيون داخل متاحف . وصار كامل قاعدة الأكروبوليس يشبه أكثر فأكثر فوهة بركانية أخرجت منها أيدي علماء الآثار المتيّمة مقابر كاملة من الفن . ويأتي السائح وينظر إلى هذه الأطلال ، هذه المساكب من السوائل البركانية المبتكرة علمياً ، بعين لامعة . بينما يتجول اليوناني لا ينتبه إليه أحد أو ينظر إليه كمتطفل . في حين أن مدينة أثينا الحديثة التي تغطي كل الوادي تقريباً ، تتلمس طريقها صاعدة سفوح الجبال المجاورة . إن بلداً لا يزيد تعداد سكانه على سبعة ملايين من البشر تكون فيه مدينة أثينا ظاهرة فريدة . إنها ما تزال في مرحلة الطلق من الولادة . إنها خرقاء ، مضطربة ، غليظة ، غير واثقة من نفسها ، مُصابة بكل أمراض الطفولة وببعض من كآبة المراهقة وأساها . إلا أنها اختارت موقعاً رائعاً تهلك فيه نفسها ، تومض تحت الشمس كجوهرة ، في الليل

تتلألأ بمليون من الأضواء البراقة كأنها تضيء وتنطفىء بسرعة البرق . إنها مدينة التأثيرات الجوية المذهلة . لم تذفن نفسها في الأرض - بل هي تطفو فوق تغيرات نورانية مستمرة ، تنبض بوقع مفعم بالألوان . ويجبر المرء على متابعة السير ، على التقدم نحو السراب المتراجع أبداً حين يصل المرء إلى الحافة ، إلى الجدار الجبلي الهائل ، يصبح النور أكثر إسكاراً ، ويشعر المرء كأن بوسعه أن يرقى الجبل ببضع قفزات عملاقة ، وبعد ذلك - ولكن لا داعي ، إذ بعدما يصل المرء الى القمة سيجد نفسه منطلقاً كالمجنون على طول الحافة الناعمة ويقفز منطلقاً إلى السماء ، إنطلاقة صافية إلى الأفق الأزرق وآمين إلى الأبد . على طول الدرب المقدس ، من دافني إلى البحر ، اقتربت من حافة الجنون مرات ومرات . وطبعاً بدأت أركض مرتقياً جانب التل لمجرد أن أتوقف عند منتصفه ، يتملكني الرعب ، متسائلاً عما يمسني . على أحد الجانبين أحجار وشجيرات تبرز بجلاء مجهري ، وعلى الآخر أشجار كالتي يراها المرء في الرسوم اليابانية ، أشجار مغمورة بالنور ، سكرى ، أشجار راقصة لا بد أن الألهة زرعتها في لحظات علاء ثمل . على المرء أن لا يسرع على الطريق المقدسة بسيارة - فهذا تدنيس . يجب أن تمشي ، تمشي كما مشى القدامى ، وتسمح لكامل كيانك أن يُغْمَرَ بفيض من النور . إن هذه ليست طريقاً مسيحية ، لقد شُقّت بأقدام الوثنيين المخلصين وهم يتوجهون إلى اليوسيس [17] ليقوموا بالمراسيم . لا توجد معاناة ، ولا شهداء ، لا سوط للأجسام له علاقة بهذا الشريان الموكبيّ .

الآن كل شيء يتكلم ، كما فعل قبل قرون غابرة ، عن الإشراق ، الإشراق المبهر ، المبهج . للنور خاصية مبهمة إنه ليس فقط ضياء البحر المتوسط ، بل أكثر ، هو شيء لا يمكن سبره ، شيء قدسي . هنا ينفذ النور إلى الروح مباشرة ، يفتح أبواب القلب ونوافذه ، يُعرّي

الإنسان ، يكشفه ، يعزله ، في نعيم غيبي يجعل كل شيء جلياً دون أن يكون معروفاً . لا يمكن لأي تحليل أن يستمر في غمرة هذا النور : هنا أما أن يشفى العصابي على الفور أو يفقد عقله . الصخور نفسها مجنونة إنها ملقاة منذ قرون عديدة معرّضة لهذا الإشراق العلوي : ملقاة وهي ساكنة تماماً وهادئة، مُسْتَكِنَّة وسط شجيرات تتراقص ملونة في تربة ملطخة بالدم ، لكنها مجنونة ، أؤكد ذلك ، ولمسها يعني المخاطرة بفقدان السيطرة على كل ما كان يوماً يبدو متماسكاً ثابتاً ، صلباً لا يمكن زعزعته . على المرء أن ينزلق خلال هذا الأخدود بحذر متناهٍ ، عارياً ، وحيداً مجرداً من جميع الخزعبلات المسيحية . عليه أن ينفض عنه ألفيْ عام من الجهل والخرافة ، من العيش والكذب تحت الأرضيين ، المرضيين ، المهلكين . عليه أن يأتي إلى اليوسيس مجرداً من الطفيليات التي تكوّمت طوال قرون من الخمول وسط المياه الراكدة . في إليوسيس يدرك المرء ، إن لم يفعل قبلاً ، أن لا خلاص في التكيُّف مع عالم مجنون . في اليوسيس يصير المرء متكيفاً مع الكون . قد تبدو اليوسيس من الخارج متداعية ، منهارة مع الماضي المتقوض ، والواقع أن اليوسيس ما تزال سليمة ونحن المتداعون ، المشتتون ، المفتّتون إلى تراب . اليوسيس تحيا ، تحيا وإلى الأبد وسط عالم يلفظ آخر أنفاسه .

الرجل الذي قبض على هذا الحس بالأبدية المتمثلة في كل مكان من اليونان وطمره في أشعاره هو جورج سيفريادس ، واسمه الأدبي هو سيفريس[١٨] . أعرف أعماله من خلال الترجمة فقط، ولكن حتى لو لم أقرأ شعره لقلت هذا هو الرجل الذي قدّر له أن ينقل اللهب . سيفريادس هو أكثر أسيويّة من أي يوناني آخر قابلته ، أصله من سميرنا ، إلّا أنه عاش في الخارج سنين طويلة . إنه واهن الجسم ، رقيق الحاشية ، حيوي وقادر على القيام بأعمال قوى وخفة فذة . إنه وسيط خير وموفّق

بين مدارس الفكر المتنازعة وبين أساليب الحياة . يسأل أسئلة لا تحصى بلغة مختلطة متنوعة ، وهو مهتم بجميع أشكال التعبير الثقافي ويبحث عن طريقة تلخّص وتستوعب كل ما هو أصيل خصب في جميع أدوار الحضارة . وهو متحمس لبلده ، وشعبه ، ليس بتعصّب وطني ضيّق الأفق بل كنتيجة للإكتشاف الصبور الذي تلا سنوات الغربة الطويلة .

هذا الحماس للوطن هو صفة خاصة في اليوناني الواعي الذي عاش في الخارج هذه الصفة وجدتها في الشعوب الأخرى مُسْتَهْجَنَةً ، أما لدى اليوناني فهي مبررة ، وليست فقط مبررة ، بل شديدة الإثارة ، ومُلهِمَة . أذكر أنني ذهبت مرة مع سفريادس لمعاينة قطعة أرض كان يفكر في بناء بيت من البنغالو عليها . لم يكن هناك ما هو غير عادي في المكان - كان نوعاً ما ، رثّاً منبوذاً ، أو بالأحرى هكذا بدا للوهلة الأولى إذ لم تُتَحْ لي مرة فرصة تعزيز انطباعي الأولي السريع ، فقد كان يتغير تحت ناظري مباشرة بينما هو يقودني متجولاً في المكان كقنديل بحر مكهرب من بقعة إلى أخرى ، متناغماً مع الأعشاب ، والأزهار ، والشجيرات ، والصخور والغضار ، والمنحدرات ، والسفوح ، والكهوف ، والخلجان الصغيرة وما إليها . وكل ما كان ما يقع عليه بصره كان يونانياً بنَفَس لم يعهده قبل مغادرة بلده . كان يستطيع بالنظر إلى بروز قارّيّ أن يقرأ فيه تاريخ الميديين ، والفرس ، والدوريين ، والمينيويين ، والأطلنطيين . كان يقرأ فيه أيضاً مقاطع من القصيدة التي يكتبها في ذهنه في طريقه إلى البيت وهو يمطرني بوابل أسئلته عن العالم الجديد. جذبه الطابع السبييلليني«1» المتمثل في كل شيء قابل ناظره. كانت له طريقته الخاصة في النظر إلى الوراء والأمام ، في جعل موضوع تأمله يدور حول نفسه ويعرض جوانبه المتعددة . حين يتحدث عن شيء أو شخص أو تجربة شخصية فإنه يداعبه بلسانه . أحياناً يترك في

انطباعاً بأنه خنزير بري كسر أنيابه في معارك عنيفة نتجت عن الحب والنشوة كان في صوته أثر رضوض وكأن موضوع حبه ، اليونان العزيزة ، قد شوّه بغلظة وبلا قصد مبيّت نغمات العواء عالية النبرة . وقاطع هذا الصداح ذو الصوت الأسيوي العذب قصف الرعد المفاجىء اكثر من مرة ، وصارت قصائده تتبلور أكثر فأكثر لتصبح كالدرر ، أكثر إحكاماً ، وتكثيفاً ، ووميضاً وقدرة على الكشف . مرونته الأصيلة كانت تتجاوب مع قوانين التقوّس والمحدودية الكونية . كان قد كفّ عن توزّعه في كل اتجاه فقد كانت أبياته تشكل حركة العناق الإستدارية ، ركان قد بدأ بالنضوج ليصبح شاعراً كونياً ـ وذلك بزرع نفسه وبحماس في تراب شعبه . وحيث وجدت الحياة اليوم في الفن اليوناني فهي تعتمد على هذه اللمحة الأنتية(Antacan) ، وهذا الحماس الذي انتقل من القلب إلى القدمين ، منمّياً جذوراً قوية تحول الجسم إلى شجرة جمال فعّال. هذا التحول الحضاري اتضح أيضاً بشكل مادي في عملية لإستصلاح الثقافي الواسعة النطاق الجارية في جميع أنحاء البلاد . لقد حوّل الأتراك الأرض في خضم رغبتهم المتّقدة لعزل اليونان ، إلى صحراء ومقبرة ، ومنذ تحررهم واليونانيون يكافحون لإعادة تشجير لأرض وصار الماعز هو عدو الأمة . وسيُطرَد كما طُرد الأتراك ، في لوقت المناسب . إنه رمز الفقر والعجز . أشجاراً ، مزيداً من لأشجار ، هذه هي الصرخة . فالأشجار تجلب الماء ، والعلف ، الماشية ، والمحصول ، الأشجار تجلب الظل ، والراحة ، تثير لأغنية ، تجذب الشعراء ، والرسامين ، والمشرّعين ، والحالمين . ليونان الآن ، رغم أنها جرداء ناحلة كأرض المجاعة ، هي لجنة الوحيدة في أوروبا . أي مك ، رائع ستصبح عليه لو تعود إلى خضرارها البدائي وتلهب خيال إنسان اليوم . يمكن لأي شيء أن يحدث

عندما تتلظى هذه البقعة المحرقية بحياة جديدة . يمكن لليونان المنبعثة أن تغير بشكل كامل الوضوح قَدَرَ أوروبا كله . اليونان لا تحتاج إلى علماء آثار - إنها تحتاج إلى اختصاصيين في التشجير . يمكن لليونان المخضوضرة أن تَهِبَ الأمل لعالم اليوم المتآكل بعفن أبيض .

بدأت أحاديثي مع سيفريادس جدياً ونحن على الشرفة العالية في أماروسيون ، عندما أخذني من ذراعي ، ومشى بي جيئة وذهاباً والغسق يتكاثف . وكان كلما قابلته أتى إليّ بكل كيانه وأحاط به ذراعي بدفء ورقّة . وإذا زرته في جناحه فالشيء ذاته . يفتح الأبواب والنوافذ المؤدية إلى قلبه جميعها . وعادة يعتمر قبعته ويصحبني إلى فندقي ، ولم تكن هذه مجرد لفتة مؤدبة ، بل عمل صداقة ، وإلهاماً لحب باق . سأظل أذكر سيفريادس وجميع أصدقائي اليونانيين لهذه السمة التي باتت الآن نادرة جداً بين الناس . وسأذكر أخته جين أيضاً ، وبقية النسوة اليونانيات اللواتي قابلتهن ، بسبب جلالهن . إنها خاصّية نادراً ما نلقاها في المرأة العصرية . وهذه السمة ، كالودّ الدافىء عند الرجال ، والتي تشترك بها جميع النساء في اليونان بدرجات متفاوتة ، هي الرديف ، أو فلنقل الفضيلة الإنسانية المتماثلة التي تتماشى والنور العلوي . على المرء أن يكون ضفدعاً صغيراً ، حلزوناً و بزّاقة عريانة لكي لا يتأثر بهذا الإشعاع المنبعث من القلب الإنساني ومن السموات . حيثما تذهب في اليونان ينفتح الناس كالأزهار . وقد يقول الساخرون إن هذا سببه صِغَر رقعة اليونان ، لأنهم توّاقون للزوار ، وما إلى ذلك . لا أصدّق هذا . لقد ذهبت إلى بضع دول صغيرة خلّفت بي الإنطباع المعاكس تماماً . وكما قلت مرة من قبل ، اليونان ليست بلداً صغيراً - إنها فسيحة بشكل مؤثر . لم يهبني أي بلد زرته مثل هذا الحس بالعظمة . والحجم لا يقاس دائماً بالأميال . واليونان ، بطريقة يعجز

أبناء وطني عن الإلمام بها ، هي أكبر بما لا يقدّر من الولايات المتحدة . بإمكان اليونان أن تبتلع الولايات المتحدة وأوروبا اليونان صغيرة كما الصين والهند . إنها عالم من الوهم . واليوناني نفسه يوجد في كل مكان ، وكالصيني أيضاً . الصفة الإغريقية لا تزول من جراء ترحاله المستمر . إنه لا يخلّف وراءه ذرات صغيرة من نفسه تنتشر في أرجاء المكان ، كما يفعل الأميركي ، مثلاً حين يغادر اليوناني المكان يترك ثغرة الأميركي يترك وراءه ركاماً مبعثراً من النفاية ـ أربطة أحذية ، أزرار ياقة ، شفرات حلاقة ، تنكات بترول ، برطمانات الفازولين وما إليها والحمالون الصينيون ، وكما قلت أيضاً في موقع آخر ، يتغذّون في الواقع على النفاية التي يخلفها الأميركيون على سطح السفينة حين يكونون في الميناء . اليوناني الفقير يمشي مرتدياً البقايا التي يرميها الزوار الأغنياء الآتين من جميع أرجاء الدنيا ، إنه شخصية دولية حقيقية ، لا يزدري أي شيء مصنوع بأيد إنسانية ، ولا حتى المراكب القديمة المثقوبة التي يطرحها الأسطول التجاري البريطاني . ويبدو شيئاً تافهاً أن تحاول أن تغرس في نفسه حساً بالكبرياء الوطني ، أو تطلب منه أن يصبح شوفينياً بشأن الصناعات الوطنية ، والمسمكات وما إليها . ماذا يهم رجل قلبه مملوء بالنور أن يرتدي ثياب أي كان أو إن كانت هذه الثياب من آخر موضة أو طراز ما قبل الحرب ؟ لقد رأيت يونانيين يتجولون بأكثر الملابس إثارة للضحك والكره ـ قبعة من القش من عام 1900 ، وثوب لاعب بليارد بأزرار من اللؤلؤ ، معطف مرميّ ، ملابس قطنية باهتة ، مظلة مخروقة ، قميص وَبَرِيّ ، حافي القدمين ، شعر مشعّث في كل اتجاه ـ مواد تجميل يمجّها حتى الكَفيري(*) ،ومع ذلك ، أقولها بإخلاص وتأن أود ألف مرة أن أكون هذا اليوناني الفقير على أن أكون مليونيراً

(*) Kaffir

أميركياً . وأذكر هنا الحارس العجوز للحصن العتيق في نوبليا . كان قد سجن عشرين عاماً في السجن نفسه لإقترافه جريمة قتل . كان أحد أكثر المخلوقات ارستقراطيّـة رأيتهم في حياتي . وجهه مشعّ بحق الأجْر الزهيد الذي يحاول أن يعيش منه لم يكن ليكفي كلباً ، ملابسه أسمال ، وإمكانياته صفر . أرانا بقعة صغيرة من الأرض كان قد نظّفها تقع قرب المصطبة وأمل أن تنمو فيها بضع نبتات من الذرة في السنة القادمة . وإذا أعطته الحكومة ثلاثة سنتات زيادة في اليوم فقد يتمكن بصعوبة من اجتياز المرحلة الصعبة توسّل إلينا ، إن كان لدينا أي نفوذ ، أن نتحدث مع أحد الموظفين لأجله ، لم يكن حاد الطباع ، لم يكن كئيباً ، ولا مَرَضيّ المزاج . قتل رجلاً في ساعة غضب وأمضى عشرين عاماً في السجن لذلك ، ولن يفعلها ثانية ، كما قال ، إذا نشأ الظرف نفسه ثانية . لم يكن يشعر بالندم ، أو بالذنب كان عجوزاً رائعاً ، ضخماً كشجرة السنديان ، مَرِحاً ، وَدُوداً ، لا مبالياً تكفي ثلاثة سنتات في اليوم وكل شيء يحل . هذا كل ما كان يشغل باله . أحسده . ولو كان لي الخيار بين أن أكون رئيساً لشركة إطارات مطاطية في أميركا أو سجاناً لحصن نوبليا العتيق لفضّلت أن أكون السجان ، وحتى بدون زيادة ثلاثة سنتات ، وأقضي حكم العشرين سنة أيضاً ، كجزء من الصفقة . أفضل أن أكون مجرماً بضمير حي ، أتجول بالأسمال منتظراً محصول السنة القادمة من الذرة ، على أن أكون رئيس أكثر الشركات نجاحاً في أميركا . لا يتصف أي رجل أعمال متفوق بهذا الطابع العذب المتسم بالحب والثقة والسعادة الذي لليوناني البائس . وهناك شيء آخر نذكره طبعاً ـ اليوناني قتل رجلاً واحداً ، وهذا غضب مبرّر ، في حين أن رجل الأعمال الأميركي الناجح يقتل آلاف الأبرياء من رجال ، ونساء وأطفال في نومه كل يوم من حياته . هنا لا يستطيع

حد أن يكون له ضمير نظيف : إننا جميعاً جزء من آلة القتل الهائلة المتشابكة . هناك يمكن للمجرم أن يبدو نبيلاً ملائكياً ، رغم أنه يعيش كالكلب .

***

نوبليا . . . نوبليا ميناء بحري يقع مباشرة إلى الجنوب من كورنيث على شبه جزيرة حيث تقوم بلدتا تيرنس وابيدوروس . يمكنك أن تجتاز الماء بنظرك وترى أرغوس . وفوق أرغوس ، وشمالاً صوب كورنيث تقع ميسينا . إرسم دائرة صغيرة حول هذه الأماكن وتكون بذلك قد عَيَّنتَ أكثر المناطق وقاراً وأسطوريّة في اليونان . لقد زرتُ البولوبو نيزيوس من قبل ، في باتراس ، لكن هذا هو الجانب الآخر ، الجانب السحري . أما كيف وصلت إلى نوبليا فهي حكاية طويلة . يجب أن أعود قليلاً إلى الوراء . . .

***

أنا في أثينا . الشتاء يقترب . الناس يسألونني ـ هل ذهبت إلى دلفي ، هل ذهبت إلى سانتوريني ، هل ذهبت إلى ليسبوس أو ساموس أو بوروس ؟ عملياً لم أذهب إلى أي مكان ، عدا التردد من وإلى كورفو . وذات يوم وصلت حتى ماندرا ، وهي بعد ألويسيس في الطريق إلى ميغارا . ولحسن الحظ كان الطريق مسدوداً فاضطررنا للعودة . أقول لحسن الحظ لأنه لو ابتعدت في ذلك اليوم بضعة أميال أخرى ، لفقدت عقلي إلى الأبد . وكنت بطريقة أخرى أسافر كثيراً ، فيأتي الناس إليّ في المقهى ويصبّون أمامي كل رحلاتهم ، القبطان دائماً يعود من مسار جديد وسيفريادس دائماً يكتب قصيدة جديدة تغوص عميقاً في الماضي والمستقبل حتى سلالة الجذر السابع ، ويأخذني كاتسيمباليس على متن حواراته الإفرادية إلى جبل آثوس ، إلى بيليون

وأوســا ، إلى ليونيديون ومونيمفــاسيا ويصيب دَريل رأسي بالـــدوار بمغامراته البيثاغورية ، وثمة رجل قصير من ويلز ، عاد لتـوه من بلاد الفرس ، يجرني عبر النجود العالية ويضعني في سمرقنـد حيث أقابـل الفرسان المقطوعي الـرؤوس المسمّـون الموت . وكل الإنـكليز الـذين قابلتهم هم دائماً عائدون من مكانٍ ما ، جزيرة ما ، ديرٍ ما ، آثار عتيقة ما ، مكان غامض ما . وأحتار من كثرة الفرص المطروحة أمامي حتى الشلل .

وذات يوم قدّمني سيفريادس وكاتسيمبـاليس إلى الرســام غيكا . فرأيت يونانا جديدة ، اليونان الجوهرية التي جرّدهـا الفنـان من قذارة وفوضى الزمن ، والمكان ، والتاريخ . ونظرت نظرة ثنـائية البـؤرة الى هذا العالم الذي يدوّخني الآن بالأسماء ، والتواريخ ، والأساطير . لقد وضع غيكا نفسه في مركز الزمن كله ، في تلك اليونان التي تخلّـد نفسها وليس فيها تخوم ، لا حدود ، لا عمر . رسومات غيكا نضرة ونظيفة ، نقية عارية من كل ادعاء كالبحر والنور اللذين يغسلان الجزر المبهرة . غيكا هو باحث عن النور والحق رسومه تتجاوز العالم الإغريقي . ورسم غيكا هو الذي أخرجني من غيبوبتي المشدوهة . بعد أسبوع أو نحوه استقلّينا جميعاً القارب في بيريوس للذهاب إلى هيدرا حيث اتخذ سكناه السلفي . كان سيفريادس وكاتسيمبـاليس شديدَيّ الإبتهـاج فلم يكونا قد حصلا على عطلة منـذ زمـن بعيد . كان الوقـت أواخـر الخريف ، وهذا يعني أن الطقس معتدلٌ بجمال . عند الظهيرة صرنـا على مرمى النظر من جزيرة بوروس . كنـا نتنـاول عضّـة على سطـح المركب ـ وهي واحدة من الوجبات المرتجلة التي يحب كاتسيمباليس مدّها في أية ساعة من النهار أو الليل ، حين يكون في حالة جيدة . لا أظن أني سأمرّ ثانية بتجربة دفء العاطفة الذي أحاطني به في ذلك الصباح ونحن

نبدأ رحلتنا   كان الكل يتكلمـون دفعـة واحـدة ، والخمـر ينهمـر ، والطعام يزوّد باستمرار ، والشمس التي كانت مستترة خرجت قوية ، والقارب يهتز برفق ، والحرب دائرة لكن منسية ، والبحر موجود لكن الشاطىء أيضاً ، والماعز يتسلّق بجهد موزّعاً ، وكروم الليمون مرئية والجنون في شذاها أسَرَنا وربطنـا معـاً بشـدّة في نوبـة من الإستسـلام الذاتي .

لم أعد أعرف ما الذي أثّر بي بعمق أكثر ـ قصة كروم الليمـون المقابلة لنا أم مرأى بوروس نفسها حين أدركت فجأة أننا نبحـر خلال الشوارع   إن كان ثمة حلم أود رؤيته دون غيره فهو حلم الإبحار على اليابسة . إن الدخول في بوروس يمنح وهم حلم عميق . وفجأة تتقارب اليابسة من جميع أطرافها ويُحشَر القارب في ممرّ ضيّـق لا يبدو له منفذ . رجال ونساء بوروس يتدلّون من النوافذ ، فوق رأسك مباشرة . وتقف تحت أنوفهم الودودة تماماً ، كأنك تريد أن تحلق ذقنك أو تقص شعرك في الشارع . المتسكعون على رصيف الميناء يمشون بنفس سرعة القارب ، يمكنهم أن يسرعوا أكثر من القارب إذا أرادوا مدّ خطوهـم . الجـزيرة تدور في مستويات تكعيبية ، أحدها يحوي الجدران والنوافـذ ، وآخـر الصخـور والماء ، وواحـد للأشجـار والشجـيرات المتفتحـة تمامـاً ، وهكذا   هنـاك ، حيث ينحنـي البـر الـرئيـي كالسـوط ، تقـع كروم الليمون . وهناك يمس الجنون الصغـير والكبـير في الـربيع من شذى النسغ والبراعم . تدخل مرفأ بوروس وأنت تترنّح وتدور ، كأبله رقيق يقفز وسط الصواري والشباك في عالم لا يعرفه إلا الرسام وهـو الـذي أحياه من جديد لأنـه ، مثلك ، حين رأى هذا العالـم سَكِروسَعِـدَ وابتهج . الإبحار على مهل في شوارع بوروس هو استرداد لمتعة المرور

عبر الرحم . هي متعة أعمق من أن تُستَعَاد ، نوع من الإبتهاج الأبلـه الخَدِر يولّـد أساطير كمَولِدْ جزيرة من سفينة غارقة . السفينة ، المرور ، الجدران الدائرة ، الإرتعاش الرقيق المتموّج تحت بطن القارب ، النور المبهر ، انعطاف الشاطىء الشبيه بأفعى خضراء ، واللحى المدلاّة فوق رأسك من السكان المعلّقين فوقك ، كل هذا وأنفاس الصداقة الخافقة ، والتعاطف ، والإرشاد ، تغلّفك وتسلب لبّـك حتى تنطلق كنجم مُحقَّق ويتبعثر قلبك مع فُتاته الذائب في أقصى الكون وعرضه . الآن ، وأنا أكتب هذا ، يشبه الوقت من النهار وقتاً آخر قبل أشهر. هذا ما تقوله الساعة والروزنامة ، على أية حال . والحقيقة الصرفة هي أنه مرّت دهور طويلة على عبوري ذلك الممر الضيق . ولن يحدث ثانية . عادة أحزن عند التفكير في هذا ، أما الآن فلا . لديَّ كل الأسباب لأكون حزيناً في هذه اللحظة : كل الهواجس التي استولت عليَّ خلال عشر سنين تتحقق الآن . هذه واحدة من أسوأ لحظات تاريخ الجنس البشري . لا بارقة أمل في الأفق . العالم كله متورّط بالمذابح وسفح الدماء . أكرر ـ لست حزيناً دع العالم يأخذ حمّامه من الدم ـ سأتشبث ببوروس . قد تمر ملايين السنين وقد أعود مرة بعد مرة إلى كوكب ما أو آخر ، بشرياً شيطاناً ، أو رئيس الملائكة (لا يهمني كيف ، أو أيهم ، أو متى) لكن قدميَّ لن تغادرا هذا القارب ، لن تنغلق عيناي على ذلك المشهد ، ولن يختفي أصدقائي . كانت تلك لحظة تدوم ، تحيا رغم الحروب العالمية ، تتجاوز حياة كوكب الأرض نفسه . لو أتمكن من التوصل إلى الإنجاز الذي يتحدث عنه البوذيون ، لو يتسنى لي بلوغ النرفانا والتخلّف لأحرس وأرشد الآتين ، أقول الآن دعني أتخلّف ، دعني أحوّم كروح رقيقة فوق سطوح بوروس وأطل على الرحّالة بابتسامة اطمئنان وفرح طيب أستطيع أن أرى الجنس البشري كله يشق طريقه بصعوبة خلال

عنق الزجاجة هنا ، باحثاً عن منفذٍ إلى عالم النور والجمال . ليتهم يأتون ، ليتهم يغادرون المركب ، ليتهم يبقون ويرتاحون قليلاً بسلام . ولينطلقوا في يوم سعيد ، ليتقدموا في الممر الضيق ، أكثر فأكثر ، بضعة أميال أخرى - إلى أبيدوروس ، مقعد السكينة بعينه ، مركز الفن الشافي للعالم أجمع .

مرت بضعة أيام قبل أن رأيت بعيني عظمة أبيدوروس الساكنة الشافية . خلال هذه الفترة كدت أضيّع حياتي ، ولكنني سأتحدث عن هذا خلال برهة . كان مقصدنا هو هيدرا حيث ينتظرنا غيكا وزوجته . وهيدرا تكاد تكون جزيرة صخرية جرداء وسكانها ، المؤلفون في معظمهم من البحارة ، يتضاءلون بسرعة . البلدة ، المتجمّعة حول المرفأ على شكل مدرّج روماني ، نظيفة . لا وجود إلا للونين ، الأزرق والأبيض ، والبياض يزداد بياضاً كل يوم ، حتى أحجار الرصيف في الشارع . والبيوت مرتّبة بشكل تكعيبي أكثر من بوروس . إنها كاملة من الناحية الجمالية ، هي خلاصة تلك الفوضى النقية السائدة ، لأنها تتضمّن وتتجاوز ، كل ترتيبات الخيال الشكلية . هذا النقاء ، هذا الكمال المتوحش العاري لهيدرا ، يعود في جزئه الأعظم إلى روح الرجال الذين سيطروا ذات يوم على الجزيرة . ظل رجال هيدرا ولقرون طويلة أرواحاً شجاعة مُغَامِرة : فالجزيرة لا تنتج إلا الأبطال والمحررين . أقلّهم كان أدميرالاً في قلبه ، إن لم يكن في الواقع . ولإعادة تعداد مآثر رجال هيدرا يتطلّب الأمر كتابة كتاب عن سلالة من المجانين ، سيعني كتابة كلمة جرأة على قبّة السماء بحروف من نار .

هيدرا هي صخرة تبرز من البحر كرغيف هائل من الخبز المتحجّر . والخبز المتحجّر هو الجائزة التي ينالها الفنان لقاء جهوده عندما يلمح

لأول مرة الأرض الموعودة . بعد التنوير الرحميّ تأتي محنة الصخرة التي يجب أن تولد منها الشرارة التي ستضرم النار في العالم . إنني أتكلم مستخدماً صوراً واضحة سريعة لأنه للإنتقال من مكان إلى مكان في اليونان يعني أن تعي مأساة الجنس البشري المصيرية المثيرة وهي تنتقل انتقالات دائرية من جنة إلى جنة . كل توقف هو حجر أساس على الطريق الطويلة التي شقّتها الآلهة . إنها محطات للراحة ، للصلاة ، للتأمل ، للعمل ، للتضحية ، للتجليّ . لا يوجد على أية نقطة على طول الطريق علامة نهاية . حتى الصخور ، ولم يكن الله سخياً فيها في أي مكان كما هو في اليونان ، هي رموز للحياة الأبدية . في اليونان الصخور فصيحة اللسان : قد يندثر الرجال ، أما الصخور فأبداً . في مكان كهيدرا ، مثلاً ، يعرف المرء أنه حين يموت رجل يغدو جزءً من صخرته الأصلية . لكن هذه الصخرة هي صخرة حية ، موجة مقدسة من الطاقة معلّقة داخل الزمان والفراغ ، تخلق توقفاً طويلَ أو قصير الأمد في النغم الأبدي . وقد دخلت هيدرا بوصفها وِقْفَة صمت في السلم الموسيقي ابتكره خطّاط خبير . إنها واحدة من تلك الوقفات المقدسة التي تسمح للموسيقيّ ، حين يتابع اللحن ، أن يبدأ ثانية في اتجاه جديد تماماً . وهنا يمكن للمرء أيضاً أن يرمي البوصلة . وللإتجاه نحو الخلق هل يحتاج المرء إلى بوصلة ؟ بعد أن لمست هذه الصخرة فقدت كل إحساس بالإتجاه الأرضي . وما حدث لي منذ تلك اللحظة هو في طبيعة الإمتداد ، لا الإتجاه . لم يعد هناك أي هدف في الأفق ـ أصبحت متّحداً والطريق . وصارت كل محطة منذ ذلك الحين تدل على امتداد داخل خطوط طول وعرض روحية . لم تكن ميسينا أكبر من تيرينس ولا أبيدوروس أجمل من ميسينا : كل واحدة مختلفة بدرجة أضعتُ معها دائرة المقارنة . ليس هناك سوى تشابه واحد يمكنني تبيانه

لشرح طبيعة هذه الرحلة التنويرية والتي بدأت في بوروس وانتهت في تربيوليس بعدها بشهرين ربما . يجب أن ألفت انتباه القارىء إلى صعود القديسةسيرافيتا،كما لمحه تابعوها المخلصون. كانت رحلة في النور. أضيئت الأرض بنورها الداخلي. في ميسينا وطأتُ الموتى المتوهجين،في أبيدوروس شعرتُ بالسكون كثيفاً حتى أني سمعت في جزء من الثانية قلب العالم العظيم يَنبض وفهمت معنى الألم والحزن ، في تيريس وقفت في ظل الرجل السيكلوبي وشعرت بوهج تلك العين الداخلية التي أمست الآن غدة مريضة ، وفي أرغوس كان السهل كله ضباباً نيرانياً رأيت فيه أرواح إخواننا الهنود الأميركيين وحييّتهم بصمت . تحولت بطريقة منفصلة ، وانغمرت قدماي بالإتقاد. الأرضي . أنا في كورنيث وسط نور وردي ، الشمس تصارع القمر ، والأرض تدور ببطء بأطلالها السمينة ، تدور في النور كدولاب الماء المنعكس في بحيرة راكدة . أنا في أراتشوفا حين يحوم النسر من عشه ويقف عالقاً متوازناً فوق مرجل الأرض المضطرب ، منذهل بنظام الألوان البراق الذي يغلّف الهاوية اللاهثة . أنا في ليونيديون عند غروب الشمس وخلف الحجاب الثقيل القاتم لبخار المستنقع تلوح لي بوابة الجحيم المظلمة حيث تأتي أرواح الخفافيش والأفاعي والسحالي لتستريح ، وربما لتصلي في كل مكان أفتح شرياناً جديداً للتجربة ، وأنا عامل منجم أحفر أعمق في الأرض ، مقترباً من قلب النجم الذي لم يَخْبُ بعد . لم يعد النور شمسياً أو قمرياً ، إنه النور المتلألىء للكوكب الذي وهبه الإنسان حياته . الأرض حية حتى أعمق أعماقها ، وفي المركز شمس على شكل رجل مصلوب . الشمس تدمي على صليبها في الأعماق الخفية . من نور إلى نور ، من جلجلة إلى جلجلة ، أغنية الأرض . . . .

بقيت في هيدرا بضعة أيام ، صعدت خلالها ونزلت آلاف الدرجات ، وزرت منازل عدة لأمراء البحر ، وقدمت هِبات نَذْرية للقديسين الذين يحمون الجزيرة ، وتلوت صلوات على أرواح الموتى ، والعُرج ، والعُمي في الكنيسة الصغيرة الملحقة ببيت غيكا ، لعبت البينغ بونغ ، وشربت الشمبانيا والكونياك ، والاوزو والريزينا . في مخزن الغرائب العتيق[20] ، جلست مع زجاجة ويسكي أتحدث إلى غيكا عن الرهبان في التيبت ، بدأت لوغاريتم الحبل بلا دنس الذي أنهيته لسيفريادس في دلفي - واستمعت لكاتسيمباليس ، الى السيمفونية التاسعة لعذاباته وآثامه . ومدت المدام حجي - كيرياكوس ، زوجة غيكا ، مائدة بديعة ، ونهضنا عن المائدة كبراميل خمر بلا أرجل . ومن المصطبة ، الواضحة في تصميمها الشرقي ، تمكنا من الإطلال على البحر في انشداه سكران . للبيت أربعين غرفة ، بعضها مطمور عميقاً في الأرض . والغرف الكبيرة انت أشبه بصالة سفينة محيطية ، والغرف الصغيرة أشبه بزنزانات باردة يحرسها قراصنة سريعو الهياج . الخادمات ينحدرن من أصل قدسي وإحداهن على الأقل كانت تنحدر مباشرة من أريكثيوم[21] ، رغم أنها تحمل اسم نوع من الحبوب مقدّس .

في إحدى الأمسيات ، بينما نحن نرتقي الدرج العريض المؤدي الى ذروة الجزيرة ، بدأ كاتسيمباليس الحديث عن الجنون . كان ضباب يرتفع من البحر وكل ما استطعت رؤيته منه هو الرأس الضخم العائم فوقي كالبيضة الذهبية نفسها . كان يتحدث عن مدن ، عن كيف أصابه الهوس بطبع المدن الكبرى في العالم بطابع هاوسمن (Haussmannizing) . فيتناول خريطة لندن ، مثلاً ، أو القسطنطينية وبعد أكثر الدراسات تكلفة للجهد يرسم مخططاً جديداً للمدينة ،

مناسبه . كان يعيد ترتيب كل شيء حتى أنه بعد ذلك يجد صعوبة في يجاد طريقه حولها ـ أقصد في مخططه الخيالي . وطبعاً يجب هدم عدد كبير من النصب ليرُفع مكانها تماثيل جديدة ، لرجال لم يسمع بهم أحد . وبينما هو منشغل في القسطنطينية ، مثلاً ، تتملكه رغبة في تغيير شانغهاي . في النهار يعيد بناء القسطنطينية وفي نومه يعيد تصميم شانغهاي . كان شيئاً مشوشاً ، هذا أقل ما يقال عنه . بعد أن يكون قد أعاد بناء إحدى المدن ينتقل للعمل في غيرها ثم في غيرها ودون أي انقطاع كانت الجدران مغطاة بمخططات لهذه المدن الجديدة . ولما كان يعرف معظم هذه المدن عن ظهر قلب فغالباً ما يعود لزيارتها في أحلامه ، وبما أنه غيّرها تغيراً تاماً ، وبالتفصيل حتى أسماء الشوارع ، تكون النتيجة أن يُمضي ليالي بلا نوم محاولاً تحرير نفسه ، وعندما يستيقظ ، يجد صعوبة في استعادة هويته كان شيئاً كجنون العظمة ، هكذا ظن ، نوعاً من البنائية الممجّدة هي أثر مَرضيّ متخلّف من التركة البيولوبونيزية . وطوّرنا الموضوع أكثر في تيرينس ونحن نتفحّص الأسوار السيكلوبية (22) ، ومن جديد في ميسينا ، وأخيراً في نوبليا ، بعد أن صعدنا التسعمائة وتسع وتسعين درجة المؤدية الى قمة القلعة . وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن البيولوبونيزيين كانوا سلالة من البنّائين قُبِضَ على تطورهم الروحي وهو في طور التكوّن ، وبالتالي ، استمروا في البناء آلياً . كالماشين في نومهم ، ثقيلي الرؤوس ، ثقيلي الخطىٰ . لا أحد يعرف ما كان يحاول هؤلاء القوم خلقه في نومهم ، كل ما نعرف أنهم فضّلوا العمل بأكثر المواد صلابة . لم يظهر من بين هذه السلالة من بنائي الأحجار شاعر واحد . بل قدموا مجموعة رائعة من « السفاحين » والمشرّعين ، والقُوّاد الحربيين . حين أسدلت الستارة على المشهد لم يكن البيت معتماً فقط بل وخاوياً . كانت التربة مشبعة بالدم

بحيث إن المحاصيل التي تنتجها السهول والوديان الخصبة ما تزال وافرة بإفراط حتى اليوم .

عندما استقلينا القارب قاصدين سبيتساي كان كاتسيمباليس ما يزال يتكلم . مشينا وحدنا . ولم تكن سبيتساي تبعد أكثر من بضع ساعات . وكما قلت ، كان كاتسيمباليس ما يزال يتكلم . وما إن اقتربنا من هدفنا حتى بدأ بعض الرذاذ بالهطول . دخلنا القارب واتجهنا صوب الشاطىء ، وألقى كاتسيمباليس ملاحظة بأن المكان يبدو غريباً ، وأننا ربما اتجهنا إلى الجانب الآخر للجزيرة . خرجنا من القارب ومشينا على رصيف الميناء . وفجأة إذا بنا واقفان أمام نصب حربي ويا لدهشتي بدأ كاتسيمباليس يضحك . قال إنني مجنون ، هذه ليست سبيتساي ، هذه إرميوني - إننا على البر الرئيسي . وتقدّم أحد الدرك وكلّمنا . نصحنا بالذهاب الى الطرف الآخر من الجزيرة وهناك نستقل قارباً صغيراً إلى سبيتساي . وكانت هناك سيارة فورد عتيقة تعمل كباص بانتظارنا . كان فيها ستة مسافرين ولكن نجحنا في الإنحشار داخلها على أية حال . وما إن انطلقنا حتى بدأت تمطر . دخلنا بلدة كرانيديون بسرعة هي سرعة البرق ، نصف السيارة كان على الرصيف والنصف الآخر في المجرور ، وقمنا باستدارة حادة وانحدرنا على سفح الجبل بعد أن توقف المحرك . كانت السيارة تتداعى ، والخنزير الصغير الذي كنا نريح أقدامنا عليه يصرخ كمهووس تلسعه البراغيث . حين وصلنا إلى الميناء الصغير لبلدة بورتوكيلي كان المطر يهطل سيولاً . خضنا في الطين حتى كواحلنا لنصل إلى خان قائم عند الواجهة المائية . وزمجرت عاصفة أوسطية نموذجية . حين سألنا إن كنا نستطيع الحصول على قارب صغير نظر إلينا لاعبو الورق وكأننا مجانين . قلنا - « بعد أن تنتهي العاصفة » ، هزوا رؤوسهم قالوا « ستدوم طوال النهار وربما طوال

الليل » . راقبنا العاصفة ساعة من الزمن أو أكثر ، يتلبّسنا الملل حتى الجمود من فكرة أن نبقى هنا طوال الليل . وسألنا ، الا يوجد أحد ينتهز فرصة هدوء العاصفة قليلاً ؟ وجعلناهم يعرفون أننا سندفع ضعف أو ثلاثة أضعاف التعرفة المعتادة وسألت كاتسيمباليس « على فكرة ، ما هي التعرفة العادية ؟ » وسأل صاحب البار قال « مائة دراخما » وإذا دفعنا ثلاثمائة دراخما فسيكون شيئاً أنيقاً . وثلاثمائة دراخما تساوي حوالي الدولارين . وسألت « أتعني أن هناك من هو من الحمق بحيث يخاطر بحياته من أجل دولارين ؟ » أجاب « ونحن ؟ » وفجأة أدركت أنه قد تكون مجازفة حمقاء أن نغري أحدهم بنقلنا عبر هذا البحر . جلسنا وناقشنا الأمر . سأل كاتسيمباليس « هل أنت متأكد أنك تريد المجازفة ؟ » قلت متفادياً « وأنت ؟ » قال « قد لا ننجح . إنها مقامرة . على أية حال ، ستكون ميتة رومانطيقية ـ بالنسبة لك » ثم راحل يتكلم عن كل الشعراء الإنكليز الذين غرقوا في البحر المتوسط . قلت « إلى الجحيم بكل هذا ، إذا أتيتَ سأجازف . أين ذاك الشاب الذي كان ينوي نقلنا ؟ » وسألنا أين ذهب الشاب . قالوا « ذهب ليأخذ غفوة صغيرة ، انه لم ينم أبداً طوال الليل » . حاولنا أن نجد شاباً آخر ، ولكن لم يكن هناك من هو من الحمق بحيث ينصت لتوسلاتنا . سأل كاتسيمباليس « هل تحسن السباحة ؟ » أخرج التفكير في محاولة السباحة في ذاك البحر المضطرب البخار مني . وأضاف « من الأفضل الإنتظار قليلاً ، لا داعي للإسراع في الغرق » . اقترب منا ملاّح عجوز وحاول ثنينا عن الذهاب . قال « إنه طقس غادِر جداً . قد يهدأ قليلاً ولكن بما يكفي للوصول إلى سبيتساي . الأفضل أن تبقيا هنا هذه الليلة . لن يأخذكما أحد في هذا البحر » نظر كاتسيمباليس إليّ وكأنه يقول ـ « أسمعت ؟ هؤلاء الناس يعرفون ما يقولون »

بعد ذلك ببضع دقائق ظهرت الشمس وظهر معها الشاب الذي كان يأخذ غفوة . وهرعنا لتحيّته لكنه أبعدنا بظاهر يده . وقفنا عند الباب وراقبناه يفك القلوع وينشر الأشرعة . وبدا أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً جداً ، في هذه الأثناء كانت الغيوم قد تجمّعت من جديد وتناهت قرقعة البرق ورذاذ مطر . وغاص الرجل في الحجيرة . ووقفنا نراقب السماء لمزيد من الوقت . وعاد المطر ينهمر واخزاً كأسنة المذراة . ولما بدا أن كل أمل قد غاب ، صعد الشاب فجأة إلى سطح القارب وأومأ الينا . كان المطر قد خفّ والغيوم من خلفنا تتكسّر . وسألنا ، دون أن نتأكد تماماً من أنفسنا « هل يمكننا أن ننتهز الفرصة الآن ؟ » هز الشاب كتفيه . وسألت « ماذا يقصد بهذا ؟ » هز كاتسيمباليس كتفيه بدوره ، مضيفاً بابتسامة خبيثة ـ « هذا يعني أنه إذا كنا من الجنون بحيث نخاطر بحياتينا فسيجن هو أيضاً » قفزنا إلى القارب وانطلقنا ، ونحن متشبثين بالصاري . قلت « لماذا لا تنزل إلى أسفل ؟ » لم يرغب كاتسيمباليس بالهبوط إلى أسفل ، فهذا يسبب له دوار البحر . قلت « لا يهم ، ستصاب بالدوار على أية حال ، وها قد بدأنا » . أسرعنا ورحنا نقترب من الشاطىء . وحين وصلنا إلى عرض البحر ضربتنا هبّة ريح قوية بعنف . وترك الشاب اليوناني الدفة ليُنزل الأشرعة . قال كاتسيمباليس « أنظر إلى هذا ، هؤلاء الناس مجانين » كنا نقترب اقتراباً خطراً من الصخور في الوقت الذي أنزل فيه الشاب الأشرعة . وعلا البحر بازدياد ـ وبدت أمامنا كتلة مهتاجة من القمم البيضاء . وبدأت أدرك مبلغ جنون الأمر حين رأيت الأغوار والجبال الهائلة التي نغوص فيها وسط دوار مريع .

نظرنا وراءنا غريزياً إلى الدفة لنستمد شعاعاً من الأمل من تعابير

وجهه ، ولكن تعابيره كانت جامـدة . قال كاتسيمبـاليس « ربمـا كان معتوهاً » وهنا تحطَّمت موجة فوقنا تماماً ونقعتنـا حتـى الجلـد . وكان للغوص تأثير مثير علينا . وثرنا أكثر حين لمحنا يختاً صغيراً يقترب منا . كان أكبر قليلاً فقط من قاربنا«البنزينا» ولـه نفس سرعتـه تقريباً . تطاير القاربان وغاصا ، جنباً إلى جنب ، كخيول البحر . وما كنت لأصدّق أن قارباً ضئيلاً ضعيفاً يمكنه الصمود في وجه بحر كهذا حين انزلقنا أسفل الغور لاحت الموجة التالية فوقنا كوحش أبيض الأنياب ينتظر أن يهبط علينا بدءاً ببطنه . كانت السماء كخلفية مرآة ، ترسل وهجاً غبشاً ذائباً بالكاد نجحت الشمس في اختراقه . ونحو الأفق كان البرق يرسم خطوطه المتكسِّرة جيئة وذهاباً ، والآن بدأت الأمواج تضربنـا من كل الجهات . وتطلَّب الأمر بذل كل قوانا للتشبُّث بالصـاري بأيدينـا . وصرنـا نرى سبيتسـاي بوضـوح ، الأبنية شاحبـة ، وكأنهـا تقيَّأت أحشاءها . وبغرابة كافية لم يعد أي منا خائفاً . ولـم أعلم إلا فيما بعد أن كاتسيمباليس كان يموت رعباً من البحر بما أنه من سكان الجبال وليس من الساحل . كان وجهه متورداً . وبين الحين والآخر يصرخ ـ«مشهد هوميريّ ، ما رأيك ؟ » يا كاتسيمباليس العجوز الطيب ! مجنون ككل اليونانيين . كان هلِعاً من البحر ومع ذلك لم يتفوّه بكلمة عن الأمر . وصرخ « سنتناول وجبة جيدة إذا نجحنا » وما إن خرجت الكلمات من فمه حتى كالت لنا دفقة ماء مزمجرة ، صافرة ، ضربة قوية حسبنا معها أننا انتهينا . لكن القارب كان كالفلينة . لا شيء يقلبه أو يغرقه . نظر بعضنا إلى بعض نظرة دراية ، وكأننا نقول « حسن ، إذا تغلَّب على هذا فسيتغلَّب على كل شيء » وغدونـا جذلـين وصرخنـا بكلمات تشـجيع مجنونة ، وكأننا نمتطي حصاناً « هـل أنـت على ما يرام يا أخ ؟ » هتف كاتسيمباليس بهذا من بين كتفيه ، لا يجرؤ على الإلتفات خشية أن يرى

الرجل مطروحاً في القارب ، وجاء الجواب « ماليستا » . ما أجملها من كلمة تعني نعم ، هكذا قلت لنفسي ثم فكّـرت في أول عبارة يونانية تعلّمتها ـ « قليلاً من الماء ، أرجوك . . . «Ligo nero, se parakalo» ماء ، ماء . . . كان يفيض من عينيّ وأذنيّ ، على عنقي ، داخل سرّة البطن ، بين أصابع القدم . هتف كاتسيمباليس « إنه سيء للروماتزم » صرخت « ليس كثيراً ، ستكون لك شهية طيبة » .

كان على الرصيف الذي رسونا عليه حشـد صغـير . ونظـر إلينـا الـدركي بريبـة . ما الـذي جاء بنـا إلى مكان كسبيتسـاي في طقس كهـذا لماذا لم نأت على المركب الكبـير؟ ما عملنـا ؟ ولأن كاتسيمباليس يونانياً وقد غادر القارب الكبير خطأ جعل الأشياء تبدو أكثر ريبة . وماذا يفعل الأميركي المجنون ـ فالسياح لا يأتون في الشتاء ؟ مهما يكن ، بعد عدة زمجرات استـدار على عقبيه ومشى . ذهبنـا إلى فنـدق صغير مجاور وكتبنا اسمينا في مجلد كبير . نظر المالك ، الذي كان أبلَهَ قليلاً لكنه عطوف ، إلى الإسمين ثم قال لكاتسيمباليس ـ « في أي فوج كنت أثناء الحرب ؟ ألم تكن قائدي ؟ » وأعطى اسمه واسم الفوج . بينما نحن نبدّل ثيابنا كان جون المالك بانتظارنا ، وهو يمسك ابنه الصغير من يده ويحمل وليداً على ذراعه . وقال بفخـر « أولادي ، يا كابتـن » قادنا المستر جون إلى حانة حيث يمكننا الحصول على سمك مشوي ممتاز وبعض الريزينا . وفي الطريق أخبرنا باللغة الإنكليزية عن مخزن بيع الفاكهة الذي يملكه في نيويورك ، الكائن عند مفترق بعض الشـوارع الفرعية وسط المدينة . وأعرف أن مدخل الشارع الفرعي جيد جداً لأني في إحدى المرات بعت معطفاً محاطاً بالفرو أهدانيه هندوسي إلى سائـق تاكسي مقابل عشرة سنتات في صباح أحد أيام الشتاء الساعة الثالثة أمام

مخزن الفاكهة الخاص بالسيد جون مباشرة . وصعبٌ على السيد جون الأبله قليلاً ، كما قلت ، أن يصدق أن الجنون يمكن أن يوصل أميركياً أصيلاً إلى حد يقوم عنده بهذا العمل . وبينما نحن نثرثر بالانكليزية استدار رجل سمين يجلس على المائدة المجاورة ، وكان ينصت بانتباه ، فجأة وقال لي بلكنة أعلى إلبلد التي لا تخطىء ـ « من اين أنت ، أيها الغريب ؟ أنا من بفالو » وإقترب وانضم إلينا . كان اسمه نِك . قال ، وقد طلب كأساً أخرى من الريزينا « كيف حال الولايات المتحدة الأميركية العجوز الطيبة ؟ يا لليسوع ، اني أهب أي شيء لأعود الى هناك الآن » نظرت الى ثيابه ، واضح أنه أميركي ، وواضح أنه ثري . سألته « ماذا تعمل هناك ؟ » قال « كنت وكيل مراهنات . أتعجبك هذه البذلة ؟ لدي سبع منها في البيت . إيه ، لقد جلبت معي مؤونة من كل شيء . لا يمكنك أن تحصل على كل شيء جيد هنا ـ أنت ترى كم الجو مقبض هنا . يا ليسوع ، لقد كان لدي وقت فسيح في بفالو . . . متى ستعود ؟ » حين قلت له ليست لي نية في العودة ابتسم لي ابتسامة غريبة . قال « ظريف ، أنت تحب هنا وأنا أحب هناك . ليتنا نستطيع تبادل جوازات السفر . يمكنني أن أعطي الكثير مقابل جواز سفر أميركي الآن » .

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي كان كاتسيمباليس قد ترك الفندق لتوّه . قال المستر جون إني سأجده في الشارع قرب كلية أنارجيروس . ابتلعت إفطار المستر جون الدهنيّ وسلكت الطريق المحازية للواجهة المائية إلى الكلية . «الكلية ، كأغلب الأشياء الهامة في سبيتساي ، وُهِبَت للملكية العامة من قِبَل ملك السجائر . وقفت عند المدخل أتأمل بإعجاب المباني ولما استدرت لأذهب رأيت كاتسيمباليس

يقترب وهو يلوح بخيزرانته بعظمة . كان يرعى صديقاً له - سأسميه كيريوس بيسيلون ، حفاظاً على السرّية . وكيريويس بيسيلون كان منفياً سياسياً ، كما اكتشفت ، نُقِلَ إلى سبيتساي من جزيرة أخرى بسبب سوء صحته . أحببت كيريوس بيسيلون على الفور ، منذ اللحظة التي صافحت فيها يده . كان يتكلم الفرنسية ، ولا يعرف شيئاً من الإنكليزية ، ولكن مع لَكْنَة ألمانية . كان يونانياً كأفضل ما يكون اليوناني ، غير أنه تعلّم في ألمانيا . ما أعجبني فيه كان طبيعته الحادة المرحة ، صراحته ، حبه للأزهار والماوراثيات . أدخلنا إلى غرفته في بيته الكبير المهجور ، نفس البيت الذي أُطلق فيه النار على بوبولينا الشهيرة . وبينما نحن نتبادل أطراف الحديث أخرج حوضاً من التنك وملأه بالماء الحار لحمّامه . وعلى الرف قرب سريره وضع مجموعة من الكتب . نظرت إلى العناوين ، وكانت مكتوبة بخمس أو ست لغات . كان هناك (الكوميديا الإلهية) ، (فاوست) ، (توم جونز) ، عدة مجلدات لأرسطو ، (الأفعى المريّشة) ، (وحواريات أفلاطون) ، مجلدان أو ثلاثة لشيكسبير ، الخ . إنها حِمْيَة ممتازة لحصار طويل الأمد . قلت « إذن أنت تعرف بعض الانكليزية ؟ » أوه ، نعم لقد درسها في ألمانيا ، لكنه لم يتمكن من التكلّم بها جيداً . وأضاف بسرعة « أتمنى أن أقرأ والت ويتمان يوماً » . كان جالساً في الحوض يرغي الصابون ويفرك نفسه بقوة . قال « لأحافظ على المعنويات » رغم إن أيّاً منا لم يُبدِ ملاحظة حول حمّامه . وتابع قائلاً « على المرء أن يحتفظ بعادات منتظمة ، وإلا تناثرت شذراً . إنني أمشي كثيراً ، حتى أستطيع النوم ليلاً . فالليالي طويلة ، كما تعلم ، حين لا تكون حراً » .

وفي طريق عودتنا إلى الفندق قال كاتسيمباليس. إنه رجل عظيم

النساء يجُننَّ به . ولديه نظرية مثيرة في الحب . . . دعه يحدثك عنها ذات يوم .

عند الحديث عن الحب ورد اسم بوبولينا من جديد . سألت « لماذا لا نسمع المزيد عن بوبولينا ؟ كأنها جان دارك أخرى »

وشحر مستهزئاً ، بعد أن وقف جامداً في مكانه « هه ، وماذا تعرف عن جان دارك ؟ هل تعرف شيئاً عن حياتها العاطفية ؟ » تجاهل جوابي ليتابع عن بوبولينا . كانت قصة غير عادية أخبرني بها ولم أشك أن معظمها صحيح . فسألته مباشرة « لماذا لا تكتب تلك القصة بنفسك ؟ » ادّعى أنه ليس كاتباً ، وأن مهمته هي اكتشاف الناس وتقديمهم للعالم . وأصررت « لكني لم أقابل رجلاً يمكنه أن يحكي حكاية جيدة مثلك . لماذا لا تحاول أن تجهر بحكاياك عالياً ـ دع أحدهم يكتبها لك كما تقولها بالضبط ؟ ألا تفعل هذا ، على الأقل ؟ »

قال « لكي تقص حكاية جيدة يجب أن يكون هناك مستمع جيد . لا يمكنني أن أحكي حكاية لألة اختزال . ثم إن أفضل القصص هي التي لا ترغب بالإحتفاظ بها . إن كان لديك أي arrière-pensée تَفسُد القصة . يجب أن تكون هِبَة صِرْفة . . . يجب أن ترميها للكلاب . . . إنني لست كاتباً ، وأضاف « إنني شخص بارع في الإرتجال . أحب سماع نفسي أتكلم . وأتكلم كثيراً ـ إنها نقيصة » ثم أردف متأملاً « ما فائدة أن أصبح كاتباً ، كاتباً يونانياً ؟ لا أحد يقرأ اللغة اليونانية . إن حصل المرء على ألف قارىء هنا فهو محظوظ . المثقفون اليونانيون لا يقرأون كتّابهم ، ويفضّلون قراءة الكتب الألمانية ، والإنكليزية ، والفرنسية . ليس للكاتب حظ في اليونان » .

واقترحت « ولكن يمكن ترجمة عملك إلى لغات » أجاب « لا وجود للغة يمكنها أن تنقل نكهة جمال اليونان المعاصرة ، الفرنسية متخشبة ، جامدة ، مفعمة بالمنطق ، كثيرة الإيجاز ، والإنكليزية تافهة جداً ، مملّة جداً ، عملية جداً أنت لا تعرف كيف تصيغ الأفعال باللّغة الإنكليزية » واستمر على هذا الشكل ، وهو يلوّح بخيزرانته بغضب وبدأ يتلو إحدى قصائد سيفريادس باليونانية « أتسمع هذا ؟ الصوت وحده رائع ، أليس كذلك ؟ ماذا يمكنك أن تعطيني بالإنكليزية ما يناظره في جمال رنة الصوت فقط ؟ » وفجأة بدأ ينغّم بيتاً من الكتاب المقدس . قال « الآن هذا شيء يشبهه قليلاً ، لكنكم لم تعودوا تستخدمون هذه اللغة ـ لقد باتت لغة بائدة الآن . لم يعد للّغة أحشاء هذه الأيام . إنكم جميعاً مخصيّون ، أصبحتم رجال أعمال ، مهندسين ، وتقنيين . إنه شيء يشبه سقوط نقود خشبية في المجرور . أما نحن فلدينا لغة . . . ما تزال نصيغها . إنها لغة الشعراء، وليست لأصحاب الدكاكين . إسمع هذا ـ « وراح يلقي قصيدة أخرى ، باليونانية . « هذه من تأليف سيكيليانوس . أظنك لم تسمع باسمه ، ماذا ؟ ولم تسمع بيانوبولوس ، أليس كذلك ؟ كان يانوبولوس أعظم مِنْ صاحبك والت ويتمان وكل الشعراء الأميركيين مجتمعين . كان مجنوناً ، نعم ، وسَكِرَ حتى الثمالة باللغة اليونانية ، والفلسفة اليونانية ، والسماء اليونانية ، والجبال اليونانية ، والبحر اليوناني ، والجزر اليونانية ، والخضروات اليونانية ، حتى قتل نفسه . سأخبرك كيف قتل نفسه في وقت آخر ـ هذه قصة أخرى . هل تعرف كتّاباً مستعدين لقتل أنفسهم لأنهم مملؤون حُباً ؟ هل هناك كتّاب فرنسيون أو ألمان أو إنكليز يشعرون على هذا النحو اتجاه بلدهم ، وأبناء جنسهم ، وتراب أرضهم ؟ من هم ؟ سأقرأ عليك بعضاً من شعر يانوبولوس حين نعود

إلى أثينا . سأقرأ عليك ما يقوله عن الصخور ـ عن الصخور فقط ، ولا شيء آخر . ولا يمكنك أن تعرف ما الصخرة حتى تسمع ما كتبه يانوبولوس . إنه يتكلم عن الصخور في صفحات وصفحات ، إنه يبتكر الصخور ، يا لله ، حين لا يجد منها ما يفتنه . يقول الناس إنه مجنون ، أقصد يانو بولوس . لم يكن مجنوناً : كان متّماً . وهناك فرق . كان صوته قوياً جداً بالنسبة لجسمه ، وكان يستهلك قواه هو مثل إيكاروس أذابت الشمس جناحيه . لقد غالى في التحليق . كان نسراً . هؤلاء الأرانب الذين ندعوهم نقّاداً لا يمكنهم فهم رجل مثل يانوبولوس . لقد تجاوز كل النِسَبْ افتتن بالأشياء الخاطئة ، هذا بالنسبة لهم . لم يكن لديه حس بالمقياس Le sense de mesure ، كما يقول الفرنسيون . ها أنت ـ ياmesure . يا لها من كلمة وضيعة حقيرة ! إنهم ينظرون إلى البارثنون ويجدون النِسَبْ في غاية التناغم . كله عفن . النسب الإنسانية التي مجّدها اليونانيون كانت فوق إنسانية . لم تكن نِسَباً فرنسية . كانت قدسية ، لأن اليوناني الحقيقي إلّه ، وليس مخلوقاً حذراً ، دقيقاً ، حساباً له روح مهندس . . . » .

***

طال بقاؤنا في سبيتساي لأن القارب المتوجه إلى نوبليا رفض أن يظهر . وبدأت أخشى أن نبقى راسين هناك إلى ما لا نهاية . على أية حال ، في يوم صاف حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر ظهر القارب أخيراً . كان معدّية إنكليزية لا نفع فيها تنقلب لأقل تموّج . جلسنا على سطحها نراقب الشمس الغاربة . كان غروباً ربّانياً يخلو منه الإنسان تماماً . وببساطة تفتح الطبيعة فاها الدموي ، النَهِم وتبتلع كل ما يقع على مرمى النظر . ويبدو القانون والنظام ، والأخلاق ،

والعدل ، والحكمة ، وكل شيء مجرد نكتة فظة يرمي بها عالم عاجز من البُلهاء . الغروب في البحر بالنسبة لي مشهد مريع ، إنه بشع ، إجرامي ، بلا روح . قد تكون الأرض قاسية لكن البحر بلا قلب . لا مكان على الإطلاق يلجأ اليه ، لا توجد إلا العناصر الأولية والعناصر الأولية خادعة .

كان علينا أن نمرّ على ليونيديون قبل الرسو في نوبليا . كنت آمل أن يبقى ما يكفي من الضوء لإلقاء نظرة سريعة على المكان ، لأن هذه الزاوية المتجهّمة من أرض البلوبونيزيوس هي التي نشأ منها الجانب الذي ينتمي لكاتسيمباليس من العائلة . كانت الشمس تسرع في المغيب لسوء الحظ خلف جدار الصخر الذي تقع بعده ليونيديون . وفي الوقت الذي ألقى فيه القارب مرساته كان الليل قد حل . وكل ما استطعت تمييزه في الظلمة هو كوة صغيرة مضاءة بأربع أو خمس لمبات كهربائية واهية . وهبط من الجدار الأسود الشديد الإنحدار من فوقنا نسيم شديد الرطوبة والبرودة ، مُضافاً إلى جو المكان المنعزل المهجور. وركّزت عيني لأنفذ في الظلمة القارسة المشبعة بالضباب وبدا لي أني ميّزت فجوة في التلال أسكَنَها خيالي برجال قبائل بدائيين ؛ برابرة يتنقلون خلسة في المكان بحثاً عن عَلَف . وما كنت لأدهش أقل دهشة لو سمعت قرع الطوم ـ طوم أو هتاف الحرب الذي يجمِّد الدم رعباً لقد كان المشهد مشؤوماً بشكل مقلق ـ فخاً آ ـ ر للموت . أمكنني أن أتخيل جيداً كيف كان عليه الحال قبل قرون عديدة خلت ، حين اخترقت شمس الصباح الضباب المثقل بالحمّى ، كاشفة عن أجساد القتلى العراة ، بقاماتهم الطويلة الموفورة العضل ، الأنيقة المشوّهة بالرمح ، بالفأس والدولاب . ورغم فظاعة الصورة لم أستطع إلا أن أفكر كم هو أنظف

بكثير من مشهد خندق منسوف ومغطّى بقطع اللحم البشري كطعام الدجاج المنثور . لا يمكنني أن أتذكر ولو قضيت حياتي كلها بأي انتقال عجيب وصلنا إلى شارع فوبورج مونمارتر ، لكن بعدما سُحِبَ القارب وركزنا أنفسنا على المائدة في الصالون أمام كأسين بريئين من الأوزو قادني كاتسيمباليس من يدي من مقهى إلى مقهى على طول ذاك الشارع المحفور في ذاكرتي كما لم يحفر أي شارع آخر في باريس . وحتى الآن حدث معي على الأقل خمس أو ست مرات ، أني بعد أن أغادر مدينة غريبة أو أقول إلى اللقاء إلى صديق قديم يكون هذا الشارع ، وهو طبعاً ليس أكثر شوارع العالم غرابة ، هو موضوع الفراق . هناك بلا شك شيء مشؤوم وشرير بشكل مذهل يحيط بشارع دو فوبورج مونمارتر . ففي أول مرة مشيت فيه ، ذات مساء ، تجمّدت تماماً من الرعب . فقد ساد الجو شيء ينذر المرء بأن ينتبه الى نفسه . انه ليس أسوأ شارع في باريس على الاطلاق ، كما ألمحت ، ولكن ثمة شيئاً مؤذياً ، شنيعاً ، مهدِّداً يتريث هناك كغاز سامّ ، يفسد حتى أكثر الوجوه براءة ليشبه ملامح الهالكين والمهزومين المتقرّحة . إنه شارع يعود إليه الإنسان مرة بعد مرة . يتعرّف عليه على مهل ، خطوة خطوة ، كخندق احتُلّ واحتُلّ مرات عديدة بحيث لم يعد المرء يعرف إن كان كابوساً أو مسّاً أحادياً .

بعد بضع ساعات سنكون في نوبليا ، على مسافة أخّاذة من أماكن تحبس الأنفاس مثل أرغوس وتيرينس ، وميسينا ، وأبيدوروس ، وها نحن نتحدث عن بُؤَرْ قذرة ، وشوارع جانبية مشوهة ، وعاهرات هَرِمات ، وأقزام ، وجيغولويين ، 'Clochards الفوبورج مونمارتر . أحاول أن أتصور صديقي كاتسيمباليس جالساً في مقهى صغير مُعَيَّن يقع

قبالة أحد المسارح عند منتصف الليل . في آخر مرة جلست فيها على ذاك البار كان صديقي إدغار يحاول بيعي شيئاً لرودولف ستاينر ، دون أن يفلح ، لأنه بينما أوشك أن يصنِّف البشر ويوضّح الطبيعة الدقيقة للفرق بين بقرة ومعدن ، من وجهة نظر السحر والتنجيم ، شقّت إحدى فتيات الكورس العاملات في المسرح المقابل - وكانت عندئذٍ متبطلة تتسكّع - طريقها بيننا وحوّلت ذهنينا إلى أشياء أقل إبهاماً اتخذنا مجلساً في الزاوية القريبة من باب الخروج حيث إنضمّ إلينا قزم يدير مجموعة مواخير وقد بدا مستمتعاً استمتاعاً شريراً باستخدام صفة «malment» والقصة التي كان يرويها كاتسيمباليس هي إحدى تلك القصص التي تبدأ كحادثة تافهة وتنتهي كرواية لم تكتمل - لم تكتمل بسبب افتقارها للحياة ولحيز المكان والزمان أو لأنه ، كما يحدث عادة ، ينعس ويقرر أن يأخذ غفوة . هذه القصة ، وككل قصصه أجد صعوبة في نقلها ، لافتقاري إلى صبر ورهافة توماس مان ، استحوذت عليّ لأيام . ولا يعني هذا أن الموضوع كان غير عادي إلاّ أنه أمام امتداد البحر الرائع كان يشعر بحريته في استخدام أكثر الإستطرادات غرابة ، والتمهّل بحرص مدقّق وانتباه عند أكثر التفاصيل تفاهة . ولطالما شعرت أن فن سرد القصص يكمن في إثارة مخيلة المنصِت حتى يغوص في أحلامه التأملية قبل حلول النهاية بوقت طويل . وأفضل القصص التي سمعتها هي بلا نهاية ، وأفضل الكتب هي التي لا أذكر عقدتها أبداً ، وأفضل الأشخاص هم مَنْ لا أصلُ معهم إلى أية نتيجة . ورغم أن هذا حدث معي مراراً وتكراراً فلم أتوقف عن الإعجاب بكيفية حدوثه حتى أنه ، بعد تبادل التحية مع أشخاص أعرفهم ببضع دقائق نبدأ رحلة لا تنتهي لا يجاريها في الشعور والمسار إلا الحلم المتوسط العميق الذي ينزلق فيه الحالم المتمرّس

كانـزلاق عظمـة في تجويفهـا ، وغالبـاً ، بعـد إحـدى هذه الجلسـات الإستحضارية الفائقة الحساسية ، وفي محاولة لإعادة التقاط الخيط الذي انقطع ، أشق طريق العودة بعيداً حتى أتفه تفصيل ـ ولكن بين نقطـة الإصلاح المزيّـنة بالتوتر تلك والبـر الـرئيسي كان هنـاك هوة لا يمـكن عبورها ، نوع من أرض لا يسكنها أحد ملأتها قوة الفنـان السحـرية بحُفَر القنابل والمستنقعات والأسلاك الشائكة .

في حالة كاتسيمباليس كانت ثمة خاصية شعرت ، ككاتب ، أنها على أعلى درجة من الأهمية فيما يخص فن سرد القصص ـ هي الإهمال التام لعنصر الزمان . لم يبدأ أبداً بطريقة احترافية ، بل كان يبدأ بالتعثر حول الموضوع ، يناوش بحثاً عن ثغرة للدخول ، إن صح التعبير . وتبدأ القصة عادة حين يصل إلى ثقب عقدة ، حيث يتخذ خطوة جبارة إلى الوراء ، كي ينطلق كما يجب ، على سبيل الترميز طبعاً ، قائلاً وهو يقرص أنفه ـ « أنظرْ هنا ، هل لاحظت مرة . . . » أو يقول « أقول ، هل حدث لك مرة أن . . . . . » ودون أن ينتظر جواب النعم أو اللا ، تومض عيناه بدفق من النور داخلي، ويسقط ، في الواقع ، منكفئاً إلى الوراء في البئر العميقة التي تستقي منها جميع قصصـه منابعهـا، وأثناء تشبّثه بالجدران الزلقة لحكايتـه بأصابـع اليدين والقدمين،يتسلّـق نحو السطح ، نافثاً ، لاهثاً ، هازاً نفسه ككلب نيتحرر من آخـر الـذرات المتبقية من الحطام والطين اللزج وغبار النجم أحيانـاً ، عنـد اتخـاذه خطوة الغوص الى الوراء ، يرتطم بالقاع بقوة كبـيرة حتـى يعجـز عن الكلام . كان يمكن للمرء أن ينظر في بؤ بؤ عينه ليراه ممدّداً هناك لا حراك به كسمكة النجم ، كتلة ضخمة منطرحة من اللحم وجهه متّجـهٌ إلى أعلى يعدُّ النجوم ، يعدُّهم ويسمِّيهم بانذهال غني منتظم وكأنما ليصيغ

نموذجاً هائلاً لا يمكن تخيله يحيك على منواله القصة التي تعود إلى شفتيه بعد أن يلتقط أنفاسه .

غاصت سمكة النجم الضخمة ، كما قلت ، في النوم قبل أن نصل إلى نوبليا بوقت طويل . تمدّد هو على طوله على المقعد ، وتركني أجول في البارك مونسو الذي أقلّني إليه في تاكسي . وذُهِلْتُ . صعدت إلى سطح المركب ومشيت جيئة وذهاباً ، أهمهم لنفسي ، وبين الحين والحين أضحك مع نفسي بصوت عال ، مقلّداً حركاته ساخراً متوقعاً أن أعيد سرد أكثر شُذُور حكايته نضارة لِصديقي دريل أو لسيفريادس عند عودتي إلى أثينا. تسللت إلى الصالون عدة مرات لألقي عليه نظرة، لأتفرّس بذاك الفم الصغير الذي أضحى مفتوحاً الآن ويصدر عنه لهاث طويل أبكم كفم سمكة تختنق بالهواء اقتربت منه مرة وانحنيت لأستكشف التجويف الصامت بعين فوتوغرافية كم هو مذهل الصوت ! بقوّةِ أية معجزة تحوّلت حمم الأرض الساخنة الى ما نسمّيه الكلام ؟ فإذا كان بالامكان صياغة وسيلة مجرّدة كالكلمات من الطين : فما الذي سيعيقنا عن ترك أجسادنا على حريتها واتخاذ مسكن لنا على كواكب أخرى أو بين الكواكب ؟ ما الذي سيمنعنا عن إعادة تنظيم الحياة كلها ، الذرّية ، والجُزيئيّة ، والمادّية ، والنَجميّة ، والقُدسيّة ؟ لماذا نتوقف عند الكلمات ، أو عند الكواكب ، أو عند القَداسة ؟ مَنْ هو أو ما هو الشيء الأقوى الجدير باجتثاث هذه الخميرة المُعجزة التي نحملها داخلنا كبذرة والتي ، بعد أن احتضنّا الكون كله في أذهاننا ، ليست أكثر من بذرة - ما دام أن لفظ كلمة كون هو بنفس سهولة لفظ كلمة بذرة ، ولا يزال أمامنا بعدُ الكثيرِ من الأشياء الأعظم

لنقولها ، أشياء تَعصى على اللفظ ، أشياء لا حدَّ لها ولا تُصدَّق ، أشياء لا يمكن لأية خِدعة لُغويَّة أن تحيط بها ورحت أقول لنفسي ، أنت يا مَنْ تستلقي هناك ، أين ذهب ذاك الصوت ؟ داخل أية شقوق حِبْريَّة inky Crevices تزحف بلامِسَاتك العُقَديَّة ganglionic feelers ؟ من أنت ، ما أنت الآن وسط صمتك المخدَّر ؟ أسمكة ؟ جَذْر إسفنجي ؟ هل أنتَ نفسك ؟ واذا سَحَقْتُ جمجمتك الآن فهل سيضيع كل شيء - الموسيقى ، والأبخرة المخدِّرة والـglissandos ، والجمل المعترضة القاسية ، والشخير البريابي[23] ، وقانون تناقص الغلَّة ، والحصى بين التمتمات ، والأستار التي تُسدِلها على جرائم مكشوفة ؟ إذا ثقبتُك بمثقاب ، هنا عند الصدغ ، هل سيخرج مع الدم توضيحٌ واحد مفهوم ؟

بعد دقائق سنكون في نوبليا . في غضون دقائق قليلة سيستيقظ مجفلاً ، ويقول « هه ، لا بد أني غفوت قليلاً » إنه دائماً يستيقظ مكهرباً ، وكأنما قُبِض عليه متلبِّساً بارتكاب جريمة قتل ، وهو يخجل اذا استغرق في النوم . وعند منتصف الليل يكون قد بدأ لتوِّه بالشعور باليقظة التامة . عند منتصف الليل يخرج ليجوس في أحياء غريبة بحثاً عمَّن يتحدث معه . ويكون الناس منهارين من التعب ، فيكهربهم حتى يصبحوا مستمعين منصتين . وبعد أن ينتهي يسحب الفيش ويرحل مع جهازه الصوتي المدسوس بأمان في حجابه الحاجز . ويجلس في الظلام على الطاولة ويحشو نفسه بالخبز والزيتون ، والبيض المسلوق جيداً ، مع سمك الرنكة وبنوعٍ أو آخر من الجبن ، وبينما هو يهضمه في وحدته يكلِّم نفسه ، ويحكي لنفسه حكاية ، يربت على صدره ، يذكِّر نفسه كي يتذكَّر أن يتذكَّر الحكاية في المرة القادمة ، بل وقد يغني لنفسه

أغنية صغيرة في الظلام أو إذا أخذه الوجد ، يقف ويقوم ببعض الحركات الدببيّة أو يتبوّل في سرواله ، ولِمْ لا ، إنه منفرد ، وسعيد ، أو حزين ، إنه كل ما يمكن ، بالنسبة لنفسه على الأقل ، ولمن معه أيضاً وما إلى ذلك ـ هل تراه ؟ أنا أراه بوضوح تام . الجو دافىء في أثينا الآن وقد استغلّه بقضاء أمسية عظيمة مع أقرانه . وآخر من قال له أسعدت مساء هو الآن في البيت يدوّن كل شيء في مفكرته ، ما دام ليس بين يديه غير هذه الصلة السمعيّة ، هذه الحياة الإضافية في بطن الحوت . الحوت يميل الى الوراء على الجدار تحت تعريشة دالية قرب المحراب الذي قضى فيه سقراط ساعاته الأخيرة . الحوت يبحث من جديد عن طعام وشراب ، محاولاً أن يختطفه من رجل يعتمر قبعة من طراز عام 1905 جُلِبَت بسلام من أميركا مع أغطية سرير رائعة ، وكراسٍ هزّازة ، ومباصق وفونوغراف ذي بوق. الفوتوغراف قائم على كرسي في الطريق وفي غضون لحظة سيزعق صوتٌ معلّب بأغنية سامّة من زمن الاحتلال التركي . . .

خلال بضع دقائق سنصل الى نوبليا . الحوت الآن مكهرب وذاكرته ، التي ربما انتعشت بتأثير الغفوة القصيرة ، تعمل بدقّة شيطانية على مُزَقٍ من التفاصيل التي كان أكسل من أن يدقّق فيها من قبل . الركاب ينزلون وقد جُرِفْنا وحُمِلْنَا كالفلّين الى مقدّم المركب . قرب الدرابزين ، الأول عند النزول ، وجدنا سجينين يقودهما عسكريين مسلّحين . كانا مصفّدَين معاً . وتخيّلت أنه ، أي كاتسيمباليس ، وأنا موثقين بالسلاسل معاً أيضاً ، هو الراوي وأنا المنصت ، وأننا سنظل هكذا حتى نهاية العالم ، ليس كسجينين بل كعبدين برغبتنا .

نوبليا في الليل موحشة مقفرة . إنها مكان أضاع انتباهه ، مثل آرل

أو آفينيون« ». والواقع، أنها من نواح عديدة توحي ببلدة ريفية فرنسية ، وعلى الخصوص في الليل . ثمة موقع عسكري ، وحصن ، وقلعة ، وكاتدرائية ـ وبضعة أنصاب مخبولة . وهناك أيضاً جامع حُوِّل الى سينما أثناء النهار تكون مسربلة باللون الأحمر ، حين ينتشر المحامون والقضاة في كل مكان ، مع كل اليأس والعقم اللذين يتبعان قطار هؤلاء الطفيليين مصّاصي الدّماء . الحصن والسجن يحتلان البلدة . والمحارب ، والسجّان والقسيس ـ الثالوث الأبدي الذي يرمز الى خوفنا من الحياة . لا أحب نوبلياً . لا أحب المدن الريفية . أمقتُ السجون ، والكنائس ، والحصون ، والقلاع ، والمكتبات العامة ، والمتاحف ، أو التماثيل الشعبية للموتى .

كان الفندق أشبه ببيت مجانين . في الرواق منحوتات لأشهر الآثار اليونانية ولهنود نهريْ الأمازون وأورنيكو . غرفة الطعام مغطّاة بكلمات كتبها سوّاح أميركيون وإنكليز ، كلها تطري وسائل الراحة في الفندق بلغة مبتذلة . أسخف الكلمات وقّع عليها أساتذة من جامعاتنا الشهيرة . في غرفة كاتسيمباليس سريران وفي غرفتي ثلاثة لم يكن الجو حاراً لأننا كنا الضَيفين الوَحيدَين .

استيقظنا باكراً واستأجرنا سيارة لتقلّنا الى أبيدوروس . بدأ النهار بسلام علويّ . وألقيت أول نظرة حقيقية على أرض بيلوبونيزيوس . لم تكن مجرد نظرة ، بل مشهد ضيّق ينفتح على عالم ساكن هادىء كالذي سيرثه الانسان ذات يوم حين سيكفُّ عن الانغماس في الجريمة والنهب . أتعجّب كيف لم يمنحنا رسّام واحد سحر هذا المشهد الرعوي . هل هو مُغرَق في اللا مأساوية ، مغرق في الغنائية الرعوية ؟ هل النور من الأثيريّة بحيث تِعجز الريشة عن أسره ؟ أقول هذا ، وربما سيحبط

كلامي الفنان الفائق الحماس . لا أثر للبشاعة هنا ، لا في الخط ، ولا اللون ، أو الشكل أو القسمات أو العاطفة . إنه كمال صافٍ ، كما في موسيقى موتسارت . بل وأغامر بالقول ، حقاً ، إنه يوجد هنا من طابع موتسارت أكثر مما في أي مكان آخر في العالم الطريق الى أبيدوروس تشبه الطريق إلى الخَلْق يتوقف المرء عن البحث ، ويزداد صمتاً ، يجمِّده سكون البدايات الغامضة . ولو أمكنه أن يتكلّم لقال نغماً . ليس ثمة ما يُمْسَك أو يُكْنَزْ أو يُخْفَى حَرجاً هنا . لا يوجد سوى انهيار الجدران التي تحبس الروح . المشهد لا يتراجع إنه يترسَّخ في الأماكن المفتوحة من القلب ، يحتشد هناك ، يتراكم ، يَطَّرِد . أنت لم تعد تَعْبُر شيئاً ما ـ سَمِّهِ طبيعة ، إن شئت ـ بل تشارك في شق طريق ، طريق مؤلفة من قوى الطمع ، والحقد ، والحسد ، والأنانية ، والاحتقار والتعصُّب ، والغرور ، والغطرسة والمكر ، والنفاق وما إليها

إنه صباح أول يوم من السلام العظيم ، سلام القلب ، الذي يحلُّ مستسلماً . لم أعرف أبداً معنى السلام إلى أن وصلت إلى أبيدوروس . طالما استعملت هذه الكلمة طوال حياتي ككل الناس ، دون أن أدرك مرة واحدة أني استخدم كلمة زائفة . السلام ليس نقيض الحرب بقدر ما الموت ليس نقيضاً للحياة . إن بؤس اللغة ، أي بؤس خيال الانسان أو بؤس حياته الداخلية ، قد أوجد تعايشاً متناقضاً زائفاً تماماً . إنني أتحدث طبعاً عن السلام الذي يتجاوز كل فهم . ولا وجود لغيره . السلام الذي يعرفه معظمنا هو مجرد توقُّف العداءات ، هدنة ، فترة انقطاع ، هدهدة ، إرجاء ، وهو سلبي . سلام القلب إيجابي لا يُقهَر ، لا يضع شروطاً ، لا يطلب حماية . إنه فقط موجود . إن كان نصراً فهو نصر خاص لأنه قائم برمَّته على الإستسلام ، إستسلام طوعيّ ؛ على

وجه التأكيد . إن طبيعة المداواة التي طُبِّقت في هذا المركز العلاجي للعالم العتيق لا تخفَى عليّ . فالمداوى نفسه عولج هنا ، وهذه أول وأهم خطوة في تطوُّر الفن ، وهي ليست طبيَّة بل دينيَّة . ثانياً ، إن المريض كان يشفى قبل أن يتلقَّى العلاج بزمن طويل . لطالما تحدَّث الأطباء عن الطبيعة بوصفها الشافي الأعظم ، وهذا صحيح جزئياً . فالطبيعة وحدها لا يمكنها عمل شيء . لا تشفي الطبيعة إلا حين يعرف الإنسان مكانه في العالم ، وهو ليس في الطبيعة ، كما بالنسبة للحيوان ، بل في المملكة البشرية ، وهي صلة الوصل بين الطبيعي والقدسي .

تبدو الشعائر والعبادات المتَّصلة بفن الشفاء المتداول في أبيدوروس للعيِّنات الانسانية المتدنِّية لهذا العصر العلمي الذي أدركه الظلام هراءاً بحتاً . في عالمنا يقود الأعمى نظيره الأعمى ، والمريض يذهب للمريض ليشفيه . إننا نحرز تقدُّماً مستمراً ، لكنه تقدُّمٌ يؤدي إلى طاولة العمليات ، الى مأوى العجزة ، إلى مصح المجانين ، إلى الخنادق . ليس لدينا شافون ـ لدينا فقط جزَّارون معرفتهم بالتشريح تؤهلهم لنيل الدبلوم وهذا بدوره يؤهلهم ليقطعوا أو ليبتروا عُضْوَنا المريض بحيث نستمر في الحياة معاقين إلى أن يأتي وقت نصلح فيه للإلتحاق بالمسلخ . إننا نعلن عن اكتشاف هذا العلاج أو ذاك دون أن نذكر الأمراض الجديدة التي ابتكرناها على الطريق . إن الفرقة الطبية تعمل بالضبط كوزارة الحربية ـ فكل الانتصارات التي يذيعونها هي استرضاءات تُنْشَر لإخفاء الموت والكارثة . والأطباء ، كالسلطات العسكرية ، عاجزون ، يشنون قتالاً ميؤوساً منه منذ البداية . إن ما يريده الإنسان هو السلام الذي يعينه على العيش ودَحْرُ جارنا لا يمنحنا السلام إلا بقدر ما تعيد معالجة السرطان الصحة للمريض . الإنسان لا يبدأ

بالعيش من خلال الانتصار على عدوِّه ولا يبدأ باستعادة صحته من خلال العلاجات التي لا تنتهي . فرحُ الحياة يأتـي من السـلام ، وهـو ليس جامداً بل فعّالاً   لا يمكن لأي إنسان أن يدّعي معرفـة الفـرح إلى أن يمارس السلام . وبلا فرح لا وجود للحياة ، حتى وإن كنت تملك دزينة سيارات ، أو نصف دزينة من الخدم ، وقلعة ، وكنيسة خاصة بك وقبّة مضـادّة للقنابـل . أمراضنـا هي علاقاتنـا ، سواء كانـت على شكل عادات ، أيديولوجيات ، مثل عليا ، مبادىء ، ممتلـكات ، رهّابات Phobias ، آلهة ، عبادات ، أدّيان ، أو كل ما تشاء . يمكن للأجور الجيدة أن تكون بلاءاً كالأجور المجحفة . ووقت الفراغ يمكن أن يكون داءاً عضالاً كالعمل . وكل ما نتعلّـق به ، حتـى وإن كان أمـلاً ، أو إيماناً ، يمكن أن يكون داءاً يبيدنا . الإستـسلام مطلق : إذا تعلّقت ولو بكسرة خبز صغيرة فإنك تُنَمِّي الجرثومة التي ستفترسك . أما بالنسبة للتعلّق بالله ، فالله قد تخلّىٰ عنا منذ زمن بعيد على أمل أن ندرك متعـة بلوغ الألوهية بجهودنا الخاصة   كل هذا الأنين الدائر في الظلام ، هذا الإستجداء الملحّ ، التافه للحصول على السلام الذي سيتضخّم بازدياد الألم والبؤس ، أين يوجد ؟ أقصد السلام ، هل يتصور الناس أنه شيء يجب خزنه ، كالذرة والقمـح ؟ هل هو شيء يمـكن الانقضـاض عليه وافتراسه ، كما تَقْتَتِل الذئاب على جيفة ؟ أسمع الناس يتحدثون عن السلام ووجوههم مكفهرّة من الغضب أو الحقد أو الإزدراء والترفّع ، من الغرور والغطرسة . ثمة أناس يريدون القتال لإحـلال السـلام ـ إنهم أكثر الأرواح ضلالاً   لن يحلّ السلام إلى أن نلغـي الجريمـة من القلب والعقل . الجريمة هي قمة أهرام عريض قاعدتـه الـذات . من يقف سيقع   وكل ما حارب الإنسان لأجله سيتخلّى عنه قبل أن يبـدأ بالعيش كإنسان . لقد ظل حتى الآن وحشاً مريضاً وكانت حتى قداسته

تفوح نتانة . إنه سيد العديد من العوالم وعبدٌ في عالمه . القلب هو حاكم العالم ، لا العقل في كل مجال لا تجلب إنتصاراتنا إلا الموت . لقد أدرنا ظهورنا للعالم الوحيد الذي تكمن فيه الحرّية . في أبيدوروس ، وسط السكون ، والسلام الأعظم الذي حلَّ عليَّ ، سمعت قلب العالم يخفق ؛ أنا أعرف ما هو العلاج إنه الانسحاب ، التخليّ ، الاستسلام ، فلتظل قلوبنا الصغيرة تخفق بانسجام مع قلب العالم العظيم

أعتقد أن الحشود العظيمة التي قامت برحلتها الطويلة إلى أبيدوروس من كل أنحاء العالم القديم كانت قد شفيت لتوِّها وقبل وصولها إلى هناك . فكَّرت وأنا جالس في المدرَّج الروماني الصامت بشكل غريب بالطريق الطويلة الملتوية التي أوصلتني أخيراً إلى مركز السلام الشافي هذا . ما كان لرجل أن يختار رحلة أكثر مواربة من رحلتي . تجوَّلت أكثر من ثلاثين عاماً ، وكأنما في متاهة . تذوَّقت كل المتع ، وكل يأس ، لكنني لم أعرف معنى السلام . في الطريق هزمت كل أعدائي واحداً ثرَ آخر ، أما أعدى أعدائي قاطبة فلم أتمكن حتى من تمييزه - إنه نفسي . حالما دخلت المدرج الساكن ، وقد اغتسلت الآن بالنور الرخامي ، أتيت إلى تلك البقعة من قلب المركز حيث تتصاعد أوهى الهمسات كتغريد عصفور سعيد وتتلاشى عبر كتف التل المنخفض ، بينما يتراجع ضوء نهار صاف أمام السواد المخملي للَّيل . وما كان لبالبو Balboa (1) الواقف على ذروة جبل دارين Darien أن يتعرَّف على معجزة أعظم من التي أنا فيها الآن . لم يعد هناك ما يُقهَر . ثمة فقط محيط من السلام يترامى أمامي . وكما عرفت ، فأن أكون حراً كان يعني أن أدرك أن كل نصر هو عبث ، حتى الإنتصار على النفس ، وهو

آخر عمل تقوم به الذات الأنانية . أن تكون مبتهجاً يعني أن تحمل الأنا إلى آخر ذروة وتهبها بانتصار . إن إدراك السلام كُليٍّ هو اللحظة الآتية ، حين يكتمل الإستسلام، حين لا يبقى حتى وعي الاستسلام . السلام موجود في المركز وحين يتم الحصول عليه تتصاعد الأصوات بالتسبيح والتبريك . ثم ينتقل الصوت ممتداً وعريضاً ، إلى آخر حدود الكون . آنئذٍ يُشفي ، لأنه يجلب النور ودفء الرأفة .

أبيدوروس هي مجرد رمز مكان . مكانها الحقيقي في القلب ، في قلب كل إنسان ، إذا ما توقف وبحث فيه . كل اكتشاف غامض من حيث أنه يكشف عن كل ما يتَّصف بآنيَّة مفاجئةٍ جداً ، شديدُ القرب ، ومعروف بألفة شديدة ومنذ زمن بعيد . لا حاجة للحكيم أن ينطلق مرتحلاً ؛ الأحمق فقط يبحث عن جرَّة الذهب عند طرف قوس القزح ، لكن الإثنين مقدَّر لهما أن يتقابلا ويتَّحدا . يتقابلان في قلب العالم ، وهو بداية الدرب ونهايته . يتقابلان في الإدراك ويتَّحدان في سموِّ دربيهما

العالم شاب وعجوز في وقت واحد : كالفرد ، يجَدِّد نفسه بالموت ويشيخ بولادات لا نهائية . عند كل مرحلة إمكانية للإنجاز . والسلام يكمن عند أية نقطة على طول الخط . إنه سلسلة متَّصلة ، متماسكة بالتفرُّد كتماسك الخط بتراصٍّ نقاط مع بعضها . فلكي تصنع خطاً يتطلَّب الأمر اكتمالاً في الكيان ، والإرادة والخيال . ويمكن للمرء أن يتأمل إلى الأبد بما يؤلف الخط ، وهذه ممارسة ميتافيزيقية . ولكن حتى الأبله يمكن أن يرسم خطَّاً ، وبهذا يتساوى وأستاذ الجامعة الذي يرى أن طبيعة خط ما هي سرٌّ مغلق يقع ما وراء كل فهم

إن سيادة أمور عظيمة ينجم عن القيام بالتوافه ، فالرحلة القصيرة

بالنسبة للأرواح الرعديدة لها نفس روعة الرحلة الكبيرة بالنسبة للعظماء . الرحلات تُقَام داخلياً ، وأكثرها مخاطرة ، ولا داعي لقول هذا ، تُنَفَّذ دون التزحزح من المكان . لكن حس الترحال يمكن أن يخبو ويموت . فهناك مغامرون ينفذون الى أقصى بقاع الأرض ، جارّين الى هدف عقيم جثّة مفعمة بالحياة . الأرض تعج بالأرواح المغامرة التي تملأها بالموت . هذه هي الأرواح ، المنشغلة بتحقيق النصر ، التي ملأت الأروقة الخارجية للفضاء بالصراع والتشاحن والذي يُضفي الصيغة الوهمية على الحياة هو عرضُ خيال الظل الرديء القائم بين الغول والشبح . والرعب والفوضى اللذان يقبضان على روح المسافر هما تردُّدات الصَخَب الذي يخلقه الضائعون والملاعين .

***

بينما كنت أتشمّس على درج المدرّج خطر لي فطرياً أن أرسل كلمة تحية إلى أصدقائي . فكّرت خاصة بأصدقائي المحلّلين النفسانيين . أرسلت ثلاث بطاقات ، واحدة لفرنسا وواحدة لانكلترا ، وواحدة لأميركا . رحت أستحثُّ ، وبكل رقّة ، هؤلاء المبتذلين المنهارين الذين يسمّون أنفسهم شافين ليتخلّوا عن عملهم ويأتوا إلى أبيدوروس للشفاء . وثلاثتهم كانوا بحاجة ماسّة للفن الشافي - إنهم منقذون عاجزون عن إنقاذ أنفسهم . أحدهم انتحر قبل أن تصله تحيتي ، وآخر مات بسكتة قلبية بعد استلام بطاقتي بوقت قصير ، والثالث أجاب باختصار قائلاً إنه يحسدني ويتمنى لو كانت لديه الشجاعة لترك عمله .

إن المحلل النفساني أينما كان يخوض قتالاً يائساً . فمقابل كل فرد يعيده إلى مجرى الحياة ، أو « يكيِّفه » ، كما يقال ، ثمة دزينة من اللامتكيّفين . ولن يكون هناك أبداً ما يكفي من المحللين ليقوموا بالمهمة ، مهما أسرعنا في تحضيرهم . تكفي حرب قصيرة واحدة لتحطّم

عمل قرون . وطبعاً ستحقق الجراحة تقدُّماً جديداً ، مع أنه من الصعب التنبُّوء بمبلغ فائدة هذا التقدم . يجب تغيير طريقة حياتنا كلها . لا نريد تطبيقات جراحية أفضل ، نريد حياة أفضل . لو أن كل الجراحين ، كل المحللين ، كل الأطباء ينسحبون عن نشاطهم ويجتمعون معاً لفترة قصيرة ليستريحوا في مدرَّج أبيدوروس ، لو أمكنهم أن يناقشوا بهدوء وسكينة الحاجة المُلحَّة ، المتطرفة للانسانية بمجملها ، لأنبثق الجواب بسرعة ، ولكان إجماعيّاً : ثورة ، ثورة تشمل أطراف العالم من أعلاه إلى أدناه ، في كل بلد ، في كل طبقة إجتماعية ، في كل مجال للوعي . الصراع ليس ضد المرض : المرض نتيجة ثانوية . وعدو الإنسان ليس الجراثيم ، بل الإنسان نفسه ، غروره ، تحاملاته ، غباؤه ، غطرسته . لا طبقةَ إجتماعية منيعة ، لا نظاماً يحوي الدواء العام . على كل فرد وحده أن يثور ضد طريقة الحياة التي ليست له . ولكي تكون الثورة فعَّالة يجب أن تكون مستمرة ولا تعرف الرحمة . ولا يكفي الإطاحة بالحكومات ، والسادة ، والطغاة : على المرء أن يطيح بأفكاره المتوارثة حول الخطأ والصواب ، حول الخير والشر ، والعدل والظلم . علينا أن نتخلّىٰ عن خنادق القتال الضارى التي غرزنا أنفسنا فيها ونخرج إلى الهواء الطلق ، نسلِّم أسلحتنا وممتلكاتنا ، وحقوقنا كأفراد ، وطبقاتنا الإجتماعية ، ودولنا وشعوبنا . ولا يمكن لبليون إنسان يفتشون عن السلام أن يُستَعبَدوا. لقد استَعبَدنا أنفسنا بنظرتنا الحقيرة المحدَّدة الى الحياة . جليلٌ أن نقدِّم حياتنا من أجل هدف ، أما الموتى فلا ينجزون أى شيء . الحياة تتطلَّب منا أن نقدِّم المزيد ـ الروح ، النفس ، الذكاء والنيَّة الطيبة . الطبيعة دائماً على استعداد لترميم الثغرة التي سبَّبها الموت ، لكن الطبيعة لا يمكنها أن تزودنا بالذكاء ، والإرادة ، وقوة الخيال لنقهر قوى الموت . الطبيعة تخزِّن وترمِّم ، لا

أكثر . ومهمّة الإنسان أن يستأصل الغريزة المميتة ، اللامحدودة في تشعباتها ومظاهرها . لا فائدة من مناشدة الله ، كما أنه من العقم مقابلة قوة بقوّة . كل معركة هي زواج مسربل بالدم والألم ، وكل حرب هي هزيمة للروح الإنسانية . ما الحرب إلا استعراض هائل على النمط الدرامي للصرعات الصوريّة ، الجوفاء ، المثيرة للسخرية التي تحدث يومياً في كل مكان وحتى أثناء ما يسمّى بأوقات السلم . كل إنسان يساهم في استمرار هذه المجزرة ، حتى أولئك الذين يبدو عليهم منعزلين كلنا متورطون ، كلنا مشاركون طوعاً أو كرهاً . الأرض هي خلقنا ويجب أن نقبل ثمار خلْقِنَا . وما دمنا نرفض التفكير بلغة خير العالم وخيرات العالم ، بنظام العالم ، بسلام العالم ، فسنظل نخدع ونقتل بعضنا بعضاً . ويمكن أن يستمر هذا حتى يوم القيامة ، إذا أردنا له . لا شيء يمكن أن يُوجِدَ عالماً جديداً وأفضل إلا رغبتنا فيه . الإنسان يقتل خوفاً ـ الخوف أفعوان متعدد الرؤوس . وما إن نبدأ بالذبح فلن نكفَّ عنه . ولن تكفي الأبدية لإبادة الشياطين الذين يعذبوننا . مَنْ وضع الشياطين هناك ؟ هذا سؤال على كل منا أن يطرحه على نفسه . ليفتِّش كل إنسان في قلبه . لا الله ولا الشيطان هو المسؤول ، وطبعاً ليس أيّاً من الوحوش السقيمة كهتلر ، وموسوليني، وستالين، et alia (*) ولا بعابع مثل الكثوليكية ، والرّأسمالية ، والشيوعية . مَنْ وضع الشياطين في قلوبنا لتعذّبنا ؟ سؤال جيد ،وإذا كانت الطريقة الوحيدة للإجابة هي الذهاب إلى أبيدوروس ، إذن أستحثّكم جميعاً على أن تتركوا كل شيء وتذهبوا إلى هناك ـ فوراً .

في اليونان يؤمن المرء بأن العبقرية هي قاعدة سلوك وليست براعة

(*) أي بكلمة اخرى .

متوسطة . ولم يقدّم أى بلد ، بالنسبة لعدد سكانه ، من العباقـرة كما قدّم اليونان . فخلال قرن واحد أعطت هذه الأمة الصغيرة للعالم حوالي خمسمائة عبقري . فنّهـا ، الـذي يعـود إلى خمسـين قرنـاً ، أبـديّ ولا يُجاري . ويبقى منظرها الطبيعي هو أكثر المناظـر التـي تمنحهـا أرضنـا إسعاداً ، وأكثرها إثارة للعجب . لقد عاش سكان هذا العالم الصغير في تناغم مع محيطهم الطبيعي وغذّوه بالآلهة الحقيقية وعاشوا معهـم في مشاركة حميمة . الكون اليونانـي هو أفصـح صورة عن وحـدة الفـكر والعمل . وهو مستمر حتى اليوم ، رغم أن عناصره الأولية قد تبدّدت منذ زمن طويل . ورغم تلاشي صورة مثال اليونان ، إلا أنهـا تستمـر باعتبارها النمـوذج الأصلي للمعجـزة التـي صنعتهـا روح الانسـان . وارتقى الناس كلهم فيها ، كما تشهد بقايا إنجازاتهـم ، إلى نقطـة لم يبلغها أحـد قبلهـم وبعدهـم كانـت معجـزة . ولا تزال . ومهمـة العبقري ، والإنسان لا شيء إنْ لم يكن عبقرياً ، هي أن يُبقي المعجزة حية ، أن يعيش دائماً في المعجزة ، أن يجعل المعجزة معجزة أكثر فأكثر ، أن لا يقسم بالولاء لأى شيء ، بل يعيش بشكل معجز فقط ، ولا يفكر إلا بإعجاز ، ويموت بإعجاز . ولا يهم إلا قليلاً جداً مقدار التدمير ، هذا إذا فهمت جرثومة المعجز وحُفِظَت وغُذِّيتَ . في أبيدوروس تُجَابه ويتخلّلك المتخلّف اللامُدْرَك من الموجة المعجزة للروح الإنسانية . إنه يغمرك كرذاذ موجة جبّارة تحطّمت أخيراً على أبعد شاطىء . واليوم يتركّز انتباهنا على الجانب المادي الذي لا ينضب من الكون ، يجب أن نركز كل تفكيرنا على تلك الحقيقة الصلبة ، لأنه لم يسبـق للإنسـان أن سُلِـبَ وخرّب إلى الدرجة التي وصل إليها اليوم . لذا نميل لنسيان أنه في عالم الروح أيضاً نبع لا ينضب ، وأن في هذا العالم لا يضيع أي كسب . وحين يقف المرء في أبيدوروس يعلم أن هذه حقيقة . بالخبث والاحتقار

قد يتقوض العالم ويتحطم ، أما هنا ، ومهما كان هول الإعصار الذي نطلق فيه إنفعالاتنا الشريرة ، توجد منطقة سلام وهدوء ، هي ميراث نقيّ مقطّر من الماضي لم يضع كله .

إن كانت أبيدوروس توحي بالسلام فمسينا ، الهادئة الساكنة ظاهرياً ، توقظ أفكاراً ومشاعر مختلفة تماما . في تيرينس تعرّفت قبل هذا بيوم على العالم السيكلوبيّ . دخلنا إلى أطلال ما كانَ ذات مرة قلعة حصينة من خلال فتحة تشبه الرحم ، إن لم يكن الذين فتحوها من البشر المتفوقين ، فهم حتماً آلهة . كانت جدران الرحم ملساء كالمرمر ، لُمّعت بلبّادة سميكة من الصوف ، فأثناء فترة الظلام الطويلة التي خيّمت على هذه المنطقة كان الرعاة يجلبون قطعانهم الى هنا طلباً للملجأ . تيرينس في سماتها تنتمي الى ما قبل التاريخ . ولم يبق ممّا كان ذات مرة مستقرّاً رائداً رائعاً إلا القليل جداً من الاستحكامات العملاقة . لا أعلم لماذا آلت إلى هذا المآل إلا أنها تبدو لي ، في الروح على الأقل ، تسبق في الزمن ملاجىء منطقة الدوردون الكهفية . يشعر المرء أنه طرأت على البقعة تغيرات عميقة . ولعل تيرينس كانت مقامة على مرمى حجر من كريت خلال الفترة المينوية ؛ فإذ صحّ هذا ، فإن الروح قد مرت بتحولات عميقة ، كأرض الجزيرة نفسها . لم تعد جزيرة تيرينس تشبه كنوسوس[26] ، مثلاً ، إلا بقدر ما تشبه نيويورك روما أو باريس . إن تيرينس تمثل فكرة انتكاس ، تماماً كما تمثل أميركا أوروبا بأكثر جوانبها إنحطاطاً . كريت في الحقبة المينوية تمثل حضارة أساسها السلام . أما تيرينس فتفوح قسوة ، وبربرية ، وريبة ، وعزلة . إنها أشبه بخلفية يضعها هـ . جـ ويلز لمسرحية من فترة ما قبل التاريخ ، أو لحرب من ألف عام بين عمالقة بعين واحدة وديناصورات متخبّطة الخطى .

ميسينا ، التي تلي تيرينس زمناً ، هي مشهد مختلف تماماً . سكونها الحالي يشبه استنزاف وحش ضارٍ ذكي طُعِنَ حتى الموت . ميسينا ، وهنا أعطي من جديد إنطباعاتي وحدوسي الخاصة فقط ، تبدو كأنها مرت بدورة هائلة من الإزدهار والإنحلال . كأنها تقع خارج الزمن ، بكل معنى تاريخي . والسلالة الأيجيّة نفسها التي حملت البذور الثقافية من كريت الى تيرينس هنا قد ارتقت ، بطريقة ما غامضة ، إلى عظمة إلهية ، ونثرت نتاجاً سريعاً من الأبطال ، والعمالقة ، وأنصاف الآلهة ، ومن ثم انتكست ، وكأنما استنزفها وبهرها ازدهار لا مثيل له وشبه قدسي ، إلى صراع داخلي مظلم ودموي ، دام قروناً طويلة ، منتهية عند نقطة هي من البعد حتى لتبدو أسطورية لخلفائهم . في ميسينا وطأت الآلهة الأرض مرة ، ولا مجال للجدال في هذا . وفي ميسينا أنتجت سلالة هؤلاء الآلهة أنفسهم نوعاً من الرجال عاشقاً للفن حتى اللب وفي الوقت نفسه عملاقاً في انفعالاته . كان فن العمارة سيكلوبياً ،[27] والزخارف من الرهافة والجمال حتى لا يوجد ما يجاريها في أية فترة فنية . كان الذهب وافراً ومستَخدَماً بسخاء . كل ما في المكان متناقض . إنه أحد سُرَرْ الروح الإنسانية ، هو مكان متّصل بالماضي ومنقطع عنه إنقطاعاً تاماً أيضاً . يكتنفه جوّ لا يُقْتَحَم حالك ، مُحبِّب ، مغوي ومُنفِرْ . إن ما حدث هنا يتجاوز كل حدس . لقد نسج المؤرخون وعلماء الآثار نسيجاً مهلهلاً غير مقنع ليخفوا اللغز . إنهم يرمّون قِطَعَاً صغيرة جنباً إلى جنب بطريقة تقليدية لتلائم منطقهم الفقير . لم ينْفَذْ أحد حتى الآن إلى سر هذا المشهد الجليل . إنه يتحدّى التقدُّم الضعيف للعقل الذكي . ويجب أن ننتظر عودة الآلهة ، إحياء الملكات الشخصية التي ترقد الآن في سبات .

***

كان يوم أحد حين غادرت وكاتسيمباليس نوبليا إلى ميسينا . كانت الساعة قد قاربت الثامنة حين وصلنا إلى المحطة الصغيرة التي تحمل هذا الإسم الأسطوري . وحين عبرنا آرغوس اخترق سحر هذا العالم فجأة أحشائي . وتدانت أشياء منسية منذ زمن بعيد بجلاء مخيف . لم أكن متأكداً إن كنت أستعيد ذكرى أشياء قرأتها وأنا طفل أو كنت أقطّر ذاكرة السلالة الكونية . وبدا كون هذه الأماكن لا تزال موجودة ، لا تزال تحمل أسماءها العتيقة نفسها ، أمر لا يصدّق . كأنه انبعاث وكان اليوم الذي اخترناه للقيام بالرحلة أشبه بيوم الفصح منه بيوم تقديم الشكر . ومن المحطة إلى منطقة الأطلال امتدت مسافة عدة كيلومترات من المشي . وكما في أبيدوروس كان السكون العلوي يشمل المنطقة كلها . مشينا الهوينا إلى التلال المستديرة الناهضة من سهل آرغيف البراق . وزقزقت بعض العصافير فوقنا في القبةالزرقاء المتماسكة. وفجأةصادفنا صبياً صغيراً يبكي وكأن قلبه يكاد يتحطم . كان يقف في الحقل قرب الطريق ولم يكن لبكائه أية علاقة بالعالم الصامت الهادىء الذي يقف فيه ، وكأن مَنْ وضعه في الحقل الأخضر هي روح من العالم الخارجي . ما الذي يمكن أن يُبكى هذا الولد الصغير في مثل هذه الساعة في عالم رائع كهذا ؟ وذهب كاتسيمباليس وتحدث معه كان يبكي لأن أخته سرقت نقوده كم من النقود ؟ ثلاث دراخمات . نقود ، نقود . . . حتى هنا يوجد ما يسمى بالنقود . ولم تبدُ لي كلمة نقود تحمل كل هذا القدر من الإستحالة من قبل . كيف يمكن للمرء أن يفكر بكلمة مثلها في عالم الرعب والجمال والسحر هذا ؟ لو أنه أضاع حماراً أو ببغاءاً لقدّرت موقفه . أما ثلاث دراخمات إنني ببساطة لم أستطع تصور معنى ثلاث دراخمات . لم أصدق أنه يبكي . إنها هلوسة . دعه

واقفاً مكانه يبكي ـ ستأتي الروح وتأخذه ثانية ، فهو لا ينتمي . إنه كيان غريب

بعد أن تعبر النُزُل الصغير المار بأغامنون وزوجته والـذي يواجـه حقلاً بخضرة أيرلندية ، سرعان ما تدرك أن الأرض مبـذورة بأجسـاد وجثث أسطورية حتى قبل أن فتح كاتسيمباليس فمـه عرفـت أنهـم منتشرون في كل مكان حولنا ـ الأرض تخبرك بهذا . إن الإقتـراب من المكان المرعب مغرٍ بشكل مذهل ، فثمـة الروابـي الملسـاء المخضرّة ، والأكمات والهضاب الصغيرة ، ومرتفعات ترابية في كل مكان ، وتحتنا ، ليس عميقـاً جداً ، يستلقـي المحاربـون ، والأبطـال ، والمبدعـون الخرافيون الذين أقاموا بلا آليات أروع التحصينات . إن نوم الموتى هو من العمق بحيث إن الأرض وكل من يمشي عليها يحلمون ، حتى الطيور الطائرة التي تأكل لحم الجيف تبدو مخدّرة ومنوّمة . وبينما يرتفع المرء على مهل مع ارتفاع المنطقة يتكثّف الدم ، والقلب يبطىء حركته ، ويستقر الذهن باستحواذ على صورة من الإغتيالات تثير الرعدة في الجسد . ثمة عالمان مميزان يصطدمان معاً ـ عالم النهار البطولي وعالم الخنجر والسم النُسْكي . ميسينا ، كأبيدوروس ، تسبح في النور . لكن أبيدوروس مفتوحة كلها ، مكشوفة ، مسخّرة أبداً للروح . ميسينـا تنطـوي على نفسها ، كَسُرّة مقطوعة حديثاً ، تجرّ مجدها أسفـلاً إلى أحشـاء الأرض حيث تقتات عليه الخفافيش والسحالي برضىً وحبور . أبيدوروس وعاء تشرب منه الروح النقية : فيـه زرقة السماء والنجوم والمخلوقات ذوات الأجنحة التي تطير بينها تنثر الأغنية والنغم . بعد أن يلوي المرء الثنية الأخيرة ، تنطوي ميسينا فجأة في ربُوضٍ مهدَّد ، متجهّمة ، جريئة . ميسينا منغلقة ، متكوّمة ، مجدولة بالتواءات عضلية كالمصارع . حتى النور الذي يغمرها بوضوح لا يرحم ، يغوص فيها ، يتحول ، يصبح

رمادياً ، يحاط بشريط . لم يكن ثمة عالمان شديدا القرب من بعضهما ومتضادان مثلهما . إنها غرينتش هنا بالنسبة لكل ما يخص النفس الإنسانية . انتقل بمقدار سُمْك شعرة لأي من الجهتين وستكون قد انتقلت إلى عالم مختلف كلّياً. هذه كتلة الرعب العظيمة الساطعة ، المنحَدَر العالي عليه انزلق الانسان إلى الوراء ، بعد بلوغ ذروته ، وسقط في الهوة التي لاقرارة لها .

كان الصباح ما يزال باكراً حين تسلّلنا خلال بوابة الأسد . لا أثر لحارس في المكان . لا مخلوق في الأفق . الشمس تسطع بثبات وكل شيء مكشوف للنظر . ومع ذلك نتقدم خائفين ، حذرين ، لا نعرف مم . وهنا وهناك حفر مفتوحة تبدو ملساء لزجة بشكل خطر . مشينا بين قطع ضخمة من الأحجار التي تشكل المنغلق الدائري . معرفتي الكتبية صفر . أستطيع النظر الى هذه الكتلة من كسارة الأحجار بعينيّ انسان متوحش . أنا منذهل أمام المقاييس الشديدة الصغر لغرف القصر ، ولأماكن الإقامة في الأعالي . أية جدران عملاقة لمجرد حماية حفنة من الناس ! أكان كل واحد من السكان عملاقاً ؟ أية ظلمة مريعة هبطت عليهم في أيام نحسهم حتى جعلتهم يندثرون في الأرض ، ويخفوا كنوزهم عن الضوء ، ليَقتلوا قتلاً سفاحاً في أحشاء الأرض العميقة ؟ نحن من العالم الجديد ، ذي ملايين الفدادين البور وملايين غيرها لم تُطْعَم ، لم تُغْسَل ، لم تُحْمَى ، نحن يا من نحفر في الأرض ، يا من نعمل ، نأكل ، ننام ، نحب ، نمشي ، نركب ، نقاتل ، نشتري ، نبيع ونقتل هناك تحت الأرض ، هل سنؤول إلى نفس المآل ؟ أنا مواطن من نيويورك ، أكبر وأكثر مدن العالم خواءً ، أقف الآن في ميسينا ، أحاول أن أفهم ماذا حدث هنا طوال كل تلك القرون . أحس كأني صرصار أزحف وسط أُبهّات مفككة . يصعب عليّ تصديق أنه في

مكانٍ ما من الماضي وسط أوراق وأغصان شجرة الحياة العظيمة النَسَبية عرفَ أجدادي هذه البقعة ، وسألوا الأسئلة نفسها ، وسقطوا بلا حس في الفراغ ، وابتُلِعُوا دون أن يتركوا أثراً لفكرٍ عدا هذه الأطلال ، والرفات المبعثرة في المتاحف ، سيف ، فأس ، خُوَذ ، قناع الموت من ذهب مطروق ، ضريح على شكل خلية نحل ، أسدَ ترحابٍ منحوت من حجر ، وعاء خمر ممتاز . أقف على قمة قلعة مسوَّرة وفي الصباح الباكر أحس بقدوم النسيم البارد من الجبل الرمادي المشوّش الشامخ فوقنا . إلى أسفل ، يرتفع الضباب من سهل آرغف العظيم يمكن أن تكون مدينة بوبيلو ، في كولورادو وقد نزعت برمتها من الزمان والمكان . وهناك في الأسفل ، في ذاك السهل المتبخّر حيث يزحف الأوتومتريس كالبرقة ، أليس ممكناً أنه أقيمت ذات مرة خيام الويغوام ؟ أأستطيع التأكد من أنه لم يكن هنا أي هنود ؟ إن كل ما له صلة بأرغوس ، الوامضة بخفوت الآن على هذه الرقعة المنبسطة كما في رسوم الكتب المدرسية الرومنطيقية ، يفوح بقوة بنكهة الهنود الأميركيين لا بد أن أكون مجنوناً كي أفكر هكذا ، لكني من الإخلاص بحيث أقبل بالفكرة . آرغوس تسطع باللمعان ، نقطة ضوء تقذف سهاماً من ذهب إلى الزرقة . آرغوس تخص الأسطورة والخرافة . لا يتّخذ أبطالها أبداً شكلاً إنسانياً . لكن ميسينا ، كتيرنيس ، مأهولة بأشباحِ رجال ما قبل الطوفان ، بوحوش سيكلوبيين جُرِفوا من شواطىء أطلانتس الغارقة . كانت ميسينا هي أول فكرة ثقيلة الخطى ، بطيئة ، متمهِّلة ، متأملة متجسِّدة في أحجام ديناصورية ، حربٌ نشبت بترفِ أكل لحم البشر ، زاحفة ، رابطة الجأش ، مدوِّخة ودائخة . ميسينا دارت دورة كاملة ، من نسيان إلى نسيان . وافترس الوحوش بعضهم بعضاً ، كالتماسيح . والإنسان وحيد القرن خرقَ بقرنه الإنسان فرس البحر . وانهارت

الأسوار عليهما ، سحقتهما ، مسحتهما حتى صارا نزّاً بدائياً . ليلة قصيرة بروق تومض متوهجة ، ورعد يدكّ ما بين أكتاف التلال القوية النسور انطلقت محلّقة ، والسهل كُنّس ، والعشب صوّب سهامه . (هذا كلام ولد بروكلن . لا يحوي كلمة صحيحة واحدة ، إلى أن تأتي الآلهة بالبرهان) والنسور ، والصقور ، والنسور ذات المناقير المدوّرة ، رمادية من النَهَمْ كسفوح الجبل المجدبة الجافة . الهواء يعجّ بالكنّاسين(*) المجنّحين . صمت ـ قرن بعد قرن من الصمت ، ترتدي الأرض خلالها معطفاً من الخضرة الناعمة . وتنجرف سلالة غامضة من المجهول إلى بلد الأرغوليس. غامضة فقط لأن الرجال نسوا مرأى الآلهة . الآلهة عائدة ، بكامل عتادها ، بأشكال بشرية ، تستخدم الحصان والترس ، والرمح ، تنقش الجواهر ، تصهر الفلزات ، ترسم صوراً حية نابضة عن الحرب والحب على نصال الخناجر البراقة . وتخطو الآلهة بخطى واسعة فوق المروج المضاءة بالشمس ، ممتلئة القامات ، غير هيّابة ، نظرتها الثاقبة نزيهة صريحة . لقد ولد عالم من النور . وينظر الإنسان إلى نظيره الإنسان بعينين جديدتين . إنه مرتاع ، مبتّل بصورته هو المتلألئة المنعكسة في كل مكان . وتستمر هكذا على مر القرون تُبلَعُ كأقراص السعال ، قصيدة ، قصيدة ترحيب ، كما يقول صديقي دريل . وبينما السحر يتملّك أقل الرجال شأناً يعدّ الخبراء ، كهّان أرض بيلوبونيزيوس ، قبور الآلهة ، يخفونها بعيداً في جوانب الهضاب الملساء والمرتفعات . ستغادر الآلهة يوماً ، بنفس السرية التي أتت بها ، مخلّفة وراءها القوقعة الشبيهة بالإنسان التي تخدع اللامؤمنين ، الفقراء في الروح ، النفوس الرعديدة التي

(*) الكنّاس ، أو القمّام : حيوان (أو طائر) يقتات على القمامة .

حولّت الأرض الى فرن ومصنع

***

ها قد تركنا لتونا الدرج الزلاّق ، كاتسيمباليس وأنا . لم نهبطه ، بل اكتفينا بالتلصّص إلى أسفله على ضوء عيدان الكبريت المشتعلة . السطح المنحدر ينوء بثقل الزمن . يكفي التنفّس بعمق حتى ينهار العالم كله فوق آذاننا . وكان كاتسيمباليس على استعداد للزحف على أربع ، وعلى بطنه إذا لزم الأمر . لقد ذهب من قبل إلى العديد من الأماكن الضيّقة ، زحف كالخلد في جبهة البلقان ، وشقّ طريقه كالدودة في الوحل والدم ، ورقص كالمجنون خوفاً وسُمراً ، وقتل كل ما وقع عليه نظره بما فيه رجاله ، وأطلق النار باتجاه السماء وهو متعلّق بشجرة . ونال ضربة على دماغه ، وأصيّب كفّله ، وعلّق ذراعاه على شريط ضماد ، واسودّ وجهه من البارود ، والتوت عظامه وخلعت من مكانها . إنه يحكيه لي مرة بعد أخرى ونحن وقوف في منتصف الطريق بين الأرض والسماء ، عتبة الباب العليا ترتخي أكثر فأكثر ، وتخبو عيدان الكبريت ويصرخ كأنه يرافع « لا نريد أن يفوتنا هذا » لكنني أرفض أن أنزل في بئر الأهوال اللزجة . وما كنت لأنزل حتى لو كان هناك جرّة ذهب تستحق السرقة . أريد أن أرى السماء ، والطيور الكبيرة ، والعشب القصير ، وأمواج الضوء المبهر ، وضباب المستنقع المرتفع فوق السهل .

***

نخرج إلى سفح التل البعيد وسط بانوراما من الوضوح المبهر . ثمة راع يتنقّل بقطيعه على سفح جبل ناء . إنه أكبر من الحياة ، وأغنامه مغطّاة بخصل ذهبية . يتنقّل الهوينا في مدى من الزمن المنسيّ . إنه يتنقّل وسط أجساد الموتى الساكنة ، أصابعها مشتبكة بالعشب القصير . يتوقف ليتحدث معهم ، ليمسح على لحاهم . أخذ يتنقّل هكذا في

أزمان هوميرية حين كانت الأسطورة مطرّزة بجدائل نحاسية . أضاف أكذوبة هنا وأكذوبة هناك ، وأشار إلى الإتجاه الخاطىء ، وغيرّ خط تطوافه . الشاعر بالنسبة للراعي طيّع جداً ، وسهل الإرضاء جداً . الشاعر يقول « كان هناك . . . كانوا . . . » أما الراعي فيقول ، هو يعيش ، موجود ، يفعل الشاعر دائماً متأخر ألف سنة ـ وأعمى حتى أخمص قدميه : الراعي أبديّ ، روحٌ حدودها حدود الأرض ، ناكر لذاته . سيبقى الراعي مع قطيعه على هذه المنحدرات إلى أبد الأبدين . سيخلد بعد فناء كل شيء بما فيه تراث الماضي كله .

نعبر الآن الجسر الصغير القائم فوق قوس استراحة كليمنسترا المنشطر . الأرض تتلظّى بالروح وكأننا نمشي على بوصلة خفية لا يهتز فيها إلا الإبرة المضيئة كلما وقع عليها قبس من وهج الشمس . ونتّجه صوب ضريح أغاممنون الذي لم يبق فوق قُبتّه غير بقعة رقيقة جداً من الأرض تستريح الآن كلحاف من الزغب . عُريٌ هذا المخبأ العلوي رائع . قف قبل أن يضطرم القلب لظى . إنحنِ والتقط زهرة . كِسَر أثرية في كل مكان وروث غنم . توقفت الساعة . الأرض تميد في جزء من الثانية ، تنتظر استعادة نبضها الأبدي .

لم أجتز العتبة بعد . ما زلت في الخارج ، بين كتل الأحجار السيكلوبية التي تحيط بالمدخل وحتى المهوى . ما زلت الرجل الذي كنت سأؤول إليه ، مفترضاً أن كل ثمرة من ثمار الحضارة تنهمر عليّ بتدليل ملكيّ . أجمع كل هذا الروث المتحضرّ الكامن في كتلة قاسية ، صغيرة من الفهم . أنا منتفخ حتى آخر مدى ، كانتفاخ هائل من الزجاج الذائب متدلٍ من أنبوبة نافخ الزجاج . صغني في أي شكل رائع ، استخدم كل مواهبك ، استنفد كل طاقة رئتيك في النفخ ـ ومع ذلك سأظل مجرد شيء مصنوع ، وفي أحسن الأحوال روحاً جميلة متحضرّة .

أعلم هذا ـ وأزدريه . أقف في العراء بكامل انتفاخي ، أجمل الأرواح المصنّعة على الأرض ، وأكثرها تحضراً وروعة . سأضع قدمي على العتبة ـ الآن . أنا أفعل . لا أسمع شيئاً . بل اني لست موجوداً لأسمع نفسي أتبعثر الى بيليون مُزقة صغيرة . لا يوجد سوى أغاممنون تفكّك الجسم حين رفعوا القناع عن وجهه . لكنه موجود ، يملأ خلية النحل الساكنة . يندلق الى العراء ، يغرق الحقول ، يرفع السماء الى أعلى قليلاً يمشي الراعي ويتحدث معه ليلا ونهاراً . الرعاة قوم مجانين . وكذا أنا . لقد مللت الحضارة وبذارها من النفوس المتحضرة . حين دخلت الضريح سلّمت نفسي . ومن الآن فصاعداً أنا بدوى هائم على وجهه ، نكرة روحانيّ . خذوا عالمكم المصنّع وادّخروه في المتاحف . لا أريده ، لا يلزمني . لا أصدق ان أي مخلوق متحضر يعرف ، أو عرف مرة ، ما حدث في هذه الضاحية المقدسة . لا يمكن للرجل المتحضر أن يعرف أو يفهم ـ إنه في الجانب الآخر من ذاك المنحدر الذي ارتقيت ذروته قبل أن يأتي هو أو أسلافه للوجود بزمن طويل . يسمونه ضريح أغاممنون . حسن ، ربما كان هنا شخص يدعى أغاممنون استلقى ليستريح . أي خطب في هذا ؟ هل سأظل واقفاً هنا ، فاغراً فمي كالأبله ؟ لا لن أظل . أرفض أن أقف عند هذه الحقيقة الملموسة جداً جداً . أنا أحلّق هنا ، ليس كشاعر ، ليس كمعيد للخلق ، كملفّق ، كعالم أساطير ، بل كروح نقية . أقول ان العالم كله ، المرفرف محلّقاً من هنا الى كل اتجاه ، كان ذات مرة حياً بطريقة لم يحلم بها انسان . أقول كان هناك آلهة طافوا في كل مكان ، رجال مثلنا في الشكل والجوهر ، لكنهم أحرار ، أحرار كالكهرباء . وحين غادروا هذه الأرض أخذوا معهم السر الوحيد الذي لن ننتزعه منهم الى أن نستعيد بدورنا حريتنا . سنعرف في يوم معنى الحصول على الحياة

الأبدية ـ حين نتوقف عن ارتكاب الجرائم . هنا في هذه البقعة ، المكرّسة الآن لذكرى أغاممنون ، عصفت جريمة خفيّة شنيعة بآمال الانسان . وثمة عالمان يقفان جنباً الى جنب ، العالم السابق ، والعالم اللاحق للجريمة . الجريمة تحوى اللغز ، العميق عمق الخلاص نفسه . لن تكشف الرفوش والمجارف عن أي شيء هام . الحفارون عميان ، يتحسسون طريقهم نحو شيء لن يروه أبداً . ان كل ما هو مكشوف يتفتّت عند لمسه . العوالم تتفتّت أيضاً ، بالطريقة نفسها . يمكننا أن نحفر الى الأبد ، كالمناجذ ، لكن الخوف سيظل يخيم علينا ، يتشبّث بنا ، يغتصبنا من الخلف .

لا أكاد أصدّق الآن ان ما رويت كان عملاً فاتناً في صباح قصير . بحلول الظهيرة كنا ننعطف في الشارع الى الحانة الصغيرة . وفي الطريق مررنا على الحارس الذي ، رغم وصوله المتأخر ، أصر على ملئي بالحقائق والتواريخ التي لا معنى لها على الاطلاق . تكلم أولا باليونانية ومن ثم ، حين اكتشف إني أميركي ، بالانكليزية . بعد أن أنهى سرده التعليمي بدأ يتكلم عن كوني أيلاند . كان ناثرَ الدبس على الممشى . وكان يمكن أن يقول أيضا إنه دبور ملصق الى سقف قصر مهجور إكراماً للإهتمام الذي أبديته . لماذا عاد ؟ الحقيقة هي إنه لم يعد . إن من يعبُر المحيط غرباً لا يعود . ولا يزال ينثر سكر الدبس على الممشى . لقد عاد ليتجسّد ببغاءاً ، ليتكلّم بلغة الببغاء الجوفاء أمام ببغاوات أخرى يدفعون نقوداً لسماعه . هذه هي اللغة التي قيل إن الاغريق القدامى أعلنوا ايمانهم بالآلهة بواسطتها ، ولم تعد لكلمة إله أي معنى لكنها مستعملة على كل حال ، وقد رُميَت كقطعة نقد زائفة . الرجال الذين لا يؤمنون في شيء يكتبون مجلدات تعليمية عن آلهة لم توجد أبداً . وهذا

جزء من الهراء الحضاري . إن كنتَ واسع الخبرة فيه ستحصل في آخر الأمر على منصب في الأكاديمية وهناك تنحطُّ على مهـل الى تشامبانـزي ناضج تماماً .

***

هنا أغاممنون وزوجته . أُتَفَضَّلُ شيئاً بالصحن أم وليمة كاملة ، أم حفلة ملكية ، كما يقال ؟ أين لائحة الخمور ؟ سيحضر لنا خمر جيد بارد بانتظار أن يجاب طلبنا . كاتسيمباليس يتلمَّظ بشفتيه ، فحلقه جاف . نسترخي على المرج ويحضر لنا أغاممنون نسخة دولوكس من كتاب لعالم آثار انكليزي . واضـح ان هذا هو طبـق المشـهيات بالنسبـة للسائـح الانكليزي اللعين . الكتاب يفـوح بنتـن الاسلـوب التعليمـي . إنـه يتحدث عن الطور التاريخي الأعلى والأدنى ، وصحون لحم الصدر ، وعظام الدجاج ورفات القبور . وحين يدير أغاممنون ظهره أرميه جانباً . رقيقٌ ، هذا الأغاممنون ، ودبلوماسي بقـوة العـادة . يبـدو إن زوجتـه طباخة ماهرة . كاتسيمباليـس يغفو تحت شجرة ضخمة . بعض أطباق السوركروت الألمانية ، المتخفية بشـكل كائنـات بشرية ، جالسـة على طاولة تحت شجرة أخـرى . تبـدو متعلمـة وبغيضـة بشـكل مخيـف ، ومنتفخة كالضفادع .

أحملق بنظرة فارغة في الحقل ذي الخضرة الأيرلندية . حقل يعجب لورنس دريل ، ترحيبيٌ بكل ما في الكلمة من معنى . أنظر نظرة جوفاء الى ذاك الحقل وفجأة أدرك ما كان دريل يحاول أن يخبرنـي به في تلك القصائد الطويلة المفككة التي سمأها رسائل . كنت أظن ، حين تصلني هذه الرسائل الاحتفائية الى فيلا سيورا في يوم صيفي بارد في باريس ، انه قد تناول قبل ملء قلمه بالحبـر نشقـة من الـكوكايين . وذات مرة

سقطت من المظروف حزمة كبيرة كريهة بدت كأنها قطعة نثرية ـ عنوانها « صفر » وقد أهداها اليّ هذا اللورنس دريل نفسه الذي قال إنه يقطن في كورفو . سمعت عن خربشة دجاج وعنLiver mantic واقتربت مرة من فهم فكرة الصفر المطلق ، رغم ان مقياس الحرارة الذي سيسجله ما يزال في طور التصنيع ، لكني حتى هذه اللحظة التي أجلس فيها أحلق في الحقل ذي الخضرة الأيرلندية أمام حانة أغاممنون لم أفهم فكرة الصفر بالمعنى الاحتفائي . لم يوجد أبداً حقل ذو خضرة حقلية كهذا . حين ترى أي شيء بحق ووضوح فأنت في نقطة الصفر . الصفر كلمة يونانية تعني رؤيا نقية . إنها تعني ما يقوله لورنس دريل حين يكتب باللغة الأيونية . تعني ، والآن ، مثلاً ، يمكنني أن أخبرك بإيجاز أكبر لأن ما أحاول وصفه يحدث أمام عيني هاتين . . . ثمة رجلان وامرأتان واقفون في الحقل . في يد أحد الرجلين مقياس شريطي . سيقيس قطعة الأرض التي تلقاها كهدية عرس . عروسه هناك للتأكد من عدم الخطأ في حساب كل ميليمتر من الأرض . الأربعة منكبُّون على العمل . يتناقشون حول قطعة صغيرة عند الزاوية الجنوبية الغربية . لعل أحد الأغصان حرف المقياس الشريطي مقدار جزء من المليمتر . ولا يمكن للمرء أن يكون شديد الحذر . لا تنظر في فم حصان جاءك هدية ! إنهم يقيسون شيئاً كان حتى الآن بالنسبة لي مجرد كلمة ـ أرض . الأبطال الموتى ، الكؤوس الذهبية ، التروس ، المجوهرات ، الخناجر المزينة بالنقوش ـ هذه الأدوات لا علاقة لها بالعمل في الأرض . الحيويّ هنا هو الأرض ، والأرض فقط . كررتها مرة بعد أخرى على لساني ـ أرض ، أرض ، أرض ، نعم ، أرض ، هذا ما أقصد ـ كنت قد نسيت إنها تعني هذا الشيء البسيط ، الأبدي . إن المرء ليشوّه ، يحرّف ، يصاب بورم خبيث ويحزّب ويصرخ « يا أرض الأحرار » الخ . الأرض شيء

نزرع فيه المحاصيل ، نبني بيتاً ، نربّـي أبقـاراً وأغنـام . الأرض هي أرض ، ويا لها من كلمة عظيمة ، بسيطة! نعم ، يا لورنس دريل ، الصفر هو ما صنعت . أخذتَ حفنة من الأرض الرطبة ولما عصرتها بين أصابعك حصلت على رجلين وامرأة واقفون في حقل ذي خضرة أيرلندية وهم يقيسون الأرض . أتى الخمر . أرفع كأسي . مرحباً بك ، لارى يا صغيري ، دع العلم عند نقطة الصفر ! بعد بضـع صفحـات أخـرى سنعود لزيارة ميسينا معـاً وستتقدّمنـا نانسي على الطـريق الهابطـة على الدرج اللزج من قذارة الخفافيش الى البئر التي لا قرارة لها .

هوامش الجزء الأول

(1) لورنس دريل : الروائي الإنكليزي المعروف ، صاحب « رباعية الإسكندرية » ، وله مجموعة رسائل ومقالات حول أسفاره في بلاد اليونان وقبرص بعنوان « روح المكان » ورسائله مع ميللر مشهورة جداً .

(2) نهر ووادي الدوردون : يقع في جنوب فرنسا ، شرقي بوردو .

(3) بيريوس : هو إسم الميناء في أثينا .

(4) قام ميللر بهذه الرحلة عام1939 ، عشية الحرب العالمية .

(5) Toten Insel

(6) تاوته كينغ : الكتاب المقدس لمذهب الطاويّة الصوفي في الصين .

(7) فيداس : الكتاب المقدس للهندوس يعود إلى1300 ق.م.

(8) من المعروف أن بايرون ، الشاعر الانكليزي ، مات في اليونان .

(9) بليز سيندرار : (1887 - 1961) شاعر فرنسي سيريالي . من أعماله (الفصح في نيويورك) ، (موراڤاجين) .

(10) كتب عنه ميللر جزءً كبيراً في كتابه (بيغ سور و برتقالات هيرونيموس بوش) ، وطبع هذا الجزء منفصلاً بعنوان (شيطان في الجنة) .

(11) أي يتمثل أثينا القديمة في اللغة والعنفوان والجو العام .

(12) نسبة إلى عمالقة السيكلوب في الأساطير اليونانية ، وكان عصرهم بالتالي يتميز بطراز من البناء ضخم الحجارة وغير متناسقة .

(13) شيروود أندرسن(1876 - 1941) ، أشهر مؤلفاته : مجموعة (وانيسبرغ ، أوهايو) ، و (زيجات عديدة) ، وله (مذكرات) .

(14) إشارة إلى كتاب أندرسن (انتصار بيضة)

(15) مدينة واينسبرغ التي كتب اندرسن عن سكانها لا وجود لها في الواقع .

(16) Bouboulina

(17) إليوسيس : بلدة قرب أثينا ، كانوا يقيمون فيها الحفلات الدينية لتكريم دميتر إلهة الزراعة عند اليونانيين .

(18) نال هذا الشاعر فيما بعد جائزة نوبل للآداب عام1963

(19) نسبة إلى سيبيل Sibyl عرّافة اليونان القديم . والمعنى : تنبّؤيّ .

(20) عنوان رواية لتشارلز ديكنز أيضاً .

(21) نسبة إلى إريكثيوس ، نصفه رجل ، نصفه أفعى ، ابن هيفيستوس ، أصبح ملكاً على أثينا (ميثولوجيا إغريقية) .

(22) الماثلة ذات الحجارة الضخمة غير المنتظمة .

(23) الذكري الخشن . مأخوذة منPriapus : إله القوة الجنسية الذكرية .

(24) مدن في فرنسا .

(25) فاسكو نونييز دو بالبو : (1475 - 1517) أحد مرافقي كورتيز ، فاتح مكسيكو . وكان هو ، لا كورتيز ، أول من اكتشف المحيط الهادىء .

(26) كنوسوس : كانت عاصمة السلالة المينوية (2000 ق . م) في جزيرة كريت .

(27) طراز من البناء يتميّز باستعمال حجارة ضخام غير متناسقة الأحجام من غير ملاط .

الجزء الثاني

اختصرت جولتنا البيلوبونيزية الكبرى في ميسينا . فقد استلم كاتسيمباليس مكالمة عاجلة للعودة الى أثينا ابّان اكتشاف غير متوقع لقطعة أرض عاينها وكلاؤه . لم تصعقه الأخبار . بل على العكس اكتأب فمزيد من الملكية يعني مزيداً من الضرائب ، مزيداً من الديون - مزيداً من وجع الرأس . كان يمكن أن أتابع اكتشافاتي وحيداً ، لكني فضّلت العودة الى أثينا معه وأهضم كل ما رأيت وشعرت . استقلينا الأوتومتريس في ميسينا ، في رحلة متواصلة خمس أو ست ساعات ، ان كنت لا أزال أذكر ، من أجل شيء تافه هو ثمن كأسين من الكوكتيل في الريتز .

بين وقت عودتي ومغادرتي الى كريت وقعت ثلاث أو أربع حوادث صغيرة أشعر بلزوم ذكرها باختصار . الأولى هي «خواريتز» ، الفيلم الأميركي الذي دام عرضه عدة أسابيع في احدى المسارح الرئيسية . ورغم ان اليونان تخضع لحكم دكتاتوري ومع ذلك عرض هذا الفيلم ، الذي عُدِّل قليلاً جداً بعد العروض الأولى ، ليلاً نهاراً في الدار التي كانت تزدحم باضطراد . كان الجو مشحوناً ، والترحيب أتى بوضوح من الجمهوريين . كان للفيلم لأسباب عديدة أهمية خطيرة بالنسبة للشعب اليوناني . وكان المرء يشعر ان روح فينزيلوس لا تزال حية . في ذلك الخطاب الكليل والرائع الذي ألقاه خواريتز على المبعوثين المطلقي

الصلاحية الممثلين للقوى الأجنبية المجتمعين كان المرء يشعر ان محنة مكسيكو المأساوية تحت سيطرة ماكسيميليان لها نظائر غريبة نابضة في الوضع الخطير الحالي في اليونان . وكان صديق اليونان الصدوق والوحيد في تلك اللحظة ، والوحيد غير المهتم نسبياً ، هو أميركا . لديّ ما أقوله عن هذا حين أصل الى كريت ، مسقط رأس فينزيلوس والغريكو أيضاً . لكن مشاهدة عرض فيلم تُشْجَب فيه جميع أشكال الدكتاتورية بعنف ، مشاهدته وسط جمهور مغلول الأيدي ، إلا عند التهليل ، فهو حدث مؤثر . كانت واحدة من تلك اللحظات النادرة التي شعرت أثناءها ، في عالم مكبوت تماما ، مقيّد ومغلول ، اني أميركي يعيش في بذخ .

الحادثة الثانية كانت زيارة المرصد الفلكي في أثينا ، أعدها لأجل دريل ولأجلي ثيودوز ستيفانيدس الذي قام ، باعتباره فلكياً هاوياً ، باكتشافات فلكية هامة باعتراف الجميع استقبلنا الموظفون بودّ زائد ، وشكراً للمعونة الكريمة التي قدّمها لهم زملاؤهم من العمال الأميركيين في هذا المجال . لم أكن قد نظرت من عدسة تيلسكوب مرصد حقيقي من قبل . ولا دريل على ما أعتقد . كانت التجربة مثيرة ، رغم عدم توافقها جملة مع توقعات مضيفينا . وبدا ان ملاحظاتنا ، المرحة والمنتشية ، تحيرهم . وطبعاً لم نكشف عن ردود فعلنا الأورثوذوكسية أمام العجائب المتجلّية . لن أنسى دهري ذهولهم التام حين هتف دريل فجأة ، وكان يحدّق في البلياديس(1) ـ « رزيكروشي ! » ماذا يقصد بها ؟ أرادوا أن يعرفوا . ارتقيت السلم نظرة بنفسي . أشك في استطاعتي وصف أثر النظرة الأولى على ذاك المشهد الذي يحبس الأنفاس لعالم النجوم المتناثرة . والصورة التي سأظل محتفظاً بها هي صورة الشاترز ، وهي نافذة على شكل وردة متألقة هُشّمت بقنبلة يدوية . أعني ما أقول بحس

مضاعف مرتين أو ثلاث ـ من الرهبة ، والجمال الخالد ، والتدنيس الكوني، وحطام عالم معلّق في السماء كنذير وسرمديّة الجمال جمال حتى بعد أن يُنَسف ويُنتَهك . « الأعالي كالأغوار » كما يجري القول الشهير لهرمز تريسميغيستوس : أن ترى البلبادس من خلال التلسكوب يعني أن تحس بالحقيقية العِلْوية والرهيبة لهذه الكلمات في أبعد شطحاته ، الموسيقية منها والمعمارية قبل كل شيء ، فهما واحد ، يعطي الانسان وَهْمَ منافسةِ نظامٍ ، وجلالِ وروعةِ السماوات ، في نوبات أعماله التدميرية يبدو الشر والخراب اللذان ينشرهما فريدان الى أن نتأمل في اهتزازات النجوم التي تحدثها الانحرافات العقلية للعرّاف المجهول .
بدا مضيفونا كتيمين أمام هذه التأملات ، تحدثوا عن معرفة في الأوزان ، والمسافات ، والمواد ، الخ . لقد أبْعِدوا عن النشاطات العادية لإخوانهم البشر بطريقة تختلف تماماً عن ابتعادهم عنا . الجمال بالنسبة لهم حدث طارىء ، وبالنسبة لنا كل شيء . العالم الفيزيائي الحسابي بالنسبة لهم الموضّح ، المعيرٌ ، الموزون والمرسل بأدواتهم هو الواقع بذاته ، أما النجوم والكواكب فهي مجرد برهان على عقلانيتهم الممتازة والمعصومة . بالنسبة لدريل وبالنسبة لي يقع الواقع ما وراء متناول أدواتهم التافهة التي بحد ذاتها ليست سوى انعكاسات سقيمة لخيالهم المحدّد المحصور أبداً في سجن المنطق القائم على الافتراض . أرقامهم وحساباتهم الفلكية ، الموجودة خصيصاً لإبهاتنا والمغالاة في إفزاعنا ، تدفعنا فقط للابتسام بتسامح أو للضحك بوقاحة شديدة في وجوههم مباشرة . بالنسبة لي لم تترك الحقائق والأرقام بي أي أثر . والسنة الضوئية ليست أكثر تأثيراً من لحظة ، أو جزء من لحظة . هذه لعبة لضعاف العقول الذين يمكنهم أن يستمروا حتى الغثيان Ad nauseam آتين غادين دون أن يوصلونا الى أية نتيجة . وأيضاً لست أكثر اقتناعاً بواقعية نجم ما حين

أراه من خلال تلسكوب . قد يكون أكثر تلألؤاً ، أكثر اعجازاً ، قد يكون أكبر حجماً ألف مرة أو مليون مرة من رؤيتنا له بالعين المجردة لكنه ليس أكثر حقيقيّة ولا بمقدار ذرة . أن نقول إن هذا هو الشكل الحقيقي لشيء ما لمجرد أن نراه أكبر وأعظم ، يبدو لي أمراً سخيفاً تماماً . هو حقيقي بالنسبة لي كما لو لم أره على الاطلاق بل تخيلت وجوده . وأخيراً ، ورغم ان له في نظري ونظر عالم الفلك نفس الأبعاد ، والبريق ، فهو لم يكن نفسه لكلينا ـ وهتاف دريل بالذات كافٍ لاثبات هذا .

ولكن دعنا ننتقل الى شيء آخر ـ الى زحل . عند النظر الى زحل ، وقمرنا أيضاً ، من خلال عدسات مكبّرة ، فهما يتركان أثراً على إنسان علماني بطريقة جدير بالعالم أن يرثي لها ويستنكرها بوضوح . لا يمكن لأية حقائق أو أرقام عن زحل ، أو تكبير ، أن يفسِّر الشعور المقلق جداً الذي يسببه مرآى هذا الكوكب لعقل المراقب . زحل هو رمز حي للكآبة ، والمرض ، والكارثة والموت . يشير لونه المتموِّج الأبيض كالحليب وبشكل حتمي تداعيات تتعلّق بأمر تافه ميت ورمادي ، بأعضاء حساسة بعيدة عن الأنظار، بأمراض بغيضة ، بأنابيب اختبار، بعيِّنات مخبرية ، بالنزلة الصدرية ، بالروماتيزم ، بالجبلة الخارجية ، بظلال الكآبة ، بالظواهر المرضية ، بحرب الحَصُون والسُّقُوبة ، بالعقم ، بفقر الدم ، بالتردد ، بالانهزامية ، بالامساك ، بالمضادات ، بالروايات الضعيفة ، بالفتاق ، بالتهاب السحايا ، بقوانين الحرف الميت ، بالشريط الأحمر ، بأوضاع الطبقة العاملة ، بمحلات بيع الحلوى ، ورابطة الشبيبة المسيحية ، باجتماعات المسعى المسيحي ، بجلسات تحضير الأرواح ، بشعراء أمثال ت . س اليوت ، بمتعصِّين أمثال الكسندر دوى ، وبشافين أمثال ميرى بيكر أيدي (2) ، برجال دولة

أمثـال تشمبـرلن ، بميتـات تافهـة كالانـزلاق على قشرة موز وتحطـم الجمجمة ، وبالحلم بأيام أفضـل والانحشـار بـين سيارتـيّ شحـن ، بالغرق في مغطس الحمام ، بقتل المرء لأعز أصدقائه عفواً ، بالموت من الحازوقة بدل ساحة الوغى ، وهكذا الى ما لا نهـاية ad infinitum . زحل مهلك بقوة العطالة . حَلَقته ، التي هي بسُمْك الورقـة ، طبقـاً للعلماء ، وهو خاتـم زواج يعنـي الموت أو سوء الحـظ مجرداً من كل أهمية . زحل ، مهما كان بالنسبة لعالم الفلك ، هو علاقة الموت التافه لرجل الشـارع . انـه يحملـه في قلبـه لأن حياتـه كلهـا ، الخالية من الأهمية ، مغلّفة برمزه المطلق الذي يمكنه ، ان فشل كل شيء آخر في قتله ، الاعتماد عليه لانهائها . زحل هو الحياة في حالة ترقُّب قلق ، ليس ميتاً بقدر ما هو بلا موت ، أي غير قادر على الموت . زحل هو كالعظمة الميتة في الأذن ـ ثنائي الخشاء بالنسبة للروح . زحل هو كلفة من ورق الجدران ثمة خطأ في وضع وجهيها مدهونة بغراء نَزْليّ(1) يجده اللاصقون أساسياً جداً في مهنتهم . زحل هو تكتّل عظيم من تلك المُزَق الشيطانية الشكل التي يتصيّدها المرء طوال فترة الصباح بعد أن يكون قد دخّن عدة علب من السجائر المشّـة ، المحمّصـة ، التـي لا تسبـب السعـال ، والملهمة . زحل هو إرجاء يقدّم نفسه كإنجاز قائم بذاتـه . زحـل هو ريبة ، حيرة ، نزوع الى الشك ، حقائق للحقيقة نفسهـا بلا عنـاصر مثيرة للضحك ، بلا نزعة صوفية ، أتفهـم ؟ زحـل هو عرق التعلّـم الشيطانـي للتعلّـم نفسـه ، هو الضبـاب المجمّـد الناتـج عن تقصّي المحسوس الأحادي الحثيث لما هو موجود دائماً أمام أنفه . زحل يتسـم بطابع كئيب بشكل لذيذ لأنه لا يعرف ولا يميّز أي شيء مما يقع ما وراء الكآبة ، انه يسبح في بدانته . زحل هو رمز كل النـذر والخرافـات ، والبرهان الزائف على الأنتروبي(2) المقدّس ، زائف لأنه لو كان صحيحاً ان

الكون ينحدر لذاب زحل منذ زمن بعيد . زحل أبديّ كالخوف والتردد ، يزداد جبنا واكفهراراً ، مع كل تسوية ، وكل اتفاقية استسلام . الأرواح الرعديدة تصرخ طالبة زحل كما يصرخ الأطفال عادة طالبين الكاستوريا«». لا يعطينا زحل الا ما نطلب ، دون ذرة زيادة . زحل هو الأمل الأبيض للعرق الأبيض الذي لا يكف ثرثرة عن عجائب الطبيعة ويبدد وقته في إفناء أعظم العجائب قاطبة ـ الانسان . زحل هو الدجال المنجّم يشمخ عالياً باعتباره الفوهة الكونية العظمى للقدر ، السيد باريس ، المحارب الأوتوماتيكي لعالَم مصاب بالعصاب ataraxy فلتغني السماوات مجدها ـ فهذه الكرة الكسولة المؤلفة من الشك والضجر لن تكف عن إطلاق أشعة الغم المجدب البيضاء كالحليب .

هذه هي الصورة الشعورية لكوكب لا يزال تأثيره غير التقليدي يجثم بثقله على الوعي الخامد تقريباً للإنسان . إنه أكثر مشاهد السماوات إفتقاراً للفرح . وهو يتصل بكل صورة جبانة يفهمها قلب الانسان ، انه المخزن الوحيد لكل اليأس والاندحار اللذين استسلم لهما الجنس البشري منذ زمن سحيق . ولن يُرى إلا حين يُطهَّر وعي الإنسان منه .

***

الحادثة الثالثة هي من نوع مختلف كليًا ـ جلسة موسيقى جاز في غرف سفيريادس المتقشفة العزباء الكائنة في شارع كيداثينايون ، وهو أحد الشوارع التي جذبتني في أول اكتشافي لأثينا لسفيريادس ، وهو وسط ما بين الثور والنمر بطبيعته ، آثار قوية من برج العذراء ، باللغة الفلكية . بكلمة أخرى ، لديه ولع بجمع المعلومات ، مثل غوته ، وهو أفضل نماذج برج العذراء التي عرفها العالم أول ما صدمني حين دخولي هذا المكان في هذه المناسبة الخاصة كان مقابلتي لأخته الفائقة

الكياسة والجمال ، جين . تركت تأثيرها عليّ فوراً كأنها تنحدر من سلالة ملكية ، وربما من أسرة مصرية عريقة ـ مهما يكن ، كان واضحاً انها من الجانب الآخر للجسر Traus- Pontine[6]. وبينما أنا أتأملها نشوانا ذهلت فجأة بصوت كاب كالواى[7] الذي يشبه صوت السعدان . نظر إليّ سيفريادس وهو يبتسم تلك الابتسامة الأسيوية الدافئة التي تنتشر دائماً على وجهه مثل الرحيق الالهي وعطره . قال « هل تعرف هذه المقطوعة ؟ » وهو يشع سروراً « لديّ غيرها ، اذا أردت سماعها » وأشار الى ملف من الألبومات بطول ياردة . وتابع قائلاً « ما رأيك بلوى آرمسترونغ[8]، هل تحبه ؟ اليك اسطوانة لفاتس والر[9]. انتظر لحظة، هل سبق أن سمعت كونت بيسي[10]ـ أو بيوى رسل[11]؟ » . كان يعرف كل فنان مبدع في مجاله . كان متحمّساً « للجاز الحار » ، كما اكتشفت سريعاً . وفي غضون لحظات كنا نتحدث عن مقهى بردون في مونمارتر حيث تجتمع أكبر الفرق الزنجية في النوادى الليلية قبل العمل وبعده . أراد أن يسمع أخبار الزنوج الأميركيين ، عن الحياة خلف المشهد الرئيسي . ما هو تأثير الزنوج على الحياة الأميركية ، ما رأي الشعب الأميركي في الأدب الزنجي ؟ هل صحيح أن هناك أرستقراطية زنجية ، أرستقراطية حضارية فاقت المجموعات الحضارية الأميركية البيضاء ؟ هل يمكن لرجل مثل ديوك ألينغتن[12] أن ينتسب الى السافوي ـ بلازا[13] دون حرج ؟ ما أخبار كالدويل وفوكنر[14]ـ هل هي صحيحة الصورة التي قدماها عن الجنوب الأميركي ؟ وما الى ذلك . وكما ذكرت من قبل ، سفيريادس هو مستجوب لايكلّ . انه لا يعتبر أي تفصيل أتفه من أن يطّلع عليه . فضوله لا يشبع ، ومعرفته فسيحة ومتنوعة . بعد أن أسعدني بنخبة من أحدث مؤلفات الجاز أراد أن يعرف إن كنت أحب سماع بعض الموسيقى الأجنبية التي لديه منها تشكيلة مثيرة . وبينما هو يبحث عن احدى

الاسطوانات أخذ يمطرني بوابل من الأسئلة عن أحد الشعراء الانكليز المبهمين أو عن الظروف التي أحاطت باختفاء أمبروز بيرس"[٥]" أو عما أعرفه عن مخطوطات غرينبرغ التي استغلها هارت كرين"[٦]". أو، بعد أن يعثر على الأسطوانة التي يبحث عنها ينتقل فجأة الى نادرة صغيرة عن حياته في ألبانيا تتعلّق، بطريقة مفككة غريبة، بقصيدة لـ. ت. س اليوت أو سان جون بيرس. أتحدث عن انحرافاته هذه لأنها كانت ترياقاً منعشاً لذلك النوع من الحديث المستحوذ، الضيّق المجال، والمفتقر تماماً للمرح الذى تغرق فيه الطبقة المثقّفة الانكليزية في أثينا. كانت تكفي أمسية واحدة مع هؤلاء المتملّقين لتتركني راغباً في الانتحار. اليوناني حيّ حتى أطراف أصابعه، ينزّ حيوية، فائر، كليّ الوجود بروحه. الانكليزي كسول، خُلِق من أجل الكرسي، والمدفأة، والحانة الحقيرة، للروتين التعليمي. كان دريل يبتهج ابتهاجاً منحرفاً في مراقبة خيبتي في حضور أبناء بلدى كانوا منطبقين تماماً والشخصيات الكرتونية الحية في كتابه «الكتاب الأسود»، ذاك التأريخ المخرِّب للموت الانكليزي. كان كاتسيمباليس ينضب حقاً في حضور أحد الانكليز. لم يكن أحد يكرههم حقاً - فهم ببساطة لا يُحْتَمَلون.

في وقت متأخر من تلك الليلة كان لي امتياز مقابلة بعض النسوة اليونانيات، صديقات أخت سيفيريادس. وهنا أيضاً أثر بي غياب تلك العيوب الفاضحة التي تجعل حتى أجمل امرأة أميركية أو انكليزية تبدو بشعة حقاً. المرأة اليونانية، حتى حين تكون مثقفة، هي أولا وقبل كل شيء امرأة إنها تنثر عبيراً واضحاً، إنها تدفئك وتهزّك. ونظراً لاحتلال اليونان لجزء من أسيا الصغرى فالجيل الأثيني النسوى الجديد قد تحسّن جمالاً ونشاطاً. والفتاة اليونانية العادية التي يراها المرء

في الشارع تتفوّق في كل النواحي على نظيرتها الأميركية ، فهي تتمتع قبل كل شيء بشخصيتها وبسلالتها ، مزيج يعزز الجمال الخالد ويميّز الى الأبد سلالات الشعوب العريقة عن أولاد الحرام أبناء العالم الجديد . كيف يمكن أن أنسى الفتاة الصغيرة التي مررنا بها يوماً عند أسفل الأكروبوليس ؟ ربما كانت في العاشرة ، وربما كانت سماتها توحي بنبالة وجديّة وصرامة تماثل ما تتصف به تماثيل الكرتيد في الاركتيوم . كانت تلعب مع بعض أقرانها في فسحة صغيرة من الأرض أمام مجموعة من الأكواخ المتداعية للسقوط التي نجت بشكل ما من التدمير الشامل . إن كل من قرأ « موت في البندقية »[17] سيقدّر لإخلاصي حق التقدير حين أقول انه ما كان لأية امرأة ، ولا حتى أجمل من رأت عيني ، في الحاضر أو الماضي أن تثير بي شعور الافتتان الذي أثارته هذه الفتاة الصغيرة . ولو وضعها القدر في طريقي ثانية لا أعلم أية حماقة قد أرتكب . كانت طفلة ، وعذراء ، وملاك ، وغاوية ، وكاهنة ، وعاهرة ، وعرّافة دفعة واحدة . لم تكن يونانية قديمة ولا يونانية حديثة ، لم تكن تنتمي لأي عرق أو زمن أو طبقة ، بل فريدة ، فريدة بشكل خرافي . كان في تلك الابتسامة المتمهّلة المتروّية التي منحتنا ونحن واقفان لحظة نتأملها تلك الخاصيّة المبهمة التي خلّدها دافنشي ، ويجدها المرء في كل موضع من الفن البوذي ، وفي كهوف الهند العظيمة وعلى واجهات معابدها ، يراها في راقصات جاوا وبالي لدى السلالات البدائية ، خاصة في أفريقيا ، وتعتبر بحق التعبير المتأوج للانجاز الروحي للجنس البشري ، والغائب حالياً برمتّه عن ملامح المرأة الغربية . دعني أضيف فكرة غريبة - هي إن أقرب تشبيه لهذه الخاصية المبهمة لاحظته قاطبة وجد في ابتسامة فلاحة في كورفو ، فلاحة في قدَمِها ستة أصابع ، وهي بشعة بلا ريب ، وقد اعتبرها

الجميع كنوع من الوحوش . كانت تأتي الى البئر ، كما هي عادة الفلاحات ، لتملأ الجرة ، لتغسل حاجياتها ، ولتثرثر . كانت البئر تقع عند أسفل منحدر شاهق تدور حوله درب تشبه درب الماعز . وتنتشر كروم الزيتون الكثيفة الظليلة في كل مكان تقطعها هنا وهناك وديان ضيقة تشكل مجاري لغدران جبلية تجف تماماً في الصيف . وفتنني البئر بسحره العجيب ، كان مكاناً مخصصاً لحمل الأثقال النسائية ، للعذراء القوية الممتلئة التي تستطيع حمل جرّتها المملؤة ماءً المربوطة الى ظهرها في تناسق ورشاقة ، وللشمطاء العجوز الدرداء التي لا يزال ظهرها المحنيّ قادر على موازنة حِمْل متقلقل من حطب الموقد ، للأرملة مع قطيعها الشارد من الأولاد ، للخادمات الضاحكات بعفوية هيِّنة ، للزوجات اللواتي يتولّين أعمال ازواجهن الكسالىٰ ، لكل أنواع النساء ، باختصار ، ما عدا السيدة الجليلة ، والنساء الانكليزيات المتبطّلات في المنطقة المجاورة . عندما رأيت النسوة لأول مرة يتعثّرن على المنحدرات الشاهقة كالنساء القدامى المذكورات في الكتاب المقدس ، شعرت بوخز الغم . طريقة تعليق الجرة الثقيلة على الظهر بالذات جعلتني أشعر بالمهانة . وزاد فيها أن الرجال الذين كان من الممكن أن يقوموا بهذ المهمة البسيطة هم على الأغلب جالسون في طراوة إحدى الحانات أو متكومون تحت شجرة زيتون . وأول ما خطر لي كان أن أخفف عن هذه الحسناء الصغيرة في بيتنا من المهمة الثانوية ، أردت أن أشعر بثقل تلك الجرار على ظهري ، لأتعرّف بآلام عضلاتي أنا ماذا تعني تلك الرحلة المكررة الى البئر . حين نقلت رغبتي الى دريل رفع يديه هلعاً . غير ممكن ، قالها هاتفاً ، ضاحكاً من جهلي . قلت له لا يهمني أبداً إن كان ممكناً أو غير ممكن ، وإنه إنما يسلبني متعة لم أتذوقها توسّل اليّ أن لا أفعلها لأجل خاطره ـ قال إنه سيخسر احترام الناس ، وإن اليونانيين

سيضحكون علينا . باختصار ، جعل من الحبة قبّة حتى اضطررت للرضوخ لفكرته . ولكن أثناء ضربي على غير هدى بين التلال كنت أقرر الوقوف عند البئر لأروى ظمأي . وذات يوم لمحت من بعيد الوحش ذا الستة أصابع كانت واقفة حافية القدمين تغوص في الوحل حتى كاحليها ، وهي تغسل كومة من الثياب لا أنكر إنها كانت بشعة ، ولكن هناك بشاعات من كل الأنواع وبشاعتها كانت من النوع الذي بَدَل أن يُنْفِر يجذب . فأولا كانت قوية ، مفتولة ، حيوية ، حيوان مزوّد بروح انسانية وبقوى جنسية لا تقبل الجدل . عندما انحنت لتعصر زوجاً من الثياب الداخلية تموجت الحيوية الكامنة في أعضائها ومضت من خلال التنورة البالية الملطّخة بالطين المتشبّثة بلحمها الداكن ، توهجت عيناها كجمرتين ، كعينيّ امرأة بدوية . شفتاها بلون الدم وأسنانها المتناسقة القوية بيضاء كالطباشير . الشعر الأسود الكثيف منهمر على كتفيها في خصل كبيرة لامعة ، وكأنها مشبّعة بزيت الزيتون . كان جديراً برينوار أن يراها جميلة ، وما كان ليلاحظ الأصابع الستة ولا غلاظة قسماتها . كان سيتبع اللحم المتموّج ، واستدارة ثدييها الكاملة ، ووقفتها اللينة ، المتمايلة ، وقوة ساعديها الوافرة ، وساقيها ، وجذعها ، كان سيفتن بافترارة ثغرها الممتلئة السخية ، بنظرة عينيها القاتمة الملتهبة ، وحدود الرأس المتماسكة والأمواج المتلألئة السوداء المنهمرة شلالات صغيرة على عنقها القوي الرخامي . كان سيلحظ الشبق الحيواني ، الحرارة الملتهبة التي لا تخمد ، النار في الأحشاء ، عناد النَمِرة ، الجوع ، الضراوة ، الشهوة العارمة لأنثى شبقة لا أحد يرغب فيها لأن لها إصبعاً زائدة .

على أية حال ، إذا استبعدنا رينوار ، كان في ابتسامة هذه المرأة شيء أحياه مرأى الفتاة ذات الشعر الذهبي المحمّر . أقصد بهذا ، رغم

ظاهره الموهم ، إنه كان متناقضاً كلياً . فقد تلد هذه الغولة قطعة مذهلة من الجمال ، قد تفعل لأنها في حلمها النهم للحب اجتاز عناقها هوّة لا يتصوَّرها خيالُ أبأس النساء حرماناً من الحب . لقد أعيدت جميع قوى الاغواء عندها إلى كفن الجنس وهناك ، في ظلمة عضوها ، احترقت لهفتها ورغبتها حتى استحالتا دخاناً سميكاً . وبعدما تخلَّت عن كل أمل في اغواء رجل تحوَّل شبقها الى أنواع محرَّمة من الرغبة ـ الى آلهة أسطورية . كان في ابتسامتها شيء من ثمالة الأرض الظمآى بعد سيل مفاجىء وعنيف ، إنها ابتسامة شخص نهم لا تشكِّل ألف قبلة ملتهبة بالنسبة له إلا حافزاً لاغتصابات متجددّة . بقيت في ذاكرتي بطريقة غريبة غامضة كرمز لذاك الجوع لحب غير محدود شعرتُ به بدرجة أقل عند كل نساء اليونان . بل يكاد يكون رمزَ اليونان نفسها ، هذا الشبق الفائر أبداً للجمال ، والشهوة ، والحب .

***

ظللت أحلم عشرين سنة بزيارة كنوسوس [18]. لم أدرك أبداً مدى بساطة القيام بهذه الرحلة . في اليونان ما عليك إلا أن تعلن أمام أحدهم انك تود زيارة مكان معيَّن وبريستو ! وفي لحظات تكون ثمة عربة بانتظارك عند الباب . وفي هذه المرة كانت طائرة . كان سيفريادس قد قرر أن أركب في موكب عظيم كانت منه لَفْتة شِعْرية وأنا قَبِلتها كشاعر .

لم أكن قد ركبت الطائرة من قبل وقد لا أستقلها ثانية . شعرت بنفسي أبلهاً وأنا جالس في السماء معقود الساعدين ، كان الرجل الذي الى جانبي يقرأ صحيفة ، ومن الواضح انه لايعي وجود الغيوم التي تحفّ بزجاج النوافذ . على الأغلب اننا كنا نطير بسرعة مائة ميل في الساعة ، ولكن لما كنا لا نمر إلا بالغيوم شعرت كأننا لا نتحرك . باختصار ، كان

شيئاً بليداً أحمقَ رتيباً . وندمت لأني لم أحجز مكاناً للسفر على متن السفينة الجيدة أكروبوليس التي كان من المتوقع أن تصل كريت بعد قليل إن الانسان خلق ليمشي على الأرض ويبحر في البحر ، وخوض الجو يجب أن يقتصر على المرحلة المتأخرة من تطوره ، حين سينمو له جناحان ويصبح له شكل الملاك الكامن في جوهره . لا علاقة للمخترعات الآلية بطبيعة الانسان الحقيقية - إنها مجرد أفخاخ نصبها له الموت .

هبطنا الى ميناء هيراكليون البحري ، وهو إحدى المدن الرئيسية في كريت . الشارع الرئيسي يكاد يشبه تماماً صورة سينمائية جامدة لفيلم ويسترن من الدرجة الثالثة . وعثرت على غرفة بسرعة في أحد الفندقين ثم انطلقت أبحث عن مطعم . أمسكني الشرطي الذي كنت أسترشد به من ذراعي ورافقني بكرم الى مكان لطيف قرب النافورة العامة . كانت الوجبة سيئة لكن كنوسوس صارت في متناولي وأنا أكثر إثارة من أن يزعجني أمر تافه كهذا . بعد الغداء عبرت الشارع الى المقهى وشربت قهوة تركية . وكان هناك ألمانيان وصلا على نفس الطائرة يتناقشان حول محاضرة عن فاغنر كانا سيلقيانها في تلك الأمسية ، وبديا جاهلَين بحمق أنهما إنما أتيا بسمّهما الموسيقي الى مسقط رأس فينيزيلوس . غادرت المكان لأقوم بمسير سريع خلال المدينة . بعد مروري بعدة أبواب ، في مكان كان جامعاً مرة ، وجدت دار سينما تعلن عن مجيء فيلم للوريل وهاردي . كان الأولاد المتجمعون حول الاعلان متحمّسين بوضوح لهذين المهرّجين كتحمّس أولاد دوبوك أو كينوشا[19] أظن ان السينما كانت تدعى « المينوية » . وتساءلت بابهام إن كان ثمة دار سينما في كنوسوس أيضاً ، تعلن ربما عن مقدم الاخوة ماركس[20].

هيراكليون بلدة رثّة تحمل جميع آثار الاحتلال التركي . شوارعها

الرئيسية مملوءة بالدكاكين المكشوفة التي تحوي كل ما يحتاجه الناس مصنوع باليد كما في العصور الوسطى يأتي الكريتيون من الأرياف وهم يرتدون ملابس سوداء أنيقة يزينها حذاء عال جميل ، ذو جلد أحمر أو أبيض لا تخضع للوقت . إنهم بعد الهندوس والبربر من أكثر الذكور أناقة ونبالة ، وجلال من الذين رأت عيني . إنهم أكثر إثارة للذهول من النساء بكثير : إنهم عِرْق بذاته .

وصلت الى طرف البلدة حيث كما هي العادة في البلقان ينتهي كل شيء بسرعة ، وكأن الفوضوي الذي صمّم الخلق العجيب قد جُنّ فجأة ، تاركاً البوابة الهائلة تهتز على مفصل واحد . هنا تتجمّع الباصات كيرقات منهكة بانتظار أن يطويها غبار السهول في تضاعيف النسيان . استدرت عائداً خلال متاهة من الشوارع الضيقة ، الملتوية التي تكوّن المنطقة السكنية والتي رغم كونها يونانية ، لها نكهة قاعدة انكليزية في بلاد الهند الغربية . حاولت طويلا أن أتصور ماذا يمكن أن يشبه الدخول الى كريت . وقد حسبت جاهلاً ان الجزيرة قليلة السكان ولا وجود لماء الشرب عدا ما يُجلَب من الداخل ، ظننت ان المرء سيجدها شاطئاً مقفراً تتبعثر عليه بعض الآثار المتلألئة وهذه هي كنوسوس ، وما وراء كنوسوس ستمتد أرض خراب تشبه فيافي أستراليا الشاسعة حيث يدفن طائر الدودو رأسه في الرمال بؤساً ، وقد نأت عنه بقية الأنواع ذات الريش في الغابة ، ويصفّر من طرفه الآخر . أذكر ان صديقاً لي ، كاتب فرنسي ، أصيب هنا بالديزنطاريا ونقل على ظهر حمار الى قارب صغير ومنه حمل بمعجزة الى سفينة شاحنة كانت مارّة وعاد الى اليابسة في حالة هذيان تجولّت وأنا مذهول ، أتوقف بين آن وآخر لأنصت الى اسطوانة مشروخة يبثّها مكبّر فونوغراف موضوع على كرسي وسط الشارع . الجزارون يرتدون المآزر الملطّخة بالدم ، وقد توقّفوا أمام ألواح التهريم

البدائية في سقيفات صغيرة كالتي قد يراها المرء في بومبي . وبعد كل مسافة صغيرة تنفتح الشوارع الى ساحة عامة تحيط بها من كل جانب أبنية مجنونة مخصصة للقضاء ، والوزارة ، والكنيسة ، والثقافة ، للمرض والجنون ، كانت واقعية فن العمارة من نوع تلك التي تميّز عمل الفنانين البدائيين المعروفين مثل بومبويس ، وبايرونت ، وكين ، سوليفان وفيفيان . وسط ضوء الشمس المبهر يبرز رسم تفصيلي لبوّابة بقضبان متصالبة أو معقل بلا تحصينات بجلاء ودقة تُوقفُ شعر الرأس ، مثل هذا لا يراه المرء الا في لوحات فنان عظيم أو مجنون. ان كل إنش من هيراكليون جدير بالرسم ، إنها بلدة مضطربة كابوسية ، شاذة تماما ، متنافرة تماما في عناصرها ، هي مكان في الحلم معلّق فوق هوّة بين أوروبا وأفريقيا ، يفوح بقوة برائحة جلود الحيوانات غير المدبوغة ، ببذور الكرويا ، بالقار وفاكهة شبه استوائية . لقد عاملها الأتراك بوحشية وأصيبت بماء الورد غير المؤذي المتبخّر من الصفحات الخلفية لمؤلفات تشارلز ديكنز . ليست لها أية علاقة على الاطلاق بكنوسوس وفيستوس ، إنها دملة على وجه الزمن ، بقعة متقيّحة يزيلها المرء كما يفعل حصان نائم وهو واقف على أربع .

كان في جيبي بطاقة تُعرِّف باكبر شخصية أدبية في كريت ، وهو صديق لكاتسيمباليس . وقرابة المساء وجدته في المقهى حيث كان الألمان يدبِّرون مكائدهم الفاغنيرية . سأدعوه السيد تسوتسو بما اني نسيت اسمه لسوء الحظ . كان السيد تسوتسو يتكلّم الفرنسية ، والانكليزية ، والألمانية ، والأسبانية ، والايطالية ، والروسية ، والبرتغالية ، والتركية ، والعربية ، واليونانيةالديموطية [21]، ويونانية الصحف ، واليونانية القديمة . كان مؤلفاً موسيقياً ، وشاعراً ، وعالماً ، ومحبّاً للطعام

والشراب . بدأ بسؤالي عن جيمس جويس ، و ت . س اليوت ، ووالت ويتمان ، وأندريه جيد ، وبريتون ، ورامبو ، ولوتريامون ، ولويس كارول[22]، ومونك لويس[23]،وهاينريش جورج وراينر ماريا ريلكه . أقول انه سألني عنهم ، تماماً كما قد يسأل عن أحد الأقارب أو عن صديق مشترك . تحدّث عنهم وكأنهم جميعاً أحياء ، وهذا صحيح ، شكراً لله هرشت رأسي . وعاود مبتدئاً بأراغون ـ هل قرأت « فلاح باريس » ؟ هل أذكر ممر جوفروا في باريس ؟ ما رأيي بسان جون بيرس ؟ أو بكتاب « ناديا » لبريتون ؟ ألم أزر كنوسوس من قبل ؟ يجب أن أبقى فيها بضعة أسابيع على الأقل ـ سيصحبني في الجزيرة من أقصاها الى أدناها . كان شخصاً صحيحاً معافى ولما عرف اني أحب الأكل والشرب أشرق باستحسان عظيم . واعتذر بالخلاص لأنه ليس حراً هذا المساء ، لكنه أمل أن يراني في اليوم التالي ، أراد أن يقدمّني الى حلقة الأدباء الصغيرة في هيراكليون . أثارته فكرة مجيئي من أميركا وتوسّل اليّ أن أحدثه بشيء عن نيويورك ، مما تعذّر عليّ تماماً لأني توقفت منذ زمن بعيد عن مطابقة نفسي مع تلك المدينة الكريهة .

عدت الى الفندق لأنام قليلاً كان في الغرفة ثلاثة أسرّة ، وجميعها مريحة . قرأت بعناية اليافطة التي تحذّر الزبائن من اعطاء البقشيش للمستخدمين . تكلّف الغرفة في الليلة سبعة عشر سنتاً فقط وانغمست بلا حماس في تخمين عقيم عن مقدار ما يمكن أن يمنح المرء من البقشيش اذا أراد . لم يكن في الفندق أكثر من ثلاثة أو أربعة من الزبائن . واذ كنت أمشي في الممر العريض أبحث عن المرحاض قابلت الخادمة ، وهي من نوع العوانس الملائكيات بشعر كالقش وعينين زرقاوين لامعتين ذكرتني بحيوية بالمسؤول السويد نبورغي[24]عن بيت بلزاك في باسي .

كانت تحضر لي كأساً من الماء على صينية من الرصاص والزنك والتنك . خلعت ملابسي وبينما أنا أسدل الستائر رأيت رجلين وكاتب اختزال ينظرون اليّ من نافذة إحدى الغرف التجارية الأجنبية القائمة عبر الشارع بدا لي أمراً غير معقول تنفيذ هذا العمل التجريدي في مكان كهيراكليون . بدا الناسخ سيرياليا والرجلان ذوان الأكمام المرفوعة كما في غرف التجارة في كل مكان يشبهون الى حد عجيب فلتات العالم الغربي الذين ينقلون الحبوب والذرة والقمح بسيارات مملوءة بمعيّة التليفون ، والساعة والتلغراف . تصوّر كيف سيكون منظر رجلي أعمال وكاتب اختزال واقفين في جزيرة ايستر[25]! تصور كيف سيبدو الناسخ وسط ذاك الصمت المترامي ! تمـدّدت على ظهري على السرير وغصت في نوم أفيوني . ممنوع منح البقشيش ـ كانت آخر فكرة وهي فكرة جميلة بالنسبة لرحّالة مرهق .

حين استيقظت كان ظلاماً أزحت الستائر وألقيت نظرة الى الشارع الرئيسي البائس الذي أضحى الآن مقفراً سمعت جهاز تلغراف يقرقع . ارتديت ثيابي وهرعت الى المطعم القريب من النافورة . وكأن النادل كان ينتظرني وقد وقف مستعداً ليترجم لي الى تلك الانكليزية الايروكوازية[26] التي اكتسبها ذاك اليوناني المتجوّل أثناء ترحاله . طلبت بعض السمك البارد مع جلده وزجاجة من الخمر الكريتي الداكن الحَمار . وأثناء انتظار تلبية طلبي انتبهت الى رجل يتلصص من خلال زجاج النافذة الكبيرة ابتعد ثم عاد من جديد بعد بضع دقائق . وأخيراً قرر أن يدخل توجّه مباشرة الى طاولتي وخاطبني ـ بالانكليزية . ألست السيد ميللر الذي وصل بالطائرة قبل بضع ساعات ؟ نعم وطلب السماح بتقديم نفسه . كان السيد

فلان الفلاني نائب القنصل الانكليزي في هيراكليون . لاحظ إنني أميركي ، وكاتب . ولطالما أسعده أن يتعرّف علّ أحد الأميركيين . توقف لحظة ، كأنما مرتبكا ، ثم تابع قائلاً إن دافعهُ الوحيد لتقديم نفسه هو كي يُعلِمنَي أن أعتبر خدماته المتواضعة تحت تصرفي الكامل طوال فترة مكوثي في كريت . قال إنه في الأصل من سميرنا وإن كل يوناني من سميرنا مدين أبداً للشعب الأميركي . وقال إنه لن يتردد في تلبية طلب لي مهما عَظُم .

وكان جوابي الطبيعي أن أطلب منه الجلوس ومشاركتي الطعام ، وهذا ما فعلت . وشرح قائلا انه لن يستطيع قبول الشرف لأنه مضطر لتناول الطعام في كنف عائلته ، ولكن ـ هل لي أن أشرّفه بتناول القهوة معه ومع زوجته في بيتهم بعد العشاء؟ وباعتباري أمثل الشعب الأميركي العظيم (ولست متأكداً على الاطلاق من الدور البطولي الذي لعبناه في كارثة سميرنا المروّعة) إذن ، وبلباقة ، قبلت ، نهضت ، انحنيت ، صافحته ، ورافقته حتى الباب ومن جديد تبادلنا هناك عبارات الشكر المؤدبة والتهاني المشتركة . عدت الى الطاولة ، ونزعت الجلد عن السمك البارد وتابعت ترطيب حنجرتي . كانت الوجبة أردأ من وجبة الغداء لكن الخدمة غير عادية . وكان المطعم بأكمله على علم أن ذاك الزائر المتميّز قد وصل وهو يشاركهم طعامهم المتواضع . وجاءني السيد تسوتسو وزوجته للحظة للسؤال عن كيف أجد الطعام ، معلقين بشجاعة على مظهر السمك اللذيذ الشهي ذي الجلد واختفيا مع انحناءات وسلامات أشاعت رعشة كهربائية في مجموع زبائن أشهر مطعم في هيراكليون . بدأت أشعر وكأن شيئاً ذا أهمية بالغة على وشك الوقوع أمرت النادل أن يرسل لي الخادم مع القهوة والكونياك . لم

يسبق لنائب قنصل أو لأي من مسؤولي الخدمة العامة ما عدا شرطي مرور أو شرطي أمن أن بحث عني في مكان عام . الطائرة هي المسؤولة . كأنها كانت كتاب اعتماد .

كان منزل نائب القنصل يبدو مهيباً بالنسبة لهيراكليون . في الحقيقة ، كان أشبه بمتحف أكثر منه ببيت . وشعرت بنوع من الاضطراب ، والارتباك . كان نائب القنصل رجلاً طيباً ، رقيق القلب لكنه تافه كطاووس . راح ينقر بعصبية على ذراع الكرسي ، منتظراً بفارغ الصبر زوجته لتنطلق في جولة الى باريس وبرلين ، وبراغ ، وبودابست الخ لكي تذيع انه هو مؤلف كتاب عن جزيرة كريت . وظلّ يكرر على مسامع زوجته اني صحافي ، وهي إهانة أجد من الصعب عليّ عادة أن أبلعها ، ولكن في هذه الحال وجدت من السهل أن لا أشعر بالاهانة ما دام نائب القنصل يعتبر كل الكتّاب صحافيين . ضغط على زر وأمر الخادمة باقتضاب أن تذهب الى المكتبة وتحضر له نسخة من الكتاب الذي كتبه حول كريت . واعترفَ بأنه لم يكتب أي كتاب قبله ولكن ، نظراً لحالة الجهل العام والفوضى التي يعرفها السائح العادي عن كريت ، حمل على عاتقه تدوين ما عرفه عن الأرض التي اختارها مستقراً له بأسلوب خالد نوعاً ما . وصرّح بأن السير آرثر ايفانز[27] عبّر عن هذا بأسلوب مقصّر ، ولكن هناك نثرات قليلة ، هي توافه بالمقارنة طبعاً ، ما كان لعمل بهذا الحجم والرفعة أن يأمل بشملها . وتكلّم بتلك الطريقة النفّاجة ، الخطابية ، الهائلة السخف عن تحفته الفنية . قال إن صحافياً مثلي سيكون أحد القلائل حقاً الذين سيقدّرون ما قام به لأجل كريت حق قدره الخ . ناولني الكتاب لألقي عليه نظرة ، قدّمه لي وكأنه نسخة غوتنبرغ[28] من الكتاب المقدس . ألقيت عليه لمحة واحدة وأدركت على

الفور اني أتعامل مع أحد « سادة الواقعية المعروفين » شقيق في الدم لرجل رسم لوحة « موعد مع النفس » . وسأل بنبرة زائفة ال إن كانت لغته الانكليزية سليمة ، لأن الانكليزية ليست لغتـ لية . والتضمين هنا ـفاده إنه لو كتبه باللغة اليونانية لأضحى ـد . فسألته بأدب من أين يمكن لي الحصول على نسخة من هـ ـمل الواضح الروعة ، وعلى الأثر ابلغني إني إذا أتيت الى مكتبـ ـباح فسيمنحني واحدة كهدية ، كتذكار لهذه المناسبة الفريدة التي ـغـت ـجها باجتماع عقلين منسجمين تماماً مع عظمة الماضي . كان هـ مجرد بداية طوفان من براز الخيل المزدهر الذي توجَّب عليَّ ازدراده قبل قيامي بخطوات إلقاء تحية المساء . ثم جاء على ذكر كارثة سميرنا ، مع سرد معذِّب ، مفصَّل للأهوال التي مارسها الاتراك على اليونانيين البائسين والتدخل الرحيم للشعب الأميركي الذي لن ينساه أي يوناني حتى يوم مماته . وحاولت يائساً ، وهو يلفِّق الأهوال والفظائع أن أتذكر ما كنت أفعله في تلك اللحظة السوداء من تاريخ اليونان . ولا شك إن الكارثة قد وقعت أثناء احدى تلك الفترات الطويلة التي توقفت خلالها عن الصحف . لم يكن لدى أدنى ذكرى حول أية فاجعة . وأفضل ـ تذكّري تقول لي إن الحدث لا بد وقع في العام الذي كنت أبحث ـله عن عمل دون أية نيّة بقبوله . ذكّرتني باني لم أحاول ازعاج ـفسي بالنظر في أعمدة الاعلان عن الوظائف رغم حالتي البائسة عندئذ .

في صباح اليوم التالي استقليت الباص باتجاه كنوسوس . كان عليَّ أن أمشي على قدمي مسافة ميل أو نحوه بعد النزول من الباص لأصل الى الآثار . كنت من الابتهاج حتى حسبت أني أمشي في الجو . وأخيراً كاد حلمي يتحقق . السماء مكفهرّة وتمطر بعض الرذاذ وأنا أقفز متقدما .

ومن جديد شعرت ، كما في ميسينا بأني جررت الى المكان . أخيراً ، وبينما أنا أدور دورة ، توقفت جامداً مكاني . وتملكني شعور بأني في المكان المطلوب . نظرت حولي بحثاً عن آثار لآثار ولكن لم أجد لها أي أثر . وقفت لبضع دقائق أحملق عن قصد في حدود التلال الملساء التي بالكاد مسّت السماء الزرقاء المكهربة مسّاً رفيقاً . قلت لنفسي ، لا بد ان هذه هي البقعة المقصودة ، لا يمكن أن أخطىء . عدت أتعقّب آثار أقدامي وأعبر الحقول الى قعر العقيق . فجأة ، اكتشفت ، الى يساري ، سرادقاً مكشوفاً ذا أعمدة ملونة بألوان بدائية واضحة - إنه قصر الملك مينوس . كنت أقف في المدخل الخلفي للأطلال وسط مجموعة من الأبنية بدت وكأنما التهمتها النيرّان . درت حول التل أبغي المدخل الرئيسي وتبعت مجموعة من اليونانيين في أعقاب دليل يتحدث بلغة بَطْرَفيّة (29) بدت لي لغة بيلاسجيّة(30) صرفة .

لقد ثار الكثير من الجدل حول جماليات كتاب السير آرثر ايفانز الاصلاحي . ووجدت نفسي عاجزاً عن الوصول الى أية نتيجة حوله ، فقبلته كحقيقة على أية حال كيفما كانت كنوسوس في الماضي ، وكيفما ستصير في المستقبل ، فهذه التي لفّقها إيفانز هي الوحيدة التي سأعرفها إنني ممتنٌ له لما فعل . ممتّن لأنه مكّنني من هبوط الدرج الهائل ، والجلوس على ذاك العرش الرائع ، الذي صارت نسخته المطابقة الآن والموجودة على بوابة محكمة هاغ الصلحية أثراً قدسياً من الماضي كما الأصلية .

ان كنوسوس بكل مظاهرها توحي بعظمة وعقلانية وغنى شعب قوي ومسالم . إنها مرحة - مرحة موفورة الصحة وصحيّة ، وتنفع الصحة . لقد لعب العامة دوراً عظيماً ، هذا واضح وقبل انه طوال

تاريخها المديد اختبرت جميع أشكال الحكم المعروفة للانسان ، وهي من نواح عدّة أقرب في الروح الى الأزمنة الحديثة ، الى القرن العشرين ، يمكنني القول ، منها الى العهود الأبكر للعالم الهليني[31] ان المرء ليشعر بتأثير مصر ، بالفوريّة المألوفة الانسانية للعالم الأتروسكي[32] ، بروح التنظيم الجماعي ، الحكيمة ، لأيام الانكا[33]. لا أدعّي المعرفة ، بل أشعر ، كما شعرت نادراً من قبل بآثار الماضي ، بأنه سادت هنا طوال قرون عديدة فترة من السلام . ثمة في كنوسوس شيء وثيق الصلة بالأرض ، هو نوع من الجو العام يثار عندما نقول صيني أو فرنسيّ . يبدو الجرس الديني متلاشياً بشكل محبّب ، وقد لعبت النساء دوراً هاماً ، عادلاً في شؤون هذا الشعب ، وتلاحظ بجلاء روح اللعب . باختصار ، النغمة السائدة هي نغمة الفرح . يشعر المرء ان الانسان عاش لمجرد العيش ، وانه لم يبتلِ بأفكار عن حياة آخرة ، ولم يخنق أو يقيِّد بتبجيل غير ضروري للأرواح السالفة ، وأنه متديّن بالطريقة الوحيدة اللائقة بالانسان ، أي بالاستفادة من كل ما يقع تحت يده والى أقصى حد ، باستخلاص ما تقدِّمه كل لحظة عابرة من حياة . كنوسوس أرضيّة بأفضل معنى للكلمة . لقد تناثرت الحضارة التي مثّلتها شذراً قبل مجيء المخلّص بألف وخمسمائة عام ، وورِّثت للعالم الغربي أعظم إسهام فرديّ عرفه الانسان حتى الآن ـ الأبجدية . وفي جزء آخر من الجزيرة ، في غرتينا ، خلّد هذا الاكتشاف على شكل أحجام هائلة من الحجارة تمتد في المناطق الريفية كشكل مصغّر لجدار الصين . واليوم ذهب السحر عن الأبجدية ، باتت صيغة ميتة تعبّر عن أفكار ميتة .

وفي طريق عودتي لملاقاة الباص توقفت في قرية صغيرة لأشرب . التنافر بين الماضي والحاضر كان مذهلاً ، وكأن سر الحياة قد ضاع .

واتخذ الناس المجتمعون حولي مظهر المتوحشين الغربيي الخلقة . كانوا ودودين ، مضيافين ، وبشكل خارق ، لكن بمقارنتهم مع المينويين كانوا أشبه بحيوانات أليفة مهملة . انني لا أفكر بوسائل الراحة التي يفتقدونها ، اذ من ناحية الراحة لا أجد كبير فرق بين حياة فلاح يوناني ، أو حمّال صيني وأميركي مهاجر يتقن الصنائع السبع . أفكر الآن في الافتقار الى تلك العناصر الأساسية للحياة التي تجعل تحقيق مجتمع انساني ممكناً . ان النقص الأساسي العظيم ، والظاهر في كل مكان من عالمنا المتحضر ، هو الغياب التام لكل ما يقترب من الوجود الاجتماعي . لقد صرنا بدواً في الروح ، وكل ما يعود للنفس مهجور ، تذروه الرياح شذراً مذر . وحين ينظر الى قرية هاغيا تريادا من أية زاوية من الزمن ، تبرز كدُرَّة من التماسك والكمال ، والروعة . وحين تزيّن قرية يونانية بائسة ، كالتي أتحدث عنها الآن ، ونجد من نظائرها في أميركا بالآلاف ، حياتها الهزيلة المفسدة بإدخال التليفون ، والراديو ، والسيارة ، والتراكتور الخ ، يصبح معنى كلمة جماعي مشوّهاً بشكل غريب حتى إن المرء يبدأ بالتساؤل عن معنى عبارة « مجتمع إنساني » ، فليس في كتل المخلوقات المشتّتة هذه أي شيء إنساني ، انهم يقعون تحت أي مستوى معروف للحياة مرّ على هذا الكوكب . إنهم أقل قدراً في كل النواحي من أقزام هم بدو حقيقيون يتنقّلون في حرية فاحشة وشعور لذيذ بالأمان .

بعدما رشفت كأس الماء ، الغريب الطعم ، استمعت الى أحد اولئك السعادين الضخام وهو يسرد ذكرياته عن الأيام المجيدة التي قضاها في هركايمر ، في نيويورك . كان يدير محلاً لبيع الحلوى وبدا ممتناً لأميركا لأنها سمحت له بتوفير بضعة آلاف من الدولارات لزمته للعودة

الى وطنه الأم ومتابعة حياة الكدّ المهينة التي اعتاد عليها . وهرع عائداً الى البيت ليحضر كتاباً أميركياً احتفظ به كذكرى لأيام كسب النقود الرائعة . كان تقويماً للمزارعين . ملوثاً ببصمات أصابع قذرة ، وقد غزاه الذباب ، ونهشه القمل . هنا في حضن حضارتنا يقدّم لي سعدان قذر هَوْلة نفيسة من الأحرف ـ إنها التقويم

جلسنا صاحب التقويم وأنا على طاولة بعيداً عن الطريق وسط مجموعة من الجلف كانوا متأثرين بوضوح . طلبت كونياك للجميع وسلّمت نفسي لمحدّثي . تقدّم رجل ووضع اصبعه الضخمة الشَعِرة على صورة آلة زراعية . قال المحدّث . « آلة جيدة . إنها تعجبه » وتناول آخر الكتاب بين يديه ومرّ عليه باصبعه الرطبة ، وبين الحين والحين ينخر معبّراً عن سروره . وقال المحدّث . « هذا الكتاب ممتع جداً . انه يحب الكتب الأميركية » وفجأة يلمح صديقاً له في مكان قصيّ ، فيناديه « تعال هنا » ويقدمه اليّ « نك ! إنه يعمل في ميتشيغان . في مزرعة كبيرة . وهو أيضاً يحب أميركا » أصافح نك ، قال نك . « أنت من نيويورك ؟ أنا ذهبت مرة الى نيويورك » وقام بحركة بيديه معبّراً عن ناطحات السحاب . وأخذ نك يتحدث بودّ مع الآخرين وفجأة ساد الصمت وعلا صوت المتحدث « يريدون أن يعرفوا رأيك باليونان » أجبت « رائعة » . ضحك . « اليونان بلد فقير جداً ، نعم ؟ لا نقود . أميركا غنية . الجميع معهم نقود ، نعم ؟ » وأقول نعم لأرضيه . فيستدير الى الآخرين ويشرح لهم اني أوافق ـ أميركا بلد غني جداً ، الكل غني ، الكثير من النقود . ويسأل « كم ستبقى في اليونان ؟ » أجيب « ربما سنة ، ربما سنتين » . يضحك من جديد وكأني أبله . « ماذا تعمل ؟ » وأخبره اني لا أعمل شيئاً . « إذن انت مليونير » ؟ أخبرته أني فقير

جداً . ضحك ، أكثر من ذي قبل . كان الآخرون ينصتون بانتباه . وتحدث اليهم ببضع كلمات سريعة ، وسأل « ماذا تريد أن تشرب ؟ الكريتيون يحبون الأميركيين . الكريتيون شعب طيب . أنت تحب الكونياك ، نعم ؟ » وأهز رأسي موافقاً .

وهنا جاء الباص . وتهيأت للقيام . فقال محدّثي « لا تتعجّل . لن يذهب الآن . سيتزوّد بالماء هنا » . كان الآخرون يبتسمون في وجهي . بماذا يفكرون ؟ بأني عصفور غريب الأطوار حتى آتي الى مكان مثل كريت ؟ وسئلت من جديد ماذا أعمل . وقمت بحركة الكتابة بالقلم . هتف محدثي « آه ، في الصحيفة » ! وصفق بيديه وتكلم مع صاحب الحان بإثارة . واذا بصحيفة يونانية تظهر . ثم تُقذَف بين يديّ . « أتقرأ هذا » ؟ هززت رأسي نفيا اختطف الصحيفة من يدي ، وقرأ العنوان الرئيسي باليونانية ، وأنصت الآخرون برصانة . وبينما هو يقرأ لاحظت التاريخ - كان عمرها شهراً وترجم لي المحدِّث « يقول إن الرئيس روزفلت لا يريد القتال . هتلر رجل سيء » ثم وقف وتناول عصا خيزران من أحد الجالسين ووضعها على كتفه وقلد رجلاً يطلق النار على هدف ما . بانغ - بانغ ! استمر ، وهو يرقص متنقلاً يصوب على واحد إثر آخر . بانغ - بانغ ! وضحك الجميع ملء قلوبهم قال ، وهو يهز إصبعه مشيراً الى صدره « أنا ، أنا جندي كفء . أنا أقتل الاتراك . . . الكثير من الأتراك . أنا أقتل ، أقتل ، أقتل » وأظهر تكشيرة دموية غاضبة . « الكريتيون جنود أكفاء . الايطاليون سيئون » واستمر حتى وصل الى أحد الرجال فقبض عليه من ياقته . وتظاهر بأنه يحزّ عنقه . « الايطاليون ، تفوه » ! وبصق على الأرض . « أنا أقتل موسوليني . . . هكذا ! موسوليني سيء . اليونانيون لا يحبون

موسوليني . سنقتل كل الايطـاليين » ويجلس مبتسماً ابتسامـة عريضـة ومقهقهاً . وأهز رأسي « الرئيس روزفلت سيساعد اليونانيين ، نعم ؟ اليوناني مقاتل جيد . يقتل الجميع . هو لا يخاف من أحد . أنظر أنا رجل واحد . . . » ومشيراً إلى الآخرين « أنا يوناني واحد » أشار الى الآخرين مختطفاً الخيزرانة من جديد وملوحاً بها كأنها هراوة « أنا أقتل الجميع ـ ألماني ، ايطالي ، روسي ، تركي ، فرنسي اليوناني لا يخاف » ويضحك الآخرون ويهزون رؤوسهم استحساناً كان كلامه مقنعاً ، هذا أقل ما يقال .

استعد الباص للتحرك . ويبدو ان القرية كلها كانت قد اجتمعت لتحضر اقلاعي . ارتقيت الحافلة ولوّحت مودّعاً . تقدّمت فتاة صغيرة وناولتني باقة من الأزهار . وهتف المحدّث هوراي ! وصرخ ولد صغير أخرق « حسن جداً » ! وضحكوا جميعاً .

***

بعد العشاء في تلك الأمسية تمشّيت الى طرف البلدة . كان الأمر كالمشي في أرض الـ UR كنت أروم المقهى المتلألىء الأضواء البـادي عن بعد . وعلى مبعدة جوالي الميل سمعت مكبّر الصوت يزعق بأخبار الحرب ـ في اليونان أولاً ، ثم في فرنسا فانكلترا . ويبدو انه كان يذيع أخبار أرض الخراب كلها . أوروبا تتكلم . وأتخيل أوروبا نائية ، كأنها في قارة أخرى . الضجيج يصيب بالصم . وفجأة يبدأ آخر من الجهة المقابلة استدرت عائداً الى الحديقة الصغيرة المقابلة لدار السينما حيث يُعلَن عن فيلم ويسترن . اجتزت ما يشبه الحصن الهائل المحاط بخندق جاف . بدت السماء واطئة جداً ومملوءة بغيوم ممزقة أبحَر القمر خلالهـا متعثّراً . شعرت أنني خارج العالم ، مفصول عنه ، غريب تماماً ، بكل

ما للكلمة من معنى . وزادت المكبرات من شعور العزلـة هذا وكأنهـا قُوِّيت حتى أعلى درجة لتجتازنـي الى البعيد ـ الى أبيسينيا ، والجـزيرة العربية ، وبلاد الفرس ، وبيلوخستان ، والصين ، والتيبت . كانـت الأمـواج الصـوتية تعبـر من فوق رأسي ، لم تكن موجَّهــة الى كريت أصلاً ، بل التقطتُ مصادفة . دخلت الشوارع الضيقة الملتـوية التـي تقود الى الساحة المكشوفة . وأتقدم مباشرة داخل الحشد المتجمّع خارج خيمة تعرض فيها أعمال خِفّة . كان ثمة رجل يفترش مكاناً قرب الخيمة يعزف لحناً عجيباً على الفلوت . أمسك الفلوت مصّوباً إياه نحو القمر الذي صار في هذه الأثناء أكبر وأكثر توهجاً . خرجت من الخيمة راقصة هز البطن ، وهي تجر بيدها رجلاً قميئاً قهقه الحشـد . وهنـا أدرت رأسي وبالدهشتي رأيت امرأة تحمل مزهرية على كتفها تهبـط منحـدراً صغيراً حافية القدمين . كان لها وقفة ورشاقـة تمثـال قائـم على افـريز قديم الى الخلف منها مشى حمار مثقل بالجرار . وكان صوت الفلوت يزداد غرابة ، وإلحاحاً . وثمة رجال معمَّمون يحتذون أحـذية طويلـة بيضاء وثياب فضفاضة سوداء يشقّرن طريقهم دفعاً الى الخيمة . وكان الرجل الواقف الى جانبي يحمل دجاجتين تقوّقـان من أرجلهما ، وهـو مزروع في مكانه ، وكأنه منوّم مغناطيسياً . والى يميني نهضت بوضوح ثكنة عسكرية يسد بابها كشك الخفارة يمشي أمامه جندي بثياب بيضاء جيئة وذهاباً بإيقاع عسكري .

لم يكن ثمة ما يضاف للمشهد أكثر من هذا ، ولكن بالنسبة لي كان يحوي سحر عالم لم ألقِ عليه نظرة بعد . حتى قبل أن أبحر الى كريت كنت أفكر في بلاد الفرس وجزيرة ا! ـرب وبلاد أنأى . كريت هي نقطة انطلاق . كانت ذات مرة مركزاً ـابتاً ، حيوياً ، خصباً ، سُرَّة العالم ،

وهي الآن أشبه بفوهة بركان خامد . تأتي الطائرة ، ترفعك من مقعدك وتلفظك في بغداد ، أو سمرقند ، أو بيلوخستان ، أو فزان ، أو تيمبوكتو وحسبما تسمح نقودك بذلك ، كل هذه كانت مرة أمكنة بديعة يذهلك مجرد ذكر اسمائها وهي الآن جُزُر صغيرة طافية فوق بحر الحضارة العاصف . إنها تعني لنا وسائل راحة بيتية كالمطاط ، والقصدير ، والفلفل ، والقهوة ، والكاربورندوم وما اليها سكانها الأصليون كيانات منبوذة مهملة يستغلها أخطبوط تمتد مجسّاته من لندن ، وباريس ، وبرلين ، وطوكيو ، ونيويورك ، وتشيكاغو الى أطراف أيسلندا المتجمدة ومجاهل بيتاغونيا . مظاهر ما يسمّى بالحضارة منثورة وملقاة بفوضى عظيمة في كل مكان تصله المجسّات الطويلة اللزجة . ولا يتحضّر أحد ، ولا يتغيّر أي شيء بالمعنى الحقيقي . البعض يستخدمون السكاكين والشوك وكانوا من قبل يأكلون بأصابعهم ، والبعض يضعون أضواءاً كهربائية في أكواخهم بدل مصابيح الكاز أو فتيل الشمعة ، بعضهم لديهم كتالوغات سيرز ـ روبك وكتاب مقدس على الرف مكان بندقية الرمي أو بندقية المسكيت ، والبعض لديهم مسدسات أوتوماتيكية لامعة بدل الهراوات ، البعض يستخدمون النقود بدل الأصداف والوَدَع ، وآخرون يعتمرون قبعات من القش ليسوا بحاجة اليها ، والبعض لديهم يسوع المسيح ولا يعلمون ماذا يفعلون به . لكنهم جميعاً ، من أعلاهم الى أسفلهم ، قلقون ، مستاؤون ، حاسدون ، ومرضى من أعماقهم . جميعهم يعانون من السرطان والجذام ، في أرواحهم . سيطلب من أكثرهم جهلاً وانحطاطاً أن يحملوا السلاح ويقاتلوا دفاعاً عن حضارة لم تجلب لهم سوى البؤس والانحطاط . ويهدر مكبّر الصوت بلغة لا يفهمونها بأخبار فاجعة عن النصر والهزيمة . انه عالم مجنون وحين تنفصل عنه قليلاً فسيبدو لك أكثر جنوناً من

المعتاد . الطائرة تجلب الموت ، الراديو يجلب الموت ، المدفع الرشاش يجلب الموت ، الأطعمة المعلّبة تجلب الموت ، التراكتور يجلب الموت ، الكاهن يجلب الموت ، المدارس تجلب الموت ، القوانين تجلب الموت ، الكهرباء تجلب الموت ، أنابيب المياه تجلب الموت ، الفونوغراف يجلب الموت ، السكاكين والشوك تجلب الموت ، الكتب تجلب الموت ، أنفاسنا نفسها تجلب الموت ، ولغتنا ، وأفكارنا ، ونقودنا ، وحبّنا ، وإحساننا ، وإعتناؤنا بالصحة ، وفرحنا . وسواء كنا أصدقاء أم أعداء ، سواء سَمَّينا أنفسنا يابانيين ، أتراك ، روس ، فرنسيين ، إنكليز ، ألمان أو أميركيين ، وأينما ولّينا وجوهنا ، أينما ألقينا ظلالنا ، أينما تنفّسنا ، نسمّم وندمّر . هووراي ! هكذا يهتف اليونانيون . أنا أيضاً أصرخ هووراي ! هووراي للحضارة ! هووراي ! سنقتلكم جميعاً ، كلكم ، وأينما وجدتم . هووراي للموت ، هووراي ! هووراي !

***

في صباح اليوم التالي قمت بزيارة للمتحف حيث وبالدهشتي قابلت السيد تسوتسو بصحبة مبتزّي النيلونغن . بدا مرتبكاً إلى أقصى حد لأنه رؤي في حضورهم ولكن ، كما شرح لي بعد ذلك ، كانت اليونان لا تزال بلداً محايداً وقد جاؤوا مسلّحين بكتب توصية من رجال اعتبرهم مرة أصدقاء . تظاهرت بالانغماس في فحص رقعة شطرنج مينويّة . ألحّ عليّ كي أقابله في المقهى في وقت لاحق من النهار . وبينما أنا خارج من المتحف أصابني اضطراب معويّ سيء جداً حتى أني عملتها في سروالي . وعلى الفور فكّرت بصديقي الفرنسي . ولحسن الحظ إني دوّنت في مفكرتي الصغيرة علاجاً لعلل كهذه ، أعطاني اياه رحّالة انكليزي قابلته مساء يوم في إحدى حانات نيس . عدت الى

الفندق ، بدَّلت ثيابي ، ربطت القديمة في حزمة لأرميها في أحد الوديان ، وتوجّهت الى الصيدلية مسلّحاً بوصفة طبّية من جوّال انكليزي .

كان عليّ أن أمشي مسافة طويلة قبل أن أتمكن من رمي الحزمة دون أن يراني أحد . في ذلك الحين عادت الاضطرابات المعوية ثانية . نزلت الى أسفل خندق قرب حصان ميت يعجّ بذباب الزجاج .

لا يحسن الصيدلي الكلام إلا باليونانية . وكلمة إسهال هي إحدى الكلمات التي لا تفكر أبداً بضمّها الى مجموعة مفردات استقرابية ـ والوصفات الجيدة تكتب باللاتينية وعلى كل صيدلي أن يعرفها ولكن يجهلها الصيادلة اليونانيين أحياناً ولحسن الحظ دخل رجل يعرف القليل من اللغة الفرنسية . سألني فوراً إن كنت إنكليزياً ولما قلت نعم انطلق يخرج مسرعاً وعاد بعد دقائق مع يوناني يبدو عليه المرح اتضح أنه صاحب مقهى مجاور . شرحت له الوضع بسرعة ، وبعد حديث قصير مع الصيدلي ، أبلغني أنه لا يمكن تركيب الدواء ولكن لديه علاج يقترحه عليّ وهو أن أمتنع عن تناول الطعام والشراب واتبع حمية من الأرز الرخو مضافاً اليه قليل من عصير الليمون . وبرأي الصيدلي أن الأمر لا يستأهل ـ وإني سأشفى في غضون بضعة أيام ـ فالجميع يصاب به في أول الأمر .

عدت الى المقهى مع الشخص الضخم ـ سمّى نفسه جيم ـ واستمعت الى حكاية طويلة عن زوجته الموجودة في مونتريال حيث جمع ثروة كمدير مطعم ، ثم فقدها في البورصة . أسعده أن يتحدث بالانكليزية من جديد . قال « لا تلمس الماء هنا . الماء الذي لدي يأتي من نبع يبعد عشرين ميلاً لذا يأتيني زبائن مرموقون » .

جلسنا هناك نتحدث عن أوقات الشتاء الرائعة في مونتريال . ولدى جيم شراب خاص أعدّ خصيصاً لي قال انه سينفعني . كنت أتساءل من أين أحصل على وعاء مملوء بالأرز الكثيف الرطب . كان الى جانبي رجل ينفخ دخان نرجيلة بدا غارقاً في نشوة خالية من التعبير . وفجأة صرت في باريس ، استمع الى صديقي الروحانيّ أوربانسكي الذي ذهب مرة في ليلة من ليالي الشتاء إلى مبغى في مونتريال ولما ظهر من جديد كان الوقت ربيعاً . وأنا أيضاً ذهبت إلى مونتريال لكن الصورة التي أحتفظ بها عنها هي نوعاً ما لا تخصني بل تخص أوربانسكي . أرى نفسي واقفاً في حذائه ، انتظر الحافلة في طرف البلدة . تأتي امرأة أنيقة متدثّرة بالفراء . هي أيضاً تنتظر الحافلة . كيف خطر لي فجأة اسم كريشنامورتي ؟ ثم أخذت تتحدث عن توبيكا ، في كنساس ، وكأني عشت هناك طوال حياتي . وشراب التودي الحار أيضاً أتى بصورة طبيعية . اننا واقفان أمام باب بيت كبير يحوطه جو قصر مهجور . فتحت الباب امرأة ملوّنة . إنه بيتها ، كما وصفته تماماً . مكان دافىء ، أليف أيضاً . وبين الحين والحين يُقرَع الجرس . يسمع صوت ضحك مكبوت ، قرقعة قنان ، وأقدام تلبس خفّاً وتخفّ عبر الصالون . . .

أنصتُّ الى هذه الحكاية بانتباه شديد حتى صارت جزءاً من حياتي . كدت أشعر بالسلاسل الناعمة التي أحاطته بها ، بالسرير المريح جداً ، وتكاسل الباشا اللذيذ الناعس الذي تراجع من العالم خلال فصل من الثلج والجليد . كان هو يقوم بهروبه في الربيع أما أنا ، أنا بقيت وأحياناً ، كالآن ، حين أنسى نفسي ، أدخل مستنبتاً زجاجياً للورود محاولاً أن أوضّح لها سر قرار آرجونا .

***

قرابة المساء ملت صوب المقهى لأقابل السيد تسوتسو . وأصرّ على أن أرافقه الى شقته الصغيرة حيث كان ينوي تقديمي الى حلقته الأدبية الصغيرة . ورحت أتساءل حول وعاء الأرز وكيف سأحصل عليه .

كان المعتزل مخفياً عن الأنظار في علّية بناء خرب ذكّرني وبقوة بمكان ولادة جيونو التوراتي في مانوسك . كان مختلى من النوع الذي قد يكون القديس جيروم أقامه لنفسه أثناء منفاه في أرض غريبة . في الخارج ، في هيراكليون البركانية النائية ، حكم أوغسطين ، وهنا وسط الكتب البالية ، واللوحات ، والموسيقى ، كان عالم جيروم . في البعيد ، في أوروبا الأصيلة ، كان عالم آخر سينهار . قريباً سيضطر المرء للمجيء الى مكان مثل كريت ليكشف من جديد عن دلائل حضارة انقرضت . في مختلى تسوتسو الصغير هذا كان يوجد مقطع من كل شيء ساهم في الثقافة الأوروبية . هذه الغرفة ستدوم دوام الرهبان في العصور المظلمة .

أتى الأصدقاء واحداً بعد آخر ، أغلبهم شعراء . وكانت اللغة الفرنسية هي السائدة . ومن جديد ذكرت أسماء اليوت ، بريتون ، رامبو . تحدثوا عن جويس باعتباره سريالياً . وظنوا أن أميركا كانت تمرّ بعصر نهضة ثقافية . وتصادمنا . لا أستطيع احتمال هذه الفكرة ، المزروعة عميقاً في عقول صغار الناس ، وهي أن أميركا هي أمل العالم . ذكّرتهم بأسماء شعرائهم ، بالشعراء المعاصرين وروائيي اليونان . وانقسموا بين مؤيد ومعارض . فلم يكونوا متأكدين من فنانيهم . ورثيت لهم .

قدّم الطعام ، والخمر ، والعنب الجميل ، وكنت مضطراً لرفض جميعاً . قال تسوتسو « أظنك تودّ أن تتناول بعض الطعام والشراب » .

قلت له اني متوعّـك . وأصرّ « أوه ، هيا ، يمكنـك تنـاول القليل من السـمك البارد ، وهذا الخمر ـ يجب أن تتذوقه ـ لقـد جلبتـه خصيصـاً لك » وناشدني قانون الضيافة أن إقْبل . رفعت الكأس وشربت نخب مستقبل اليونان . وألحّ أحدهم عليّ لأتذوق الزيتون الرائـع ـ وجبـن الماعز الشهير . ولم أر حبة أرز واحدة أمامي . ووجدت نفسي أندفع من جديد ألى قاع الخنـدق قرب الحصـان الميت الـذي يعـج بالذبـاب الأخضر السمين السامّ .

« ومـاذا عن سينكلـير لويز ـ لقـد كان حتماً أحـد كتّـاب أمـيركا العظماء ؟ » .

وحين أنكرت هذا بدوا في شك تام من قدراتي النقدية . فمن اذن هو أعظم كتّاب أميركا ، هكذا سألوا . قلت « والت ويتمان . إنه الكاتب العظيم الوحيد الذي حصلنا عليه » .

« ومارك توين ؟ » .

أجبت « للمراهقين »

وضحكوا كما ضحك عليّ أشباه القردة في ذلك الصباح .

« إذن أنت تظن أن رامبو هو أعظـم من كل الشعـراء الأمـيركيين مجتمعين ؟ » . قال أحد الشبان متحدياً . « نعم ، هذا صحيح . أرى أنه أعظم من كل الشعراء الفرنسيين مجتمعين أيضاً » .

وكان هذا شبيهاً بإلقاء قنبلة وسطهم . وكما هو الحال دائماً ، يكون أكبر المدافعين عن التراث الفرنسي هم من خارج فرنسا . وكان من رأى تنبوتسو أن ينصتوا اليّ مطوّلا ، كان يظن إن وجهة نظري نموذجية ، تمثل

الروح الأميركية . وصفّق لي كما يصفق المرء لكلب بحر مدرّب بعد قيامه بعرض مع الصنج . وأصابني الغم من هذا الجو من النقاش العقيم . فألقيت خطبة طويلة بلغة فرنسية رديئة اعترفت بأني لست ناقداً وإني كنت دائماً مندفعاً وأحكامي مسبقة ، وإنه ليس لدي أن احترام إلا لما أحب . قلت لهم إني جهول ، وهذا ما حاولوا انكاره بعنف. قلت أنني أفضّل أن أحكي لهم حكايات . وبدأت ـ بحكاية حول سكير حاول أن يبتزّ مني دايماً في إحدى الأمسيات وأنا أمشي متّجهاً صوب جسر بروكلن . وشرحت كيف قلت لا للرجل بشكل آلي ثم ، بعد أن مشيت بضع ياردات تذكرت فجأة إن رجلاً طلب مني شيئاً فعدت مسرعاً وتكلمت معه . ولكن بدل أن امنحه دايْماً أو ربعاً ، وكان سهلاً عليّ ، قلت له إني مفلّس واني أردت أن أعلمه بهذا ، فقط . وقال لي الرجل ـ « هل أنت جادّ فيما تقول ، يا رفيق ؟ حسن ، إن كان الأمر هكذا فيسعدني أن أعطيك دايْماً من جيبي » وتركته يعطيني إياه ، وشكرته بحرارة ، وتابعت طريقي .

وجدوا فيها قصة ممتعة جداً . إذن هذا هو الحال في أميركا ؟ بلد غريب . . . يمكن حدوث أي شيء هناك .

قلت « نعم ، بلد غريب جداً » وقلت في نفسي إنه من الروعة أن لا أعود الى هناك أبداً وإن شاء الله لن أعود اليه أبداً .

سألني أحدهم « وماذا في اليونان حتى جعلك تحبها الى هذا الحد ؟ » .

ابتسمت . قلت « النور والفقر » .

قال الرجل « أنت رومانطيقي » .

قلت « نعم ، أنا مجنون بما يكفي لأؤمن أن أسعد إنسان على وجه الأرض هو صاحب أقل الحاجات . وأؤمن أيضاً أنه حين يكون لديك نور ، كالذي لديكم هنا ، تزول كل البشاعات . منذ أن أتيت الى بلدكم صرت أعرف أن النور قدسي اليونان مقدسة بالنسبة لي » .

« ولكن ألم تر مدى فقر الناس ، مدى بؤس حياتهم ؟ » .

قلت « رأيت بؤساً أسوأ منه في أميركا . فالفقر وحده لا يجعل الناس بائسين » .

« يمكنك أن تقول هذا لأن لديك ما يكفي و . . .

أجبت مسرعاً « أقول هذا لأني فقير طوال حياتي . أنا فقير الآن ، وليس معي إلا ما يكفي للعودة الى أثينا وحين أصل الى أثينا سيكون عليّ التفكير في الحصول على مبلغ آخر . ليست النقود ما يبقيني حياً - إنه إيماني في نفسي ، في قواي الخاصة . انني مليونير في الروح - وربما هذا هو أفضل ما في أميركا ، أي اعتقادك بأنك ستنهض ثانية » .

قال تسوتسو مصفقاً بيديه « نعم ، نعم ، هذا هو أروع شيء في أميركا : أنت لا تعرف الهزيمة أبداً » ملأ الكؤوس من جديد ورفعه ليقوم بنخب ، قال « في صحة أميركا ! أطال الله عمرها ! » قال آخر « في صحة هنري ميللر ! لأنه يؤمن في نفسه » .

عدت الى الفندق في اللحظة الحرجة . وغدا سأبدا حتماً حمية الأرز . أستلقي على السرير وأراقب الرجال ذوي القمصان في الجانب الآخر من الشارع . ذكّرني منظرهم بمشاهد مشابهة في شقق حقيرة في منطقة مجاورة لفندق برودواي المركزي ، في نيويورك - شارع غرين أو بليكر ، مثلاً . والمنطقة التي تتوسط المركز المالي المطمورة في أحشاء

الأرض .وكلاء بيع علب الكرتون . . . . ياقات السيللوز . . . . . القنّب . . . . مصائد الفئران . كان القمر ينطلق مسرعاً بين الغيوم . افريقيا ليست بعيدة جداً . في الطرف الآخر من الجزيرة مكان يدعى فيستيوس بينما أنا أنعس نقرت الآنسة سويدنبورغ على الباب لتبلغني أنه أتتني مخابرة من مدير الشرطة . سألتها « ماذا يريد ؟ » . لا تعرف . انزعجت . كلمة بوليس تملؤني رعباً . نهضت آلياً وبحثت في محفظتي عن إذن الأقامة ، تفحّصته لأتأكد من أني لا أتخطّى القانون . ماذا يمكن أن يريد مني ابن الحرام ؟ هل سيسألني كم لدي من النقود ؟ ففي الأماكن البعيدة يفكرون دائماً في أشياء حقيرة صغيرة يضايقونك بسببها . وغمغمت شارد الذهن«Vive la France» وخطرت لي فكرة أخرى . وضعت عليّ رداء الاستحمام ورحت أتنقل من طابق إلى آخر لأتأكد من عثوري على المرحاض عند الضرورة الملحّة . عطشت . قرعت الجرس وسألت أن كان لديهم ماء معدني . لم تفهم الخادمة ما أعني . كررت « ماء ، ماء » ناظراً حولي عبثاً بحثاً عن زجاجة لأصور لها ما عنيت . اختفت لتعود مع ابريق ماء مثلّج . شكرتها وأطفأت الأنوار . لساني جاف . نهضت وبلّلت شفتي ، مخافة أن تنزلق نقطة شاردة الى حلقي الملتهب .

في صباح اليوم التالي تذكرت أني نسيت أن أتصل بمكتب نائب القنصل طلباً للكتاب الذي وعدني . ذهبت الى مكتبه وانتظرت مجيئه . وصل وهو يشع سروراً . وكان قد كتب اهداءاً على الكتاب ، وأرادني أن أعلمه ، بعد قراءتي للكتاب ، مباشرة ، عن رأيي به . أثرت مشكلة الأرز بأبلغ دقة ممكنة ، بعد أن حاول أن يبيعني فكرة زيارة مستعمرة المجذومين في مكان ما على الجزيرة . أرز مطبوخ ؟ ولا أسهل من هذا .

ستطبخه لي زوجته كل يوم - وسيكون مدعاة للسرور . وقد أثّر بي نوعاً ما اسراعه لمساعدتي . حاولت تصوّر موظف فرنسي يتكلم بهذا الاسلوب - ولكن مستحيل . على العكس ، كانت الصورة التي تمثلت في خاطري هي صورة امرأة فرنسية تدير محلاً صغيراً لبيع التبغ في منطقة معينة عشت فيها عدة سنوات وكيف خطفت السجائر من يدي ، وكان ينقصني سوّين[34] ، وصرخت في وجهي بصوت مذعور قائلة إنه لا يمكن الوثوق من أحد ، وانهم سيتدمّرون ، والخ . وفكرت بمشهد آخر في مقهى آخر ، كنت فيه زبوناً مداوماً ، وكيف رفضوا إقراضي الفرنكين اللذين احتجتهما للدخول الى السينما . تذكرت كم غضبت حين تظاهرت أمامي إنها ليست صاحبة الدكان بل أمينة الصندوق وكيف أخذت الفكّة من جيبي ، لمجرد أن أثبت لها أن لدي بعض النقود . ورميت بها الى الشارع قائلاً - « هاك ، هذا رأيي في فرنكاتك القذرة ! » وهرعت النادلة الى الشارع وبدأت تبحث عن القطع النقدية الصغيرة الوسخة .

بعد ذلك بقليل ، وأنا أتسكع حول البلدة ، توقفت في دكان قرب المتحف يباع فيه هدايا للتذكار وبطاقات بريدية . ورحت أقلّب النظر في البطاقات على مهل ، والذي أعجبني من بينها كان وسخاً ومجعّداً . وتبرّع الرجل الذي يتكلم الفرنسية بطلاقة أن يحسّن من مظهر البطاقات . وسألني أن انتظر بضع دقائق بينما يهرع الى البيت لينظّفها ويمسّدها . قال انه سيجعلها تبدو وكأنها جديدة . كنت من شدة الذهول حتى أنه وقبل أن أتفوّه بشيء كان قد اختفى ، تاركاً الدكان في عهدتي . بعد دقائق قليلة دخلت زوجته . بدت لي غريبة المظهر كامرأة يونانية . وبعد تبادل بعض الكلمات أدركت أنها فرنسية ، وحين علمت

أني آت من باريس ، عبّـرت عن ابتهاجها الطاغي للتحدث معـي . وتابعنا الحديث بشكل جميل الى أن راحت تتحدث عن اليونان . قالت إنها تكره كريت ، فهي جامدة جداً ، كثيرة الغبار ، شديدة الحرارة ، وقاحلة جداً . كانت تشتاق لأشجار النورماندي الجميلـة لحدائـق ذات الجدران العالية ، والبساتين المثمرة ، والخ . ألا أوافـق معهـا ؟ قلت لا ، وببرود . قالت «Monsieur!» وهي تنهض بإباء وجلال ، وكأني صفعتها على وجهها .

قلت ، مؤكداً على النقطة الأساسية « انني لا أشتاق الى أي شيء ، وأعتقد أن هذا رائع . لا أحب حدائقك ذات الجدران العـالية ، ولا أحب بساتينـك الجميلـة الصغـيرة وأراضيك المحروثـة جيداً أحـب هذا . . . . . . » وأشرت الى الخارج حيث الطريق الترابية التـي كان يتهادى عليها حمار مكتئب مضروب حتى الانهاك . قالت « ولكنه غـير متحضرٍ » بصوت زاعق ، حاد ، ذكّـرني بصاحب دكان التبغ الحقير في شارع لا تومب ـ ايسوار .

انفجــرت صائحـاً «Je m'en fous de la civilisation européan.» قالت ثانية «Monsieur!» وقد انتفش ريشهـا وازرقّ نفها حقداً .

ولحسن الحظ ظهر زوجها من جديد عند هذه النقطة من البطاقات البريدية التي نظّفها تماماً . شكرته بحـرارة وابتعـت كمية أخـرى من البطاقات اخترتها لا على التعيين . وقفت أنظـر حولي ، أتسـاءل ماذا أشتري لأبدي تقديري . كانـت المرأة قد تغاضـت عن ملاحظاتـي في غمرة حماسها لتبيعنـي بعض التوافـه . قدّمـت لي وشاحـاً محـاكاً باليد ومسّدته برقّة . قلت « شكراً ، لا أرتديها » قالت « ولكن يمكن أن يكون

هدية مناسبة ، من كريت التي تعشقها » هنا أرهف زوجها أذنيه .

وسأل « أتحب هذا المكان ؟ » ناظراً إليّ باستحسان . قلت « إنه مكان رائع ، إنها أجمل أرض رأيتها ، وأتمنى لو أستطيع العيش هنا طوال حياتي » .

اسقطت المرأة الوشاح بقرف ، وتوسّل الرجل اليّ قائلاً « عُدْ إلينا ثانية ، وسنتناول الشراب معاً ، نعم ؟ » صافحته وقدّمت إيماءة باردة للزوجة .

قلت في نفسي ، يا لها من خوخة جافة . كيف يمكن ليوناني حار الدماء أن يعيش مع شيء كهذا ؟ لا بد أنها توبّخه الآن بقسوة لأنه كبّد نفسه مشقّة إرضاء غريب جاهل . وتمكّنت من سماعها وهي تقول بذاك الصوت الصارّ ، المخنوق «Les Americans, ils sont tous les mêmes; ils ne savent pas ce que c'est la vie. Des barbares, quoi!». (35)

وانطلقت في الطريق المتربة ، الحارة ، والذباب يقرص كالمجنون ، والشمس تلسع النتوءات الصغيرة التي على ذقني ، أرض الـ Ur تدور في خوائها الذاتي التسمّم ، وأجبتها بسعادة « نعم ، أنت على حق ، أيتها العاهرة . طبعاً لا أحب الحدائق ، وأصص الأزهار ، والحياة الحقيرة الرخيّة . لا أحب النورماندي . أحب الشمس والعراء ، والضوء . . . . »(36) .

بعد أن طرحت هذا عن صدري رحت أصدح بأغنية نابعة من قلبي ، وأحمد الله لأن العرق الزنجي العظيم الذي يحافظ وحده على

اميركا من الانهيار لم يعرف أبداً رذيلة الاقتصاد في الإنفاق . أطلقت أغنية من أعماق قلبي للدوق الينغتون (37)، ذاك الكوبرا الرقيقة ، السوبر متحضّر ، المزدوج المفصل ذو الرسغين الملبّسين بالفولاذ ـ والكونت باسي (38) (طلبتكِ بالأمس وها أنتِ تأتين اليوم) (39) وللأخ إيزادور دوكاس الضائع منذ زمن طويل وآخر المنحدرين مباشرة من العظيم الأوحد رامبو .

***

يا مدام ، ما دمت تتكلمين عن الحدائق ، دعيني أخبرك مرة واحدة ووحيدة كيف يعمل الديبسي دودل . هاك لحن باساغليا ينفعك في الزركشة هذا المساء وأنت تحيكين . وكما يقول جو دَدْلي في فريق الموان ، تمنح الطبول شعوراً بشيء حاضر . سأبدأ بقفزة الساعة الواحدة ، بـ Maxixe à la Huysmaus

يا مدام ، إن الأمر هو كما يلي . . . كانت هناك أرض . ولم يكن فيها أسوار ولا بساتين . لم يكن فيها إلا رجل يعزف البوغي ووغي إسمه أغاممنون . بعد فترة من الوقتُ رُزق بولدين ـ أبامينونداس ولوي الأرمسترونغ . اتجه أبامينونداس للحرب وبناء الحضارة ، بأسلوبه الغادر ، (الذي يدفع حتى الملائكة الى البكاء) وحقق ذاته ، وبهذه الطريقة جلب الوباء الأبيض الذي انتهى في بهو قصر كليمنسترا حيث تتجمّع الآن بركة آسنة . أما لوي فكان للسلام والفرح . السلام ، ما أروعه ! » هكذا كان يهتف طوال يومه .

ولما رأى أغاممنون إن أحد إبنيه يملك الحكمة ، ابتاع له طوقاً ذهبياً ، قائلاً له « إمضِ الآن واعزف للسلام والفرح في كل مكان ! »

لم يذكر شيئاً عن الأسوار أو الحدائق أو البساتين . لم يذكر شيئاً عن بناء الكاتدرائيات ، قال « إمضِ ، بني ، إنفخ عبر الفيافي ! » ومشى لوي في أرجاء العالم ، الذي كان قد أمسى مكاناً للحزن ، ولم يأخذ معه إلا الطوق الذهبي .

وسرعان ما اكتشف لوى ان العالم مقسم الى أبيض وأسود ، بقسوة ومرارة . وأراد لوى أن يجعل كل شيء ذهبياً ، ليس كالقطع النقدية أوْ الأيقونات بل كعيدان الذرة الناضجة ، ذهبياً كنبات عصا الذهب ، الذهب الذى يمكن للجميع النظر اليه وتلمُّسه والالتفاف حوله .

ولما وصل الى مونيمفاسيا ، وتقع في الطرف الأدنى من بلاد البيلوبونيزوس ، استقلّ لوي الحانة المتوجهة الى ممفيس . كان القطار مملوءاً بالبيض الذي جرفهم أخوه أبامينونداس الى الجنون من البؤس . وانتابت لوي رغبة جامحة في ترك القطار والجري بقدميه العاريتين المتألمتين خلال نهر الأردن . أراد أن ينفخ في زرقة السماء ، ينفخ بكل ما أوتي من قوة .

وصدف أن توقف القطار عند تقاطع توكسيدو ، ليس بعيداً عن زاوية شارع منسن . وكانت هذه هي الفرصة المواتية لأن لوي شعر باقتراب كارثة ما . ثم تذكر ما قاله له أبوه مرة ، أي أغاممنون الشهير ـ أولاً تماسكْ وكن هادئاً كعفريت بارع ، ثم إنفخ ! وضع لوي شفتيه الغليظتين الجميلتين على الطوق الذهبي وراح ينفخ . وعزف لحناً واحداً عظيماً ضخماً ونكِداً مثل افتتاحية'tin: B rat (40) وطفرت الدموع من عينيه وجرى العرق على عنقه . وشعر وي إنه يجلب السلام والفرح لكل العالم . وملأ رئتيه من جديد وعزف لحناً متوهجاً امتد عميقاً داخل قبة

السماء الزرقاء حتى تجمّد وظل معلّقاً في الفضاء نجماً يشع كحجر كريم . نهض لوي واقفاً ولوى الطوق حتى صار انتفاخاً عظيماً مشعّاً من النشوة . كان العرق ينضح جارياً منه كنهر . كان لوي في غاية السعادة حتى أخذت عيناه أيضاً تنزّان العرق وصارتا بحيرتي فرح ذهبيتين ، سَمّى إحديهما ملك طيبة تيمّناً بأوديب ، أقرب المقرّبين اليه ، الذي عاش ليقابل السفينكس .

وفي يوم معيّن حلّ الرابع من تموز ، وهو يوم الديبسي دودل(١) في الوالاً والاً . في ذلك الحين كان لوي قد صنع بضعة أصدقاء وهو يعزف في الأرض الجديدة . أحدهم كان كونتاً وآخر دوقاً كانوا يحملون جرذاناً صغيرة بيضاء على أطراف إصابعهم ، ولما لم يعودوا يحتملون ذاك العالم الحزين ، ذا الجوف الأبيض ، راحوا يقرصون بأطراف أصابعهم واذا بمكان القرص يغدو مخبراً مملوءاً بخنازير غينيا أصابها الجنون من كثرة ما أجري عليها من تجارب . كان الكونت خبيراً بإصبعين ، خُلِق ضئيلاً ومستديراً كقاعة الروتوندا المقبّبة ، بشارب صغير . دائماً يبدأ - بنْك - بنْك - ! بنْك للسُم ، وبنْك للحرق المتعمّد كان هادئاً متماسكاً ، كغوريلا منطوية ، حين تغوص في أعماق ما يجب القيام به ، تتكلم الفرنسية كمركيز أو ترطن بالبولندية أو الليثوانية . لم يبدأ أبداً البداية نفسها مرتين وعندما ينتهي ، خلافاً لغيره ممّن يمارسون التسميم والحرق ، فهو دائماً يتوقف . كان يتوقف بغتة ، وتغوص البيانو معه والجرذان الصغيرة البيضاء أيضاً والى المرة القادمة . . .

من ناحية أخرى ، فالدوق دائماً يهبط من الأعلى مرتدياً رداء استحمام بحواف فضّية . والدوق مثقّف في السماء حيث في سنيه الأولى

تعلّـم العزف على الهَارْب النفيس وآلات الفيبرافـويد السماوية . كان دمثاً دائماً ، ودائماً هادئاً . حين يبتسم تتشـكّـل حول فمـه أكاليل من الجبلّة الحية . لونه المفضل هو النيلي وهو نفسه لون الملائكة حين يغرق العالم كله في النوم .

وثمة آخرون أيضاً طبعاً ـ جو[42] مَلاَك الشوكولاة ، وتشيك[43] الذي كان قد بدأت تنبت له أجنحة ، وبيغ سيد[44] ، وفاتس وأيللا[45] وأحياناً ليونيل[46] الفتى الذهبي الذي يحمل كل شيء في قبعته . وكان لوي موجوداً دائماً ، طبعاً ، كما هو ، مع الابتسامة العريضة التي تساوي مليون دولار مثل سهل آرغيف نفسه وفتحتا أنف ملساوان ، ومصقولتان ، تلمعان كأوراق شجرة المغنوليا .

في يوم الديبسي دودل كانوا يجتمعون سوية حول الطوق الذهبـي ويقيمون حفلة لمتعهم الخاصة ـ حفلة تبشيرية . أي ، تشيك الذي كان كالبرق المفلفل ، دائماً يومض أسنانه ، ويبصق أحجـار نرد وكرات ، وتشيك يشبك اللحن كالدغل ويعيده كالنسيم . لماذا ؟ قد تقول . لماذا نُحضرِ مبشراً ضخماً مزيّتاً ، أقول لنقليه بالزيت ، هذا هو السبـب . وجو ، الذي كان عمله هو إعطاء ذاك الشعور المؤكد بشيء حاضر ، جو هو للمحافظة على اللحـن الخلفـي مثـل حوض كلية مطاطـي لتجميع البول .

إغليهـم أحياءاً ، بريشهـم وكل شيء ـ هكذا يعمـل الـديبسي دودل إنه بربري ، يا مدام ، ولـكن هكذا هو . لم يعـد هنـاك أية بساتين ، ولا أسوار . يقول الملك أغاممنون لابنه « يا ولـدي ، أحضر تلك الأرض ! » . ويحضرها الولد . يحضرهـا تووتلن وبَغْلِن . يحضر أزهار الذهب والسـافراس الأصفر ، يحضر ديوكا ذهبية صغيرة وكلابَ

سبينيل صغيرة حمراء كالنمور . لا مزيد من التثقيف التبشيري ، لا مزيد من البامي بامونداس . قد يكون هانيبعل ، أو.M.O (*) ، أو قرطاجة ، أو إيلي - إيلي . قد يكون القمرَ منخفضاً ، أو نوعاً من التأبين . قد يكون لا شيء أيضاً ، لأني لم أعطه إسماً بعد .

يا مدام ، سأنفخك حتى تنكمشين كثيراً وأجعلك تتلوّين كالحية . سآخذ لحن فات رات بَسْتن وأنفخك لتعودي الى الـKingdom Come . أتسمعين ذاك التابن رابن ؟ أتسمعين تلك الدجاجة تئن من ألم كبدها ؟ إنه البوغي ووغي يلتقط أنفاسه . إنه مبشرٌ يزبد كاليخني . أتسمعين ذاك الزعيق العالي والحاد ؟ إنها ميمي تموء . إنها صغيرة وضئيلة ، وكأنها طالعة من الأرض . اليوم حفلة ، وغداً حفلة على مزاجهم . لا أحد يهتم ، لا أحد يقلق . لم يعد ثمة من يموت حزناً ، لأن الأرض القديمة السعيدة ملآى بالأطواق . انفخ ريحاً ! إنفخ غباراً في العيون ! إنفخ حاراً وجافاً ، انفخ اسمر وعارياً ! انفخ البساتين حتى تبيدها ، إنفخ الأسوار . البوغي ووغي عاد من جديد . البوغي ووغي يدندن بِنْك - بِنْك . بِنْك للتسميم ، وبِنْك للإحراق . ليس له قدمان ، ليس له يدان . البوغي ووغي يحفُّه في طول البلاد وعرضها . البوغي ووغي يزعق . البوغي ووغي يزعق أيضاً . البوغي ووغي يزعق مرة ، بعد مرة ، بعد مرة ، بعد مرة . لا أسوار ، لا أشجار ، لا شيء أبداً . تش وبيش وبيش وتش . الجرذان تتحرك ، ثلاثة جرذان ، أربعة جرذان ، عشرة جرذان . ديك واحد ، جرذ واحد . القطار يقول تشوتشو . الشمس مشرقة والطريق حارة ومغبرة . الأشجار تتهلّم ، الأوراق تتفتّت . لا رُكَب ، لا أيدي ، لا أصابع أقدام بين أصابع

(*) .M.O قد تعني المراقبة العامة ، أو ضابط طب ، أو حوالة بريدية !

يديه . فقط يصنع تناغماً . إنه آت على الطريق يضع بانجو على ركبتيه . إنه يدق وينقر . يدق التاباهانا ، وينقر راباهانا . دم على أصابعه ودم في شعره . إنه غائص ، هو وعِدّته ، والدم على ركبتيه .

عاد لوي الى الوطن وهو يضع حدوة حصان حول عنقه . إنه يستعد ليعزف لحن فات رات بستن سيخفق الأزرق والرمادي في طوق ملويّ مجنون . لماذا يريد فعل هذا ؟ ليبدي رضاه . كل الحروب والحضارات لا تفيد أحداً . لا تجلب سوى الدمار في كل مكان ويصليّ الناس ليحل السلام .

في القبر الذي دفنوه حياً يرقد أبوه أغاممنون . كان أغاممنون رجلاً شبه آلة يشع وكان آلهاً حقاً . أنجب ولدين هما على طرفي نقيض . أحدهما بذر البؤس في كل أرجاء العالم والثاني نثر الفرح .

يا مدام ، أنا أفكر بك الآن ، بنتانة الماضي الزنخة الحلوة التي رميتها . أنت المدام نوستالجيا تتعفّنين في مقبرة الأحلام المعكوسة . أنت شبح أسود بالنسبة لكل من يرفض أن يموت ميتة طبيعية . أنت زهرة قرنفل ورقية رخيصة ذات أنوثة ضعيفة عقيمة . أنا أتبرّأ منك ، ومن بلدك ، وأسوارك ، وبساتينك ، ومناخك المعتدل ، المغسول والمكوي باليد . أناشد أرواح الغاب الحاقدة لتغتالك أثناء نومك . أوجّه الطوق الذهبي اليك لأرهقك في آلامك الأخيرة . أنت بياض بيضة عفنة . أنت تفوحين نتانة .

يا مدام ، ثمة دائماً فرصة لاختيار أحد طريقين : أحدهما العودة الى راحة وأمان الموت ، والثاني الى الأمام نحو المجهول . وأنت تفضلين أن تنطرحي بين الشواهد الحجرية الأليفة لديك وأسوار المقبرة الودود .

انطرحي ، إذن ، غوصي عميقاً ودون رجعة في محيط العدم . انطرحي في ذاك السبات اللعين الذي يتيح للبلهاء أن يتوّجوا ملوكاً . انطرحي وتلوّي عذاباً من الدود النشوئي . سأتابع طريقي ، سأمر بآخر الساحات البيضاء والسوداء . انتهت اللعبة ، وذابت الشخوص ، وبلي الشعر ، والخشبة تعفّنت . كل شيء عاد بربرياً من جديد .

ما الذي يجعل الأمر محبّباً وبربرياً ؟ إنه فكرة العدم . عاد البوغي ووغي والدم على ركبتيه . قام بقفزة الساعة الواحدة الى أرض الجيهوشافات . رافقوه في نزهة بعربة الحصان . صبّوا الكاز على شعره المفتّل واحرقوه كله . أحياناً ، حين يبدأ الكونت بالبِنْك ـ بِنْك ، حين يقول لنفسه ـ أي لحن حزين سأعزف الآن ؟ ـ بوسعك أن تسمع اللحم يئزّ ويمطّ . حين كان صغيراً وقميئاً هرسوه تماماً بهرأسة البطاطا . ولما صار أكبر وأطول رفعوه من أحشائه بالمذراة .

وطبعاً قام أبا مينونداس بعمل هائل لتحضير(*) كل شخص بالجريمة والحقد . وأضحى العالم كياناً حياً واحداً كبيراً وعظيماً يلفظ أنفاسه من سم العفن. تسمّم في نفس الوقت الذي بدأ فيه كل شيء ينتظم بروعة . أصبح أحشاءاً قذرة ، جوف أبيض يعج بالديدان لبيضة عفنة ماتت قبل أن تفقس ؛ يولّد جرذاناً وقملا ، وأقداماً خندقية وأسناناً خندقية ، أنتج تصريحات وتمهيدات وبروتوكولات ، أنتج توائم مقوّسة السيقان وخصياناً صلعاً ، أنتج علماً مسيحياً وغازات سامة وثياب داخلية بلاستيكية وأحذية زجاجية وأسناناً بلاتينية .

يا مدام ، إنك ، كما أفهم ، تريدين الاحتفاظ بهذا البديل

(*) من حضارة .

المصطنعٌ الذي هو حزنٌ وقربٌ ووضعٌ راهنٌ مكوّرون في كرة لحمية ضخمة واحدة . تريدين أن تضعيها في مقلاة وتقليها عندما تجوعين ، أليس كذلك ؟ يريحك ، حتى وان لم يكن فيها أي غذاء ، ان تسميها حضارة ، أليس هذا هو الحال ؟ يا مدام ، إنك مخطئة بشناعة ، ببؤس ، برعب ، بحتمية . علّموك تهجئة كلمة لا معنى لها إذ لا وجود لشيء إسمه حضارة ! ثمة عالم واحد كبير بربري واسم صائد الفئران هو بوغي ووغي . له إبنان واحدهما علق في العصّارة ومات مشوّهاً ومجدولاً ، ويده اليسرى تنتفض كسمكة مفلطحة . والآخر حي ينسل كبيوض سمك الشابل . إنه يحيا بفرح بربري وليس معه غير الطوق الذهبي . وذات يوم استقل الحانة المتوجهّة الى مونيمفاسيا ولما وصل الى ممفيس نهض ونفخ لحن فات رات بستن أطَارَ كتلة اللحم من المقلاة .

سأتركك الآن ، يا مدام ، لتذبلي في شحمك المهذّب . سأتركك لتضمحلّ الى بقعة سمنيّة . أغادرك لأصدح بأغنية من أعماق قلبي . أنا في طريقي الى فيستوس ، آخر جنة على الأرض . هذا مجرد لحن باساكا غاليا تشغلين به أصابعك وأنت منكبّة على حياكتك . إذا رغبت في شراء آلة خياطة مستعملة اتّصلي بشركة الجريمة ، والموت ، والبلاء ، في أوسويغ بساسكاتشوان ، فأنا الوكيل الحي الوحيد ، المفوض في هذا الجانب من المحيط وليس لدي رؤساء دائمون . ومن اليوم فصاعداً ، وبعد المعاينة ، ووضع الأختام والطوابع بوقار ، أتنازل بكل اخلاص ، والتخلّ ، وألغي ، وأقلب ، وأنيك القوى ، والموقّعين ، والأختام والمناصب لأجل السلام والفرح ، والغبار والحرارة ، البحر والسماء ، الله والملائكة ، بعد أن قدّمت أفضل جهودي لإنجاز واجبات المتعامل ، والتاجر ، والمفسد ، والهادم ، والخائن لانتاج آلات الخياطة المتحضّرة

الملوّثة التي تصنعها شركة الجريمة ، والموت ، والبلاء في مناطق كندا ، وأستـراليا ، ونيوفوندلانـد ، وباتاغـونيا ، ويوكاثـان وشليسفيغ هولشتاين ، وبوميرانيا وأقاليم أخرى متحافلة ، وخاضعة مسجلّة باسم موت ودمـار كوكب الأرض أثنـاء السيطـرة السابقـة لعائلـة الانســان البيولوجي على مدى الخمسة والعشرين ألف سنة الأخيرة .

والآن . يا مدام ، بما إنه لا يوجد أمامنا طبقاً لهذا العقد إلا بضعة آلاف من السنين ، أقول بِنْك ـ بِنْك واستودعك الله . هذه هي النهاية تماماً . بِنْك ـ بِنْك !

***

وقبل أن أتمكن من الحصول على الأرز المطلوب بدأت تمطر غزيراً ، بل أمطاراً رطبة ، متقطّعة ، نصف ساعة من الرذاذ ، وابلاً قصيراً بعد قصف الرعـد ، رشاشـاً ناعما دافئـاً ، رذاذاً بارداً ، حمّامـا من الابـر الكهربائية . استمر الحال اياماً . لم تتمكن الطائـرات من الحـطّ لأن الضباب الكثيف كان يلفّ المدرّجات . أصبحت الطرقات عبـارة عن مخاط لزج أصفر ، وتجمّـع الذبـاب بمـدارات دائخـة ، سكرى حول الرؤوس وهو يعض كالعفاريت . داخل البيوت الجو بارد ، رطب ، وتنمو الفطور . نمتُ بملابسي ووضعت معطفي فوق الملاءات وأحكمت اغلاق النوافذ . حين بزغت الشمس كان الجو قد بات حاراً ، حرارة افريقية تشوي الطين وتشقّقه ، وتصاب بصداع وينتابك القلق ويزداد مع هطول المطر . كنت مشتاقاً للذهاب الى فيستوس لكني بقيت لأؤجل المشروع حتى يتغير الطقس . رأيت تسوتسو ثانية ، وقـال لي ان مدير الشرطة كان يسأل عني . قال « يريد أن يراك » . ولم أجرؤ على السؤال عن السبب ، وقلت اني سأقوم بزيارته قريباً .

بين فترات الرذاذ والمطر الغزير استكشفت البلـدة بشمـول

أكثر . أذهلتني ضواحي المدينة في الشمس حرارة بالغة ، وفي المطر برد متسلل . تنتهي المدينة من جميع جوانبها على حين غرّة وبسرعة ، مثل كليشة محفورة مغموسة في وعاء من الزنك الأسود . وبين الحين والحين أمر بديك رومي مربوط الى أكرة باب بخيط ، والماعز موجود دائماً بالاضافة للحمار . وجدت أيضاً أشخاصاً قميئين وأقزاماً رائعين يتجولون بحرية وراحة ، انهم ينتمون للمشهد العام ، كالصبار ، كالحديقة العامة المهجورة ، كالحصان الميت الملقى في الخندق ، كالديوك الرومية الأليفة المربوطة الى أكَر الأبواب

على طول الواجهة المائية كان يوجد صف يشبه الناب من البيوت خلف فسحة معدّة على عجل ، تذكّر بشكل غريب بأحياء قديمة معينة في باريس حيث بدأت البلدية تُوجِدُ ضوءاً وهواءاً لأطفال الفقراء. في باريس يحوم المرء من حي الى اخر خلال معابر غير محسوسة ، وكأنه يخترق ستائر خرزية خفيّة . في اليونان التغييرات حادة ، مؤلمة تقريباً . في أماكن معينة يمكنك أن تمر بكل التغيرات التي طرأت عبر خمسين قرن في مدة خمس دقائق . كل شيء مرسوم بدقّة ، منحوت ، محفور . حتى الأراضي البور يحوطها طابع الخلود . ترى كل شيء بفرادته - رجل معين يجلس على طريق معينة تحت شجرة معينة حمار معين يرتقي سبيلاً معيناً قرب جبل معين : سفينة معينة في ميناء معين في بحر معين فيروزي : طاولة معينة على مسطبة معينة تحت غيمة معينة وهكذا وأينما نظرت ترى الشيء وكأنما لأول مرة ، انه لن يهرب ، لن يفنى بين ليلة وضحاها ، لن ينحلّ أو يذوب أو يثوّر نفسه . كل شيء مفرد موجود ، سواء خلقه الله أو الأنسان ، سواء كان تصادفياً أو مخططاً له ، يبرز واضحاً في هالة من النور ، والزمان والفراغ . الشجيرة مساوية

للحمار ، والجدار فعّال كبرج الكنيسة ، والبطيخة جيدة كالانسان . لا شيء يستمر أو يدوم الى ما بعد وقته الطبيعي ، لا وجود لارادة حديدية تشق طريق سلطانها الشنيعة . بعد مسيرة نصف ساعة تستعيد نشاطك وقد استنفذك تنوُّع الشذوذ والتشتت . وتبدو جادّة الحديقة العامة بالمقارنة مجنونة وهي مجنونة بلا شك . ان أعْتَق بناء في هيراكليون سوف يعمِّر أكثر من أحدث بناء في أميركا . الكائنات الحيّة تموت ، أما الخلية فتبقى حية . الحياة هي في الجذور ، مطمورة في البساطة ، مؤكلدة نفسها بفرادة .

بقيت على اتصالي الدائم بمنزل نائب القنصل طلباً لطبق الأرز . أحياناً يكون لديه زوار . وذات ليلة هبط عليه فجأة رئيس شركة الخياطين التجار . كان قد عاش في أميركا ويتكلم انكليزية غير مألوفة ، وعتيقة . فيقول « أيها السيد ، هل تود تدخين سيجار ؟ » قلت له إني كنت ذات يوم خياطاً . وأسرع نائب القنصل بالقول « وهو صحافي أيضاً ، وقد قرأ كتابي لتوه » . وأباشر الكلام عن بطانة الألبكا ، والتسريح ، وطي السترة الناعمة ، ونسيج الفيكونيا الجميل ، والجيوب ذوات اللسان ، والسترات الحريرية والبذلات المزركشة . تحدّثت عن هذه الأشياء باندفاع خوفاً من أن يدير نائب القنصل دفة الحوار الى موضوعه المفضّل . لم أكن متأكداً تماماً ان كان رئيس الخياطين أتى كصديق أو كخادم مفضّل . لم آبه ، وقررت أن أجعل منه صديقاً ان كان هذا سيبعده عن موضوع ذاك الكتاب الجحيمي الذي ادّعيت قراءته ولم أقدر على هضمه بعد الصفحة الثالثة .

سأل الخياط « أين كان دكانك ، أيها السيد » ؟

قلت « الشارع الخامس ، وكان ملكاً لوالدي »

قال « الشارع الخامس ـ إنه شارع فخم جداً ، أليس كذلك » ؟

وهنا أرهف نائب القنصل أذنيه .

قلت « نعم ، كان لدينا أفضل الزبائن ـ كلهم أصحاب بنوك ، ومضاربون ، ومحامون ، ومليونيريون ، وأصحاب مصانع مغنطة الحديد والصلب ، وأصحاب فنادق ، الخ » .

قال « وهل تعلّمت كيف تقص وتخيط » ؟

أجبت « أستطيع تفصيل سراويل فقط ، أما المعاطف فشديدة التعقيد »

« وكم كنت تأخذ للبذلة ، أيها السيد » ؟

« أوه ، في ذلك الحين كنا نطلب فقط مائة أو مائة وخمسة وعشرين دولاراً . . . »

استدار الى نائب القنصل وطلب منه أن يحسب له كم يساوي هذا المبلغ بالدراخما . وحسبها ، وكان واضحاً أثر المبلغ على نائب القنصل . لقد كان مبلغاً صاعقاً بالعملة اليونانية ـ يكفي لشراء سفينة صغيرة . وشعرت انهما كانا مرتابين نوعاً ما . وبدأت الكلام بكثير من الافاضة ـ عن أدلّة التليفون ، ناطحات السحاب ، شريط التلغراف الكاتب ، الفوط الورقية وكل المعدّات الحقيرة التي تعرضها المدينة الكبيرة وتجعل الفلاح يدير عينيه وكأنه رأى البحر الاحمر ينشق . لفت شريط التلغراف الكاتب انتباه الخياط . وقد ذهب مرة الى شارع وول ستريت في زيارة سوق الاوراق المالية . وأراد أن يتكلم عن هذا . سألني بحياء ان لم يكن ثمة اناس في الشارع يديرون اسواقهم الخاصة . وراح يتكلم باشارات الصم والبكم كما يفعلون في سوق الرصيف . نظر اليه نائب القنصل وكأنه تأثر قليلاً . وهرعت لنجدته . وطبعاً كان هناك أناس من

هذا النوع ، بل الآلاف منهم ، وكلهم مدربون على لغة الصم والبكم الخاصة هذه ، وأكدت هذا بقوة وقفت ورحت اقوم بنفسي ببعض الاشارات ، لأبين كيف تؤدى. ابتسم نائب القنصل . وقلت انني سأرافقها الى داخل سوق الاوراق المالية ، الكائن في الطابق نفسه . ووصفت ذاك المكان الجنوني بالتفصيل ، سامحاً لنفسي باقتطاع شرائح من نحاس الاناكوندا ، والقصدير الملغم ، وشركة البرق والبريد والهاتف ومن كل ما تذكرت من ماضي شارع وول المجنون ، سواء كان قابلاً للانفجار ، للاحتراق او لتسكين الألم . جريت من زاوية في الغرفة الى أخرى ، أشتري وأبيع كالمهووس ، أقف عند طاولة نائب القنصل ، أتصل بسمساري ليُغرِقْ السوق ، منادياً على صاحب البنك الذي أتعامل معه ليقرضني على الفور خمسين ألفاً ، وهاتفاً لموظفي البرق ليحرروا لي سلسلة من البرقيات ، وأخابر وكلاء الحبوب والقمح في تشيكاغو ليغرقوا كمية منه في الميسيسيبي ، متصلاً بسكرتير وزارة الداخلية لأسأله إن مرّت عليه تلك المذكرة بخصوص الهنود ، هاتفاً لسائقي أُخبره أن يضع دولاب احتياط جديد خلف المقعد الاضافي ، متصلاً بصانع القمصان لألعنه لأنه جعل الياقة ضيقة جداً في القميص القرمزي والأبيض ولماذا لم يكتب عليه الحرفين الاولين من اسمي . مشيت فوق المقعد ازدرد ساندويشاً من مقصف المصرف . أقول هالو لأحد الاصدقاء كان صاعداً إلى مكتبه لينسف دماغه . اشتري مجلة السباقات الرياضية وأحشر قرنفلة في العروة . ألُمّ حذائي ، وأنا أجيب على البرقيات وأتصل هاتفياً باليد اليسرى . اشتريت بضعة آلاف من أسهم شركة السكة الحديدية وأنا شارد الذهن وأنتقل للحديث مع شركة الغاز الموحدة مُحْدِساً ان مشروع القانون الحكومي الجديد سيحسّن حصة ربات البيوت . وأكاد أنسى قراءة تقرير حالة الجو . ولحسن الحظ

كان علي أن أهرع عائداً إلى بائع التبغ لأملأ الجيب الصدري بحفنة من سيجار كورونا ـ كورونا وهذا ذكرني أن أنظر الى تقرير حالة الطقس لأرى ان كانت امطرت في منطقة اوزارك .

كان الخياط يبصبت جاحظ العينين « هـذه هي الحقيقة » قالها بانفعال لزوجة نائب القنصل التي اعدت لي للتو طبقاً آخر من الارز الرخو . وفجأة تبين لي ان ليندنبرغ كان عائداً من أوروبا . هرعت الى المصعد واستقليت الاكسبريس الى الطابق الـ109 من المبنى الـذي لم يُبْنَ بعد . جريت الى النافذة وفتحتها كان الشـارع مختنقـاً بالنـاس المرحين بسُعر ، رجالاً ونساءاً واولاداً وبناتاً ، وشرطة الفرسان ، شرطة المرور ، شرطة عاديين ، لصوصـاً ، ثيرانـاً ، رجـالاً بثياب بسيطـة ، ديموقراطيين ، جمهـوريين ، مزارعـين ، محامـين ، بهلوانـات ، قطـاع طرق ، موظفي بنوك ، كتّـاب اختـزال ، موظفـي متاجـر ، اي شيء يرتدي سروالاً او فستاناً ، اي شيء يبتهـج ، يصيح ، يصفـر ، يدق قدمه ، يقتل أو يقلـب رأسـاً على عقـب . الحمائـم تطـير في الـوادي الضيق . إنه برودواي . كانت سنة كذا أو كذا وبطلنا عائد من تجواله العظيم عبر القارات . وقفت عند النافـذة ورحـت أهلّل إلى أن صار صوتي أجشاً . إنني لا أومن بالطائرات لكنني مع ذلك هللت وتناولت شراب الجودار لأنظف حنجرتي . أمسكت دليل الهاتف . ومزقته إرباً كأني ضبعـة ممسوسـة . امسـكت بعض أشرطـة التلغـراف الكاتبـة . ورميت كل هذا على وسـخ الذبـاب ـ ونحـاس الأناكونـدا ، والزنـك الململغم ، وفولاذU. S ـ2 / 571-34-1389 ، ناقص اثنـان ، زائـد4 / 3-6-51 ، إنه يرتفع ، يرتفع عالياً ، خط الشاطىء الأطلسي ، الخط البحـري الجـوي ، ها هو آت ، أنـه آت ، ها هو ، ليندنبـرغ ،

هووراي ، هووراى ، أي شاب ، صقر السماوات ، بطـل ، أعظـم بطل في كل الأزمان . . .

تناولت ملعقة من الأرز لأهدِّىء نفسي .
سأل نائب القنصل « كم يبلغ ارتفاع أعلى بناء » ؟
نظرت الى الخياط ، وقلت « أجبه أنت »
وظن انه حوالي سبعة وخمسون طابقاً .
قلت ـ « إنه مائة واثنان وأربعون ، بدون سارية العلم »

نهضت من جديد لأمثّل . أفضل طريقة هي عدّ النوافذ . لناطحة السحاب المتوسطة حوالي92,546 نافذة خلفية وأمامية . حلَلْت حزامي وأعدته مكانه بغلظة ، وكأني أعمل منظّف نوافذ . اتجهت الى النافذة وجلست على حافتها الخارجية نظّفتها كلها . نزلت وذهبت الى النافذة الأخرى . فعلت هذا مدة أربع ساعات ونصف ، ونظّفت خلالها953 نافذة ، وكشطتها ودهنتها لتقاوم المطر .

سأل الخياط « ألا تدوخ » ؟
قلت « لا ، تعوّدت عليه ، لقد كنت مرة مصلح مداخن ـ بعد أن تركت العمل في تجارة الخياطة » ونظـرت الى السـقف لأرى ان كان باستطاعتي أن أقدّم عرضاً بالشمعدانات .

قالت زوجة نائب القنصل « من الأفضل أن تأكل الأرز » .

تناولت ملعقة أخرى على سبيل التـأدّب ومـددت يدي بشرود الى إبريق الكونياك . لا أزال منفعلاً لعودة ليندنبرغ الى وطنه . والحقيقـة اني كنت قد نسيت ، في ذلك اليوم حين حطّ في باتري ، اني كنت أحفر مصرفاً للمياه لمبنى الحديقة العامة في مقاطعـة كاتوبـا ، وكان منـدوب

الحكومة يلقي خطاباً في نادي البولينغ ، خطاباً كنت قد كتبته له قبلها بيوم .

صار نائب القنصل يتصرّف الآن كأنه في بيته داخل العالم الجديد . نسي إسهامه في الحياة وعالم الكتابة . وصب لي كأساً أخرى .

وسألت هل سبق للسيد الخياط أن ذهب لمشاهدة لعبة كرة قدم . لا لم يذهب . حسن ، لا بد إنه سمع بكريستي ماثيوسن - أو والتر جونسن ؟ لا لم يسمع . هل سمع بالكرة المرضّبة ؟ لا لم يسمع . أو « الركض الى البيت » ؟ لا وزّعت وسائد الأريكة على أرض الصالون - قاعدة ، إثنتان ، ثلاثة وصحن . أنفض الغبار عن الصحن بالفوطة . أضع شبكة التهديف . أدرك كرة سريعة مرّت من فوق الصحن مباشرة . إضرب ! ضربتان ويصبح خارج اللعبة ، شرحت . نزعت القناع وركضت الى داخل الملعب . رفعت ناظري ونقلته خلال السقف فرأيت الكرة تسقط من كوكب بلوتو . تلقّيتها بيد واحدة ورميتها الى الموقف القصير . قلت ، خرج من اللعبة ، كانت قوية . ثلاث جولات وينتهي الامر . ما رأيك بقليل من البوب كورن ؟ قنينة مياه غازية ، اذن ؟ أخرجت رزمة النعنع وحشرت ضلعاً في حلقومي . قلت ، دائماً أشتريه من عند وريغلي فهو يدوم أكثر . ثم انهم ينفقون 5,000,000,963,00 . دولاراً كل عام على الدعاية . وفّروا أعمالاً للناس . حافظوا على نظافة الشوارع الفرعية . . . ما رأيك بمكتبة كارنيجي ؟ هل ترغب في زيارة المكتبة ؟ خمسة ملايين ، ستة ملايين وثمانية وتسعون ألف مشترك موزّعون ..كل كتاب مجلّد تماماً ، ومصنّف ، ومعلّق عليه ، ومبخّر وملفوف بالسيلوفان . أهداها أندرو كارنيجي الى مدينة نيويورك في ذكرى حوادث الشعب في هومستيد . كان طفلاً

فقيراً شق طريقه الى القمة. لم يعرف يوم مرح واحد. كان مليونيراً عظيماً جداً أثبت فائدة العمل الشاق وتوفير البنسات . كان مخطئاً ، ولكن هذا لا يهم أبداً لقد مات الآن وترك لنا سلسلة من المكتبات لتجعل الكادحين أكثر ذكاء ، وثقافة ، ومعرفة ، باختصار ، أكثر بؤساً وتعاسة من أي وقت آخر ، تبارك قلبه . فلنذهب الآن الى ضريح غرانت . . .

نظر الخياط الى ساعته . وجد ان الوقت يتأخر . صببت لنفسي كأس قبل النوم ، أزلت الهدف الأول ، والثاني ، والثالث ونظرت الى الببغاء الذي كان لا يزال يقظاً لأنهم نسوا أن يغطوا القفص .

« كانت أمسية رائعة » قلت مصافحاً الجميع ، وصافحت الخادمة أيضاً خطأ . « يجب أن تأتوا لزيارتي وقت عودتي الى نيويورك . فلدي بيت في المدينة وآخر في الريف ، كما تعلمون . الطقس ممتاز في الخريف ، عندما ينزاح الدخان . انهم ينشئون مولّداً قرب سبايتون دويفل : وهو يدور بقوة الأمواج الأثيرية . لقد كان الأرز ممتازاً هذا المساء . والكونياك أيضاً . . . » .

***

غداً سأذهب الى فيستوس ، قلت لنفسي ، وأنا أعبر الشوارع التي تشبه أنياب أفعى ماء مفجوعة . كان عليّ أن أذكر نفسي إني في كريت ، كريت مختلفة تماماً عن التي تمثّلتها في أحلامي . ومن جديد تملّكني ذاك الشعور السائد في الصفحات الأخيرة من روايات ديكنز ، لأرض جذابة ، عرجاء ، مضاءة بقمر منهك . أرض تغلّبت على كل فاجعة وهي الآن تنبض بوجيب الدم ، أرض البوم ومالك الحزين والجثث المجنونة كالتي يجلبها البحارة من شواطىء أجنبية . تحت ضوء القمر ،

وأنا أبحر في الشوارع الصامتة كسفينة تغرق ، شعرت إن الأرض تحملني في منطقة لم أدخلها من قبل . كنت أقرب قليلاً إلى النجوم والأثير مشحون بقربها ، لم تكن فقط أكثر بريقاً ، أو أن القمر الذي تلوّن بلون البطاطا الحلوة قد انتفخ وانكفأ ، لكن طرأ على الجو تغيّر مرهف ، معطر . كان هناك فضْلة ، أو أكاد أقول ، إكسير تعلّق بالشذا الذي تُطلقه الأرض وقد اغتنى في جوهره من تكرار الأسفار الى هذه الزاوية المعينة من قبة السماء . كان حنيناً عاطفياً ، أيقظ تلك الحشود الخالدة من الأسلاف الذين وقفوا مطبقيّ العيون ، كالأشجار بعد ارتداد الطوفان ، في سيل الدم المتدفّق أبداً ومرّ الدم نفسه في تغيُّرات ، فتكثّف بذكرى سلالات حاكمة صنعها الانسان ، وحيوانات مسخَّرة للنبوءة ، وأدوات صُمّمت لتبقى دقيقة لألف عام ، وطوفانات كاسحة ، مجرَّدة من الأسرار ، مسلوبة الكنوز . وعادت الأرض ذاك المخلوق الغريب الأعرج يندفع بعزم وتردد مجتازاً الحقول المشعّة كالأحجار الكريمة ، ماراً بامانة بكل مساكن عالمها الشمسيّ ، متحولاً الى ما سيبقى عليه حتى النهاية ، ساحراً أثناء صيرورته التيس الفاحش الى سكون ما كان موجوداً أبداً ، ما دام لا بديل له ، ولا حتى لامكانية صورة مزيّفة .

اليونان هي ما يعرفه كل إنسان ، حتى وهو شارد ، وهو شارد ، وهو طفل أو أبله أو قبل أن يولد . إنها ما تتوقع أن تبدو عليه الأرض عندما تتاح لها فرصة عادلة . إنها العتبة غير المدركة للبراءة . تقف ، كما وقفت منذ ولادتها ، عارية ومكشوفة تماماً . ليست غامضة أو عصيّة ، ليست مرعبة ، ولا متحديّة ، ولا مدعيّة إنها مخلوقة من تراب ، ونار ، وماء ، تتغيرّ فصلياً بايقاعات متناغمة متموجّة ، تتنفّس ،

تومىء ، تجيب

كريت شيء آخر كريت هي مهد ، أداة ، أنبوب اختبار يطلق بخاراً أجريت فيه تجربة بركانية يمكن لكريت أن تُسكِتَ العقل ، تُسكِّنَ غليان الفكر . لطالما رغبت وبحماس شديد أن أرى كريت ، ألمس تراب كنوسوس ، أنظر الى لوحة جصيّة باهتة ، أمشي حيث مشـ (وا) . تركت عقلي ليستقر على كنوسوس دون الاحاطة ببقية البلد . لم أكن أعرف أن هومر غنّىٰ عن مدن كريت المائة لأنني لم أتمكن من إغراء نفسي أبداً بقراءة هومر ، وكنت جاهلاً أيضاً أن رفات الفترة المينوية هذه عثر عليها في ضريح أخناتون . علمت فقط ، أو بالأحرى اعتقدت ، أن هنا في كنوسوس على جزيرة نادراً ما يفكر أحد هذه الأيام في زيارتها بُدِيء منذ حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين قرناً قبل بزوغ ذاك البلاء المسمّى المسيحية بطريقة في الحياة تجعل كل ما حدث منذ ذلك الحين في العالم الغربي يبدو شاحباً ، سقيماً ، تتلبّسه الأشباح والهلاك . نقول أن العالم الغربي لم يفكر مرة في الالمام بتلك التجارب الاجتماعية العظيمة الأخرى التي انجزت في أميركا الجنوبية ، وأميركا الوسطى ، ونجتازهم دائماً بطريقتنا في المسح التاريخي السريع وكأنها صُدَف ، ونقفز من القرون الوسطى الى اكتشاف أميركا ، وكأن هذا البرعم ابن الحرام الموجود في القارة الأميركية الشمالية يمثل استمرار خط التطور الحق لنشوء الانسان . شعرت وأنا جالس على عرش ملك مينوس أني أقرب الى مونتيزوما(47) مني الى هومر أو براكسيتيليس(48) أو قيصر أو دانتي . أفكر وأنا أنظر إلى الخطوط المينوية في الأساطير المايية(49) التي لمحتها مرة في المتحف البريطاني وهي تبرز في مخيلتي كأكثر نماذج الخط روعة ، وفطريّة ، وفنيّة ، على مدى تاريخ خط الحروف . كنوسوس ، أو ما حدث هناك قبل حوالي خمسين قرناً ، هو أشبه بمحور

دولاب ثبّتت عليه برامِق كثيرة فقط لتتعفّن مكانها   كان الدولاب نفسه هو الاختراع العظيم ، ومنذ ذلك الحين والناس يفقدون أنفسهم في متاهة من الاختراعات الحقيرة تشكّل فائضاً على حقيقة الثورة الأولى النقية العظيمة نفسها .

اذن كانت الجزيرة ذات مرة مرصّعة بالقلاع ، كانت محوراً لدولاب يرمي بهاء ظلّه على كل العالم المعروف . في الصين كانت تحدث ثورة عظيمة أخرى ، وفي الهند أخرى ، وفي مصر أيضاً ، وفي بلاد الفرس غيرها ، كانت هناك انعكاسات تنتقل من واحدة الى أخرى تكثّف الوميض الثاقب ، كانت هناك أصداء وترددات . كانت حياة الانسان اللولبية تمخضها باستمرار ثورات لها هذه الدوايب النورانية العظيمة الوامضة . والآن يسود الظلام . لا يوجد في أي مكان من العالم المتزايد بشكل هائل أدنى اشارة أو دليل لدوران الدولاب . تفكّك آخر دولاب ، ونفقت الحياة اللولبية ، والانسان ينتشر على وجه الأرض في كل اتجاه كنمو الفطر ، يخمد آخر ومضات النور ، آخر الآمال .

عدت الى غرفتي مصمّماً على الغوص في تلك البقعة العظيمة المجهولة التي ندعوها كريت ، وعرفت قديماً بمملكة مينوس ، إبن زيوس ، وكانت مسقط رأسه . وما دام الدولاب قد تفكّك ، قبل هذا أيضاً بلا شك ، فان كل قدم من الأرض قد نشب عليه قتال ، واكتُسِب واستُعِيد ، وبيع ، وقِيض ، ورُهِن ، وبيع بالمزاد ، ومُسِح بالنار والسيف ، ونُهِب ، وسُلب ، وحَكَمَه طغاة وشياطين ، واغتصبه متعصّبون ومتحمّسون ، وخُدِع ، فتُدِي ، وانتهكته قوى عصرنا ، ونبذته الحشود المتحضّرة والمتوحشة على السواء ، ودنّسه الجميع بلا استثناء ، وطورد كحيوان جريح ، وسُحِق حتى الرعب والبلاهة ،

وتُرك يلهث غضباً وعجزاً ، واجتنبه الجميع كأنه مجذوم ليموت وسط روثه ورماده

هذا هو مهد حضارتنا كما كان حين هجر أخيراً وسلّم لسكانه البائسين المعدمين وما كان مسقط رأس أعظم الآلهة ، ما كان مهداً وأماً وإلهامَ العالم الهليني ، ضُمَّ أخيراً الى اليونان واعتُبر ، ليس منذ زمن بعيد ، جزءً منها . أي مفارقة قاسية ! أي قدر مهلك ! هنا يجبر المسافر على تنكيس رأسه خجلاً . ها هي سفينة الطوفان تركت عالياً على اليابسة قرب مياه الحضارة المنحسرة . ها هي مقبرة الثقافة الكبرى تدل على مفترق الطرق العظيم . هذا هو الحجر الذي منح مؤخراً لليونان ليبتلعه . لتتبعه بعدها ببضع سنين منحة أكثر روعاً ، هي عودة العضو العظيم المبتور وكان قد بُتِر بالنار والدم ورمي الى البحر .

وغبت في كابوس . كان زيوس الكليّ القدرة يهزني برفق في مهد يحترق ، وشويت حتى التغضّن ثم غمست برفق في بحر من الدماء . وسبحت بلا انقطاع وسط أشلاء مختومة بالصليب والهلال . وأخيراً وصلت الى شاطىء صخري . كان أجردَ ومهجوراً تماماً من الناس . تجولت حتى وصلت الى كهف على سفح جبل . وفي الأعماق الرهيبة رأيت قلباً كبيراً براقاً كياقوتة مدلاّة من قبة بشبكة هائلة . إنه أكبر من قلب أي مخلوق بشري . أكبر حتى من قلب إلّه . إنه أشبه بقلب الأسى ، هكذا صحت ، وعندما تكلمت تلاشى وهبط عليّ ظلام عظيم . وعلى الأثر غصت ، منهَكاً ، وانغمست في نشيج تردد من جميع أرجاء الكهف وأخيراً خنقني .

استيقظت ودون استشارة السماء طلبت سيارة لتبقى معي طوال النهار . تذكّرت شيئين وأنا أنطلق في الليموزين المترفه ـ أحدهما ، ان

أتذكر أن أسأل عن كيريوس الكسندروس في فيستوس وثانيهما ، أن ألاحظ ، كما نقل عن قول للمسيو ايريو[50] حين صعد إلى فناء القصر ، ان كانت السماء هنا أقرب حقاً للأرض من أي مكان آخر على سطح الكرة الأرضية .

أبحرنا عبر البوابة المتهدِّمة وسط سحابة من الغبار ، ودجاج مبعثر ، وقطط، وكلاب ، وديكة رومية ، وأطفال عراة ، وباعة حلوى وقورون هنا وهناك ، انطلقنا بأقصى سرعة داخل منطقة قاتمة كثيبة من شجر المطاط تقترب من المدينة كملاط يسد شرخاً كبيراً لا تُرى ذئاب ، ولا جوارح ولا زواحف سامة . هناك شمس مثقلة بالليمون والبرتقال مدلاَّة بشؤم فوق الأرض الرطبة الحارة وسط ذاك الاشعاع المتناثر المتقاطر الذي أسكر فان غوخ . اجتزنا بحركة غير محسوسة الأراضي السيئة السريعة الى منطقة خصبة مترامية مرصّعة بحقول ذات محاصيل زاهية الألوان ، ذكّرتني بتلك الابتسامة الصافية الهادئة التي يمنحك إياها جنوبنا وأنت تدور في ولاية فيرجينيا جعلتني أسترسل في الحلم ، الحلم برقة ولدانة الأرض عندما يداعبها الرجل بيدين عاشقتين ، ورحت أنطلق أكثر فأكثر في الحلم بالمصطلح الأميركي . كنت أعبر القارة من جديد . كانت هناك رقع من أوكلاهوما ، من كارولايتا ، من تينيسي ، من تكساس ونيومكسيكو . ولا أثر لنهر عظيم ، ولا لسكة حديد، رغم كل هذا. لا يوجد غير وهم المساحات الشاسعة، وواقعية المشاهد العظيمة، ورفعة الصمت، وتجلّي الضوء. وعلى قمة جرف مدوّخ ثمة مَقام صغير جداً من لوني الأزرق والأبيض ،وفي الوهد مقبرة من الجلاميد المرعبة ونبدأ بالصعود ، منعطفين عند المنحنيات الحادة الشديدة الانحدار ، وعبر الوادي الضيق تبرز الأرض كركبتي

عملاق مغطاتين بصفوف الأشجار . هنا وهناك رجل معين ، امرأة معينة ، الزارع ، الحاصد ، ظلالهم الجانبية مرميّة على سحب منتفخة من الرغوة . نتسلق الى ما خلف الأراضي المحروثة ، ملتوين وراءاً وخلفاً كالحية ، مرتفعين الى ذرى التأمل ، إلى مستقر الحكيم ، النسر ، وسحابة العاصفة . أعمدة حجرية ضخمة مسعورة ، بعثرتها الريح والبرق ، رمادية بلون الخوف ، ترتجف ، غير مستقرة ، متوازنة كعفاريت كونية ، تتاخم الطريق . تزداد الأرض شحوباً وغرابة ، وعقماً ، وهمجية ، لا هي سمراء ولا رمادية ، ولا بيج ، ولا رمادية داكنة ، ولا إكرو ، ولا لون الموت يعكس الضوء ، تمتص الضوء بسطحها الشعث المحمّص القاسي وتطلقه إلينا بنثرات مبهرة ، حادة كرقائق الصخر تمزّق أرقّ نسج الدماغ وتجعله يئن كمهووس .

هنا أبدأ بالتهلل . هاك شيء يوضع جنباً الى جنب مع دمار الانسان ، شيء يبذّ أبشع سرقاته . هذه هي الطبيعة معتوهة ، لا حول لها ولا قوة ، وقد باتت فريسةً عاجزةً لعناصرها هي . هذه هي الأرض ، مهزومة ، متوحشة ومُذَلّة بغدرها العنيف . هذه إحدى البقاع التي تخلّ فيها الله عن عرشه ، واستسلم لقانون الجمود الكوني . هذه قطعة من المطلق ، صلعاء كقبضة النسر ، بشعة كنظرة الضبع الخبيثة ، عنينة كهجين عنيد . هنا تترنّح الطبيعة متعثّرة ثم تقف في نوبة قرف جليدي من الحقد .

ننحدر على سفح جبل متغضن متكسرٍ الى سهل مترامي الأطراف . الأراضي العليا مغطّاة بغلاف من الشجيرات الصلبة كريش شائك بلون أزرق وأرجواني شاحب . وهنا وهناك بقع جرداء من الطمي الأحمر ، وسلاسل من الكثبان الرملية الهشة ، وحقل من البقول الأخضر ،

وبحيرة من الشمانيا المتاوجة . ونخترق قرية لا تنتمي الى أي زمن أو مكان ، هي صِدْفة ، شطأ مفاجيء من النشاط الانساني لأن أحدهم عاد الى مسرح المذبحة في وقت من الأوقات ليبحث عن صورة قديمة وسط الأطلال المنهارة وبقي هناك بقوة القصور الذاتي وبقاؤه هناك جذب الذباب وإشكالاً أخرى من الحياة النابضة والخامدة .

بعدها بمسافة . . . كانت هناك مستعمرةمنعزلةمستطيلة غائصةعميقاً في الأرض قرية بدائية منعزلة وسط فراغ لها باب ونافذتان . بنيت على شكل علبة . كمأوى لأحد المخلوقات البشرية . أي نوع من المخلوقات ؟ من يعيش هناك ؟ لماذا ؟ المشهد الأميركي يقع وراءها . نحن الآن نجتاز الأرض الداخلية لما بين النهرين. إننا نجتاز مدنا ميتة ، نطأ عظام فيلة ، نقطع أعماقاً بحرية مغطاة بالعشب . بدأت تمطر ، زخّة مفاجئة سريعة ، جعلت الأرض تتبخّر . ترجّلت وخضت بحيرة من الطين لأتفحّص أطلال غورتينا . أتبع الكتابة المخطوطة على الجدار . إنها تتحدث عن القوانين التي لم يعد يطبّقها أحد . القوانين الوحيدة التي تدوم هي التي لا تكتب . الانسان حيوان خارق للقوانين . ومع ذلك فهو حيوان جبان .

الوقت منتصف الظهيرة . أود تناول الغداء في فيستوس . وننطلق ، توقف المطر ، والغيوم تخلخلت ، والقبة الزرقاء تمتد كمروحة ، الزرقة تتفكّك الى الضوء البنفسجي البحت الذي يجعل كل شيء يوناني يبدو مقدساً ، فطرياً ومألوفاً . في اليونان تتملّك المرء رغبة بالاستحمام في السماء . ترغب بالتجرّد من ثيابك ، بالركض بخطى واسعة والقفز الى السماء . ترغب أن تطفو في الفضاء كالملاك أو أن تتمدّد على العشب القاسي وتستمتع باغماءة تخشبية . الحجر والسماء

يتزوجان هنا . إنه الفجر الأبدي ليقظة الانسان .

وننزلق في درب الغزلان وتتوقف السيارة على طرف حديقة برية . يقـول الرجـل ، مشـيراً الى جرف شديد الانحـدار ـ « هنـاك ، فيستوس » ، وقال الكلمة . كانـت كالسحـر . وتـرددت . أردت أن أهيِّىء نفسي قال الرجل « من الأفضل أن تأخذ غذاءك معك ، قد لا يكون لديهم هناك أي طعام » فأضع صندوق الحذاء تحت ابطي وأبدأ رحلة حجتي ببطء ، متأملاً ، حالماً .

كانت واحدة من مرات قليلة في حياتي وعيت فيها تماماً كوني على شفا تجربة عظيمة . وليس واعياً فقط بل وممتنّاً ، ممتنّاً لأني حي ، ممتنّاً لأن لي عينين ، لأني صوت هو في أحسن حالاتـه ، لأنـي تمرّغـتُ في القذارة ، لأني جعت ، لأني أهِنْتُ ، لأني فعلت ما فعلت ما دام أنه تجمَّع في هذه اللحظة من النعيم .

عبرت جسراً خشبياً أو جسرين في أعماق الوادي الصغير وتوقفت ثانية وسط الطمي الخصب الذي غمر حذائي لألقي نظرة على المسافة التي قطعتها . سأبدأ صعودي الكادّ عند استدارة الطريق . انتابني شعـور المحاط بالغزلان . ومسّني حدس قوي ملـحّ آخـر . إن فيستـوس هي المعقل الأنثوي لعائلة مينوس . سيبتسم المؤرخ هنا ، فهو يعرف أكثر . ولكن منذ هذه اللحظة والى الأبد ، بغضّ النظر عن البراهين ، بغضّ النظر عن المنطق ، أمست فيستـوس مقـر الملـكات . وكل خطـوة من صعودي عزّزت هذا الشعور .

حين وصلت إلى أعلى الجرف رأيت أمامـي ممـرّاً ضيّـقـاً يؤدي الى السرادق المقام على موقع الأطلال لراحة المسافر . فجأة لمحت رجلاً واقفاً

في الطرف الآخر من الدرب . ولما اقتربت منه بدأ ينحني ويلقي سلاماته وفكّرت ، لا بد إنه كيريوس الكسندروس .

« أنت هبة الله » قال ، مشيراً نحو السماء ومبتسماً لي كأنه في نشوة . خلع عني معطفي بكياسة وتناول صندوق الغداء ، وهو يخبرني بجذل ويخبُّ أمامي ما أمتع أن يرى مخلوقاً بشرياً من جديد . قال ، عاصراً يديه ورافعاً عينيه بورع في توسّل أخرس « هذه الحرب . . . . لم يعد يأتي أحد . الكسندروس وحيد تماماً . فيستوس ماتت . فيستوس أضحت منسيّة » ، توقّف ليقطف زهرة أعطانيها نظر الى الزهرة بحزن وكأنه يرثي قدرها البائس لأنها تركت لتزهر في عزلتها . وتوقفت لأنظر خلفي الى الجبال المحيطة من كل جانب . ووقف الكسندروس الى جانبي . أنتظرَ صامتاً وقوراً لأتكلم لم أستطع وضعت يدي على كتفه وحاولت أن أنقل مشاعري بعينين مغرورقتين . وبادلني الكسندروس بنظرة كلب وفيّ ، وتناول اليد التي وضعتها على كتفه وانحنى كثيراً وقبّلها .

قال « أنت رجل طيب ، أرسلك الله اليّ لتشاركني وحدتي . الكسندروس سعيد جداً ، سعيد جداً هيا » وقادني من ذراعي منعطفاً الى مقدمة السرادق . قام بهذا وكأنه على وشك أن يمنحني أعظم هبة يمكن لانسان أن يعطيها لانسان . قالت تلك النظرة الخرساء ، البليغة في عينيه « أمنحك الأرض وكل ما عليها من نِعَم » نظرت . قلت ـ « يا الله ، إنه شيء لا يُصدَّق » وأشحت بعينيَّ بعيداً . كان كثيراً جداً ، كثيراً جداً لأقبله فوراً »

كان الكسندروس قد دخل لحظة ، وتركني لأمشي على مهل رائحاً غادياً على أرض السرادق شاملاً ببصري عظمة المشهد . أحسست بأني

مخبول قليلاً ، كأحد ملوك الماضي العظام الذين سخّروا حياتهم لتطوير الفن والثقافة . لم أعد أشعر بالحاجة للخصب ، لقد وصلت الى الأوج ، أردت أن أعطي ، أعطي بسخاء وبلا تمييز كل ما أملك .

ظهر الكسندروس مع خرقة ، وفرشاة حذاء وسكين كبيرة صدئة ، ركع على ركبتيه وبدأ بتلميع الحذاء . لم أرتبك على الاطلاق قلت لنفسي دعه يفعل ما يحلو له ، انه يمتعه . وتساءلت بغموض ماذا يمكنني عمله بدوري لأجعل الناس يدركون مقدار السعادة المخبّأة لنا جميعاً . ورحت أرسل بركتي في كل اتجاه ـ للكبير والصغير ، للمتوحشين المهملين في أرجاء الأرض المنسيّة ، للحيوانات البرية والمستأنسَة ، للعصافير في الجو ، للزواحف ، للأشجار والمزروعات والأزهار ، للصخور والجبال . هذا هو أول يوم في حياتي ، قلت لنفسي ، شملت فيه كل إنسان وكل شيء على هذه الأرض في فكرة واحدة . باركت العالم ، بكل إنش فيه ، بكل ذرة حية ، وكله حي ، يتنفّس مثلي ، وواع كل الوعي .

أخرج الكسندروس مائدة وفرشها واقترح أن أتجوّل في المكان وأعاين الآثار . استمعت اليه وأنا في شبه اغماءة . نعم ، أعتقد أنني يجب أن أمشي لأمسح المكان . هذا ما يفعله الانسان عادة . هبطت الدرج العريض للقصر المستوي ونظرت هنا وهناك آلياً لم تكن لدي أدنى رغبة في الاستطلاع وتفحّص عتبات النوافذ العليا ، والأواني الفخارية ، وألعاب الأطفال ، وحجيرات التمنيات وما اليها الى الأسفل مني كان يقع سهل ميساراً ، ممتداً كبساط سحري لا متناه ، مطوّق بسلسلة مهيبة من الجبال . من هذا العلو السامي ، الجليل كان يشبه بمظهره جنة عدن . عند بوابات الجنة وقفت سلالات زيوس في

طريقها الى الأزل لتلقي آخر نظرة على الأرض وترى بعيون الأبرياء أن الأرض هي حقاً كما حلموا أن تكون دائماً . مكاناً للجمال والمتعة والسلام . الانسان ملائكي في أعماقه ، في أعماقه متَّحد مع العالم كله . فيستوس تحوي كل عناصر القلب ، إنها أنثى بكل معنى الكلمة . كان يمكن لكل ما أنجزه الانسان أن يضيع لولا هذه المرحلة الأخيرة من الأسف العميق المتجسِّدة هنا في مقر الملكات المقدسات .

تجولت في المكان ، ناظراً الى المشهد من كل زاوية ، وصفت سلاسل التلال المتداخلة . فوقي القبة العظيمة المكشوفة ، مطلّة على الأبدية . كان المسيو ايريو مصيباً ومخطئاً في آن . فالمرء هو أقرب الى السماء ، لكنه أيضاً أبعد بكثير من أي وقت مضى عما يقع في الماوراء الوصول الى السماء من هذا القصر العلوي هو لا شيء ـ لعب أطفال ـ أما الوصول الى الماوراء ، القبض ولو للحظة على إشعاع وروعة ذاك العالم المضيء ، ونور السماوات بالنسبة له مجرد وميض باهت سقيم ، فمستحيل . هنا تعدم أكثر الأفكار سموّاً ، توقف وسط طيرانها المحلق بفعل هالة تتّسع أبداً تألّقها يجمِّد عملية التفكير نفسها . والتفكير في أحسن حالاته ما هو الا تأمل ، وقت ماض كالذي تستمتع به الآلة حين تقذف شرراً . لقد فكّر الله بكل شيء مسبقاً . ليس لدينا أية مشكلة نحلّها . فقد حُلّت جميعها لنا . ما علينا إلا أن نذوب ، أن ننحلّ ، أن نسبح في الحل . نحن سمك قابل للذوبان والعالم مرْبى مائي .

وأومأ الكسندروس اليّ . الغداء جاهز . ورأيت إنه هيّأ المائدة لي وحدي أصريت على أن يهيِّء مكاناً لنفسه وواجهت صعوبة في اقناعه بهذا . وكان عليّ أن أحيطه بذراعي ، وأشير الى السماء ، وأمسح الأفق ، وأشمل كل شيء في إيماءة كبيرة قبل أن أتمكن من استمالته

للموافقة على مشاركتي الطعام . فتح زجاجة من الخمر الأسود ، خمر مسكر ، رقراق وضَعَنا على الفور في مركز الكون مع بعض الزيتون ولحم الخنزير والجبن كان الكسندروس يتوسًّل إليّ كي أبقى بضعة أيام . أخرجَ سجل الضيوف ليريني متى أتى آخر زائر . آخر زائر كان بلا شك سكّير أميركي خطر له أن يوقّع على سبيل النكتة الجيدة باسم دوق وندسور على السجل ، مضيفاً « أوو لا لا ، أية ليلة ! ألقيت نظرة سريعة على التواقيع واكتشفت وبالذهولي إسم صديق حميم لي . لم أصدّق عينيّ . شعرت برغبة في قتله . سألت الكسندروس أن كان يأتي كثير من الأميركيين الى فيستوس . قال نعم ومن الوهج في عينيه فهمت أنهم تركوا اكراميات وافرة . فهمت أنهم أحبوا الخمر أيضاً .

أعتقد أن الخمر كان يدعى مافرودافني . إذا لم يكن صحيحاً فيجب أن يصح لأنها كلمة سوداء جميلة وتصف الخمر وصفاً ممتازاً إنه ينزلق كالزجاج المذاب ، ملهباً العروق يتدفق أحمر ثقيلاً يوسّع القلب والعقل . ويصير المرء ثقيلاً وخفيفاً معاً ، ويشعر أنه رشيق كالظبي ومع ذلك عاجز عن التحرك . وينحلّ اللسان من عقاله ، وتتكثف حاسة الذوق بامتاع ، وتقوم الأيدي بإيماءات ثقيلة ، رخوة كالتي يودّ المرء أن يحصل عليها من قلم رصاص ثخين وناعم . ويرغب المرء برسم كل شيء باللون الأحمر القاني أو أحمر بومبي مع بقع من الفحم وهباب المصباح . وتصبح الأشياء متضخّمة وضبابية ، والألوان أكثر حقيقية وحيوية ، كما تبدو لشخص حسير حين يخلع نظارته . لكنه قبل كل شيء يلهب القلب

جلست وتحدثت مع الكسندروس بلغة القلب الصمّاء والبكماء . بعد بضع دقائق يجب أن أذهب . لم أكن حزيناً لهذا ، فثمة تجارب هي

من الروعة ، والفرادة ، بحيث تبدو فكرة تطويلها أسفل شكل من أشكال الجحود . ولو لم يكن عليّ أن أذهب عندئذٍ لبقيت الى الأبد ، لولّيت ظهري العالم ، لتبرّأت من كل شيء

جلت آخر جوْلةٍ في المكان . كانت الشمس قد اختفت ، والغيوم تتراكم ، وسهل ميْسارا الممتد كالبساط اللامع يتعلّم ببقعٍ ثقيلة من الظلال وبومضٍ كبريتي من الضوء تحت السماء الرصاصية وتدانت الجبالِ ، وتكاثفت متوعّدة بأعماق زرقتها المتبدّلة قبل لحظة كان العالم يبدو أثيرياً، كما الحلم ، مشهداً هائلاً متحوّلاً سريع الموال ، فإذا به فجأة يتماسك جوهراً ومادة ، وتكتّلت الخطوط المحدّدة الوامضة في تشكيل متناغم ، وهبّت النسور من أوكارها وتعلّقت في السماء كرسل منفعلين للآلهة

ودّعت الكسندروس الذي انخرط الآن في البكاء استدرت على عجل وانطلقت الى الأمام في الدرب الضيق الذي يرسم طرف الجرف . بعد بضع خطوات غدا الكسندروس خلفي ، وقد أسرع بجمع باقة من الأزهار دفعها اليّ . تبادلنا عبارات الوداع ثانية . وبقي الكسندروس مكانه ، يلوّح لي كلما نظرت خلفي من وقت الى آخر . وصلت الى المنحدر السحيق الحاد الذي كان عليّ أن التفّ منه وأميل الى الوادي الضيق . وألقيت نظرة أخيرة . لا يزال الكسندروس هناك ، وقد صار الآن نقطة صغيرة ، لكنه لا يزال يلوّح بذراعيه ، وزادت السماء من تهديدها ، بعد قليل سيغرق كل شيء تحت سيل شامل . وتساءلت وأنا أنزل متى سأراه ثانية ، إن أتيح لي . شعرت بشيء من الحزن لعدم وجود شخص معي يشاركني الهبة المذهلة ، كان شيئاً أثقل من أن يوهَب لبشريّ بمفرده. ربما لهذا السبب تركت لالكسندروس بقشيشاً أميرياً ـ

ليس من باب الكرم ، كما قد يظن ، بل بدافع من شعور بالذنب . ولو لم يكن هناك أحد لتركت أيضاً شيئاً ما

ما إن ولجت السيارة حتى هطل المطر ، خفيفاً في أول الامر ، ثم غزيراً أكثر فأكثر . وفي الوقت الذي وصلنا فيه الى المناطق ا. يئة كانت الأرض كلها صفحة تدوّم بالماء ، وما كان طمياً ، ورملاً ، وتربة بور ، وأرض خراب خبزتها الشمس أمست الآن سلسلة من المساطب العائمة تقطعها شلالاتٌ سمراء مضطربة ، وأنهارٌ تجري في كل اتجاه ، تتسابق نحو المجرور الهائل المتبخّر المملوء بترسّبات الأرض المتحركة ببطء ، والأغصان المتكسّرة ، والجلاميد ، والطين الصفحي ، وخام المعدن ، والأزهار البرية ، والحشرات الميتة ، والسحالي ، والعربات ذات الدولاب ، والأمهار ، والكلاب ، والقطط ، والمراحيض الخارجية ، وعيدان الذرة الصفراء ، وأعشاش العصافير ، وكل ما ليس له عقل ولا أقدام ولا جذور ليقاوم . على الجانب الآخر من الجبل ، في السيل العارم نفسه ، مررنا برجال ونساء يحملون مظلات فوق رؤوسهم ويمتطون بهائم صغيرة بكل ارتياح ويسلكون دربهم الى أسفل سفح الجبل . وقامات صامتة كئيبة تتحرك بخطى الحلزون ، كحجّاج عاقدي العزم في طريقهم الى مقام مقدس . كتل الصخور الضخمة المستديرة الحارسة يتكوّم بعضها فوق بعض مثل نُصُبْ الماتش بوكس المدوّخة ويحتفظ بها بيكاسو على رف مدفأته أضحت كتلاً هائلة من الفطور كثيرة العقد تقطر خضاباً أسود ، بدت أشكالها الماثلة ، المتداعية وسط المطر العنيف أكثر خطراً وتهديداً من ذي قبل وبين الحين والحين تنهض هضبة مستوية عظيمة ، كتلة من الصخر المجزّع بدقة تظلل ملاذاً صغيراً جداً أبيضَ بسقف أزرق . لو لم تكن هذه كريت لتخيّلت نفسي في أحد فيافي

منغوليا العجيبة الشيطانية ، في ممر تحرسه أرواح شريرة تقف بانتظار مسافر غير متوقع وتدفعه الى الجنون بأحصنتها البرية ذات الأرجل الثلاث وجثث بلون الحنّاء تقف كملوّحات متجمّدة في ضوء القمر المقبض

١

كانت هيراكْليون حين وصلنا جافة تقريباً ، وفي ردهة الفندق وجدت السيد تسوتسو بانتظاري . قال لي إنني يجب أن أقوم بزيارة عاجلة جداً لمدير الشرطة الذي ينتظر مجيئي منذ الأيام القليلة الأخيرة . وذهبنا الى مكتبه على الفور . كان هناك امرأة متسولة وولدان رثّان يقفون ،وما عداهم كان الحي فارغاً ونظيفاً . أُدْخِلْنا إلى مكتبه للتو. نهض مدير الشرطة من خلف طاولته الهائلة الجرداء وتقدّم بنشاط ليحيينا لم أكن مستعداً أبداً لمقابلة شخصية بارزة مثل ستافروس تسوسيس . وأشك بوجود مثيل له في اليونان كلها . بنشاطه ، وخفّته ، وحرصه على الشكليات ، ودماثته ، وأدبه الفولاذي ، ونظافته . وكأنه كان خلال الأيام والليالي التي انتظرني فيها يتهيّأ وينكبّ باستمرار على أن يكون في المظهر الأمثل ، وكأنه تدرّب على ما سيقوله مرة بعد مرة الى أن بلغ الكمال في ترديده بلا مبالاة مطلقة ومرعبة كان مثال الموظف الكامل ، يشبه أحد الرسوم الكاريكاتيرية لطبقة الموظفين الألمان التي يمكن للمرء أن يتخيّلها كان رجلاً فولاذياً بكل معنى الكلمة ، ومع ذلك مطواعاً ، مسايراً ، لبقاً ، وليس فضولياً على الاطلاق . الطابق الذي يحوي مكتبه هو أحد تلك الثكنات المسلّحة حيث الرجال ، والأوراق ، والغرف والأثاث تتساوى برتابة . وقد نجح ستافروس تسوسيس بدهاء لا يمكن تفسيره في تحويل مكتبه ، رغم خوائه ، الى معبد بارز يثير الرعب في النفوس من الروتين الحكومي . كل إيماءة

منه مشحونة بالأهمية ، وكأنه نظّف الغرفة من كل ما قد يعيق تحركاته الوامضة ، وأوامره الجازمة ، وانتباهه المركّز بشكل فائق على العمل الموكل اليه

لماذا استدعاني ؟ نقل الجواب فوراً الى تسوتسو الذي كان مترجماً بيننا طلب رؤيتي ، فور علمه بوصولي ، أولاً ليقدّم احتراماته لمؤلف أميركي تنازل بكرم بزيارة بقعة نائية ككريت ، وثانياً ليُعْلِمَني أن سيارته الليموزين ، المنتظرة في الخارج هي تحت تصرفي إن رغبتُ في اكتشاف الجزيرة على مهل . وثالثاً ، ودّ أن يُعلِمَني بمدى عمق أسفه لعدم تمكّنه من الاتصال بي في وقت أبكر لأنه كان قبلها بيوم أو يومين قد أعدّ وليمة على شرفي ومن الواضح لسوء الحظ اني لم أتمكن من حضورها . أراد أن يعلمني مبلغ الشرف والامتياز اللذين وُهِبَا له لأنه يستقبل في بلده ممثلاً عن شعب هائل محب للحرية كالشعب الأميركي ، وقال ، ان اليونان ستكون مدينة الى اميركا للأبد ، ليس فقط للمعونة السخية الإيثارية التي قدّمتها بعفوية بالغة لأبناء شعبه في أوقات الشدّة ، حين كانت منبوذة بحق من قِبَل كل الأمم الأوروبية المتحضّرة ، ولكن أيضاً بسبب ولائها الذي لا يتزعزع لعبّاد الحرية التي كانت عماد عظمتها ومجدها

كان إجلالاً رائعاً وقد غمرني التأثر للحظة . ولكن عندما أضاف ، بنفس النبرة ، انه يسرّه أنْ يسمع انطباعاتي عن اليونان ، وخاصة كريت ، غادرني الحياء بسرعة ، وبعد أن استدرت الى تسوتسو الذي وقف استعداداً لإعانتي بتوسُعاته الملفّقة في حال فشلي ، انطلقت في تقديم بيِّنة منمَّقة ، كاسحة معادلة عن حبي واعجابي لبلده ولأبنائه . قلت هذا بالفرنسية لأنها اللغة رقم واحد لتقديم أطواق الأزهار وبقية

الزخارف . لا أذكر أني استخدمت من قبل اللغة الفرنسية بنفس التناسق والسهولة الظاهرين ، وترقرقت الكلمات من لساني كاللآلىء ، مُكلَّلة كلها بروعة ، ومضفرة ، ومتشابكة ، ومصفدة باستخدامات أنيقة للفعل الذي يدفع عادة بالأنغلوساكسونيين الى الجنون .

عظيم ، هكذا بدا إنه يقول ، مرسلاً استحسانه كالبرق اليّ أولاً ومن ثم الى المترجم والآن يمكننا أن ننتقل الى القضايا الأخرى ، مع الحفاظ طبعاً على الأدب الجم ، والتصرف اللائق . وأين ذهبت بالضبط خلال فترة وجودك القصيرة ؟ وشرحت له باختصار ، أوه ، ولكنك لم تر شيئاً بعد ! يجب أن تذهب إلى هنا ، وهناك والى كل مكان ـ كله تحت أمرك ، ولكي يبينّ لي مدى سهولة تحقيق الأمر ، تراجع خطوة ونصف برشاقة وأناقة وضَغَطَ ، دون أن ينظر ، على زر موجود تحت الطاولة ، وعلى الأثر ظهر خادم ، تلقى التعليمات القاطعة واختفى . ومتّ شوقاً لأساله أين تلقّى تدريبه المعصوم ، لكني ضبطت اندفاعي إلى وقت أكثر ملائمة . أي عنصر منفّذ سيكونه لو أنه مدير لشركة أميركية نموذجية ! ما أجدره بمركز مدير مبيعات ! ولكن ها هو الآن في بناء مقفر تماماً ، مستعد كامل الاستعداد ليقوم بدوره ولكن لا جمهور ، لا نظّارة ، بل فقط الروتين البليد المعتاد لمدينة ثانوية في طرف العالم لم أر في حياتي مقدرة توضع في غير مكانها بشكل سيء كهذه . لو كانت له رغبة قوية ـ والله وحده يعلم ماذا يمكن أن تكون الطموحات الوثّابة لشخص مثله حوصر هنا داخل فراغ من العبث ـ لاستطاع بسهولة أن يفرض سلطته المطلقة على جميع بلاد البلقان . أكاد أراه وقد سيطر في أيام قليلة على كل عالم البحر المتوسط ، وقرر بضربة قلم واحدة شجاعة قَدَرَ هذا الحوض العظيم لمئات السنين الى الأمام . ورغم سحره ، ودماثته ، وكرم

ضيافته ، ارتعدت رعباً منه . فلأول مرة في حياتي وجدت نفسي في حضرة رجل قوي ، رجل يمكنه أن يفعل كل ما يرغب فيه ، وأكثر من ذلك ، رجل لن يُحجِم أو يعجز عن تحقيق حلمه مهما كان الثمن . شعرت أني أنظر الى طاغية لم يكتمل نموّه ، ليس طاغية فظاً ، فلا شك أنه أكثر ذكاءاً ، لكنه قبل كل شيء رجل لا يرحم ، رجل ذو ارادة حديدية ، رجل له هدف واحد ووحيد إنه القائد بالفطرة . يبدو هتلر الى جانبه صورة ساخرة وموسوليني لاعب فات أوانه في فرقة بن غريت . أما بالنسبة لأقطاب الصناعة العظماء في أميركا ، كما يعرضون أنفسهم في السنما والصحف ، فليسوا أكثر من أطفال بقامات ضخمة ، عباقرة مصابين باستسقاء الرأس يعبثون بالمتفجرات وهم جالسون بين أذرع القديسين المعمدانيين المنافقة ، ويمكن لستافروس تسوسيس أن يلويهم كدبابيس الشعر بين أصابعه

انسحبنا بنظام تام بعد أن انتهت مراسيم اللياقة بشكل طبيعي . كانت المتسولة لا تزال واقفة عند الباب مع ولديها الرّثين . وتساءلت عبثا عن طبيعة مقابلتها له ، مفترضاً إنه ستتاح لها الفرصة الحسنة في اجتيار عتبة ذاك الملاذ المحرَّم . نفحتُ أحد الصبيين بضع دراخمات ناولها من فوره الى أمه . ولما رأى تسوتسو أن الأم كانت على وشك أن تتوسل من أجل إعانة أكثر سخاءاً ، جرّني بعيداً بلطف .

في تلك الليلة صمّمت على المغادرة في اليوم التالي . فقد استحوذ عليّ شعور حدسي بأن ثمة نقوداً بانتظاري في أثينا أعلمت شركة الطيران بأني لن أحجز لطريق العودة لكنني وجدت على أية حال أن الطائرات لا تستطيع الجري أبداً ـ فالمدارج زلقة جداً

في الليلة التي تلت استقليت القارب . وفي الصباح كنا في كانيا

حيث لبثنا حتى وقت متأخر من بعد الظهر . أمضيت الوقت على الشاطىء آكل وأشرب وأتجول في البلدة . كان القسم اليوناني كالمعتاد شاذاً ، مشوّشاً، متفرّداً تماماً ومنتقى . وتملّكني احساس طالما شعرت به وأنا في اليونان ، ولكن بدرجة أكثف ـ مفاده أن لحظة أوقفتْ قوة الغازي أو عُلّقت ، لحظة استرخت يد السلطة ، تابع اليونانيون حياة الرتابة اليومية الطبيعية جّداً ، الإنسانية جداً ، الحميمة دائماً المفهومة دائماً أما الشاذ ، ويفصح عن نفسه بقوة هنا في هذه الأماكن المنعزلة ، فهو السلطة المهيبة للقلعة ، والكنيسة ، والحامية ، والمتجر . السلطة تذوي بتداع بشع ، تاركة عُقَداً صغيرة كقبضات النسور من الارادة الظاهرة هنا وهناك لتدل على خرائب الغرور ، والحسد ، والخبث ، والجشع ، والخرافة ، والشعيرة ، والعقيدة . عندما يُترَك الانسان ليتصرّف في مصادره فهو يعود دائماً ليبدأ على الطريقة اليونانية ـ بضع عنزات أو خرفان ، كوخ بدائي ، بقعة أرض لزراعة المحاصيل ، أجمة من أشجار الزيتون ، جدول جار ، وناي .

أثناء الليل مررنا بجبل مغطّى بالثلج . أعتقد أننا وقفنا من جديد ، في ريتيمو . كانت رحلة العودة بالسفينة طويلة ، بطيئة ، ولكن طبيعية ومعقولة . ليس هناك مركباً أفضل أو أكثر اهتراءاً من القارب اليوناني العادي . إنه سفينة طوفانيّة تجمّع عليها معاً زوجٌ من كل نوع وصادف أن اخترت نفس القارب الذي أقلّني مرة الى كورفو ، وتعرّف عليّ ربان المركب ورحّب بي بحرارة . دُهش لأني لا زلت أتجول في المياه اليونانية . وعندما سألت لماذا ، ذكر الحرب . الحرب. ! لقد نسيت الحرب تماماً . كان الراديو يقدمها لنا مرة بعد مرة ـ مع وجباتنا . ثمة دائماً ما يكفي من التقدم والتطور لملء عقولنا بأهوال جديدة تركت بهو القارب لأصعد الى السطح . كانت الريح قوية

والقارب يغوص ويرتفع . وهذا الجزء هو أصعب بحار المتوسط . بحار رائعة . طقس قاس جيد ، بحجم الانسان ، منشِّط ، فاتح للشهية . قارب صغير في بحر كبير . وبين الحين والآخر تبدو جزيرة . ويضاء مرفأ صغير كما في حكاية يابانية خرافية . حيوانات تصعد الى السطح ، أطفال يزعقون ، طعام يطبخ ، رجال ونساء يغتسلون في العنبر داخل حوض صغير ، كالحيوانات . قارب رائع . طقس رائع . أحياناً تظهر نجوم رقيقة كأزهار ابرة الراعي ، أو قاسية ومتناثرة كحراب محطَّمة . رجال بسطاء يتمشون بشباشب مكسوّة ، يلعبون البلي ، يبصقون ، يتجشّأون ، يرسمون تكشيرات ودّية ، يشمخون برؤوسهم الى الخلف بضجيج صاخب قائلين لا حين يجب أن يقولوا نعم . في مؤخرة القارب يجلس مسافرو التعرفة المخفّضة ، متمدّدين على السطح بفوضى واختلاط ، ممتلكاتهم منشورة حولهم ، يغفو البعض ، ويسعل آخرون ، يغني البعض ، ويتأمل آخر ، أو يتناقش ، ولكن سواء كانوا نائمين أم يقظين فالكل ينضم الى الكل بلا تمييز يعطون إنطباعهم عن الحياة . ليس حياة سائح من الدرجة الثالثة ، منظَّمة ، سقيمة ، عقيمة كالتي نلاحظها على طول الخطوط البحرية الكبرى ، بل حياة ملوَّثة ، ومُعْدِيَة ، مزدحمة ، حياةُ خليةِ نحل كالتي يجب على البشر أن يتشاركوا فيها حين يقومون برحلة خطرة فوق مساحة هائلة من الماء .

عدت الى البهو قرابة منتصف الليل لأكتب بضعة أسطر في الكتاب الصغير الذي وعدت به سيفريادس . اقترب مني رجل وسأل إن لم أكن أميركياً ـ فقد لمحني على مائدة الطعام ، كما قال . يوناني آخر من أميركا ، ولكن في هذه المرة كان ذكياً ، ومسلياً ، مهندساً يقوم بعمل اصلاحات لصالح الحكومة . جال فوق كل إنش من تراب اليونان . تحدّث عن مصادر المياه ، والمعدّات الكهربائية ، ومستنقعات

التصريف ، ومقلع الرخام ، ومكامن الذهب ، ووسائل الراحة في الفندق ، وتسهيلات السكة الحديدية ، وبناء الجسور ، وحملات الوقاية الصحية ، وحرائق الغابات ، والأساطير ، والحكايات الخيالية ، والخرافات ، والحروب القديمة والحروب الحديثة ، والقرصنة ، وصيد السمك ، والنُظُم الرهبانية ، وصيد البط ، واحتفالات عيد الفصح ، وأخيراً ، بعد أن تحدّث عن المدافع بعيدة المدى والأساطيل العائمة ، وقاذفات القنابل الهائلة ثنائية البراغي وثنائية المفاصل ، انطلق يسرد تفصيلاً عن مذبحة سميرنا ، التي شاهدها بأم عينه . من بين قائمة الفظائع الطويلة المنسوبة للجنس البشري يصعب القول أي « حادثة » هي أكثر شناعة من غيرها . إن ذكر اسم شيرمان[51] على مسمع أحد سكان جنوب الولايات المتحدة جدير بملئه بالحقد العارم . فأي فلاح جاهل يعرف إن إسم أتيلا مرتبط بفظائع وافسادات لا تروى . لكن قضية سميرنا ، التي تتجاوز كثيراً أهوال الحرب العالمية الأولى أو حتى الحرب الحاليّة ، تضاءل تأثيرها نوعاً ما وكادت تحذف من ذاكرة انسان الزمن الحالي[52]. والرعب الخاص المتعلّق بهذه الكارثة لا يعود فقط الى وحشية وبربرية الأتراك ، بل الى اذعان القوى العظمى الشائن ، الفاتر . كانت واحدة من الصدمات القليلة التي عانى منها العالم الحديث ـ أي ادراك أن الحكومات ، في سعيها وراء مراميها الأنانية ، يمكن أن تشجّع على اللامبالاة ، ان تحوّل عنفوان البشر الطبيعي العفوي الى عجز في وجه المذابح الوحشية المستهترة . إن سميرنا ، كحادثة ثورة الملاكم وحوادث أخرى عديدة لا يحصرها عدّ ، كانت مثالاً أوّلياً على القَدَر الذي ينتظر الدول الأوروبية ، القَدَر الذي كانت تبنيه ببطء من نسج مكائدها الدبلوماسية . إنني كلما سمعت عن كارثة سميرنا ، عن الحط من الرجولة الممارس على أعضاء القوات المسلّحة للقوى العظمى الذين

تنحّوا جانباً في تكاسل تحت وابل أوامر قوادهم الصارمة بينما آلاف الرجال والنساء والأطفال الأبرياء يقادون الى المياه كالماشية يرمون بالرصاص ، يشوّهون أحياء ، تقطع أيديهم حين يحاولون أن يتسلّقوا متن سفينة أجنبية ، أفكر في ذلك التحذير الأولي الذي طالما رأيته في الأفلام الفرنسية والذي كُرِّر ولا شك بكل لغة موجودة تحت الشمس عدا الألمانية ، والايطالية ، واليابانية ، وكلما أذيعت نشرة أخبار عن قصف مدينة صينية[33]. أذكره لسبب خاص جداً هو أنه عند عرض مشاهد تدمير شنغهاي ، بالشوارع المغطاة بالأجساد المشوّهة التي كانت تقذف الى الشاحنات كأكوام الزبالة ، شاع في دار السينما الفرنسية هرج مائج لم أسمع بمثله من قبل . وثار غضب الرأي العام الفرنسي . ومع ذلك انقسموا في نقمتهم مع شعور كاف بالشفقة ، والانسانية . وطغت غضبة العادلين على غضبة الفاضلين . وهؤلاء ، ويا للغرابة ، استنكروا أن تعرض مشاهد بربرية لا إنسانية كهذه على أناس مثلهم حسني السلوك ، مطيعين للقانون ، محبين للسلام ، أو هكذا ظنوا أنفسهم . أرادوا أن تتوفر لهم الحماية من ألم المعاناة من رؤية مثل هذه المشاهد حتى وهم على بعد مسافة مريحة مثل ثلاثة آلاف ميل . لقد دفعوا نقوداً ليروا مأساة عاطفية في مقاعد وثيرة وإذا بهذه الشريحة القذرة من الواقع تُقذَف أمام عيونهم بسبب زلّة فظيعة وغير مسؤولة على الاطلاق ، وتدمِّر أمسيتهم المسالمة الرخيّة هكذا كانت أوروبا قبل الانهيار الحالي وهذه هي أميركا اليوم . وهكذا ستظل غدا بعد أن ينقشع الدخان . وطالما أن الشر يتيح لهم أن يجلسوا ويشاهدوا وهم معقودو الأذرع بينما إخوانهم البشر يعذّبون ويذبحون ستظل الحضارة زيفاً أجوف ، شبحاً ثرثاراً معلّقاً كسراب فوق بحر هائج من جثث القتلى .

هوامش الجزء الثاني

(1) في علم الفلك هي الثريا : ست نجوم في كوكبة الثور ، واحدة منها لا ترى بالعين المجردة .

(2) ميري بيكر ايدي (1821 - 1910) مؤسسة حركة العلم المسيحي ، شرحتها في كتاب « العلم والصحة » عام 1875

(3) Catarrhal ، من Catarrh النزلة ، أي التهاب القناة التنفسيّة .

(4) entropy : في الفيزياء ، هو عامل الطاقة المهدورة .

(5) Castoria

(6) عبارة تستخدم للإشارة لكل ما يقع جنوبيّ نهر التايمس في مدينة لندن .

(7) و(8) و(9) و(10) و(11) و(12) هي أسماء أعظم عازفي موسيقى الجاز الأميركي في الثلاثينات على الأقل ، وكلهم من الزنوج .

(13) منتجع للطبقة الأرستقراطية .

(14) أرسكين كالدوين ووليام فوكنر . أديبان أميركيان .

(15) أمبروز بيرس كاتب أميركي اختفى فجأة ولم يعرف مصيره أبداً .

(16) هارت كرين (1899 - 1932) شاعر أميركي .

(17) رواية توماس مان المعروفة .

(18) مدينة عتيقة في جزيرة كريت ، كان لها مجد في العصر المينويّ .

(19) Dubuque or kenosha

(20) من أشهر الكوميديين الإنكليز .

(21) اللغة اليونانية الديموطية هي اللغة العامية لشعب اليونان القديم .

(22) مؤلف القصة الشهيرة « أليس في بلاد العجائب » .

(23) مونك لويس ، أو الراهب لويس هو الإسم المستعار للكاتب م . ج لويس صاحب قصة « الراهب » المرعبة ، المكتوبة بالأسلوب القوطي عام 1796

(24) نسبة إلى الكاتب سويدنبرغ .

( ) جزيرة في جنوب المحيط الهادىء ، تشتهر بتماثيلها المصنوعة من كتل حجرية ضخمة بدائية تقابل البحر بوجوهها ، ولا يعرف تاريخها .

(26) الايروكواز : هو تحالف هنود أميركا الشمالية ، ويعرف بـ « الدول الخمس » .

(27) آرثر إيفانز (1851 - 1941) عالم آثار إنكليزي ، كان المسؤول عن اكتشاف حضارة جديدة في جزيرة كريت ، وقاد عملية الحفريات للكشف عن موقع مدينة كنوسوس العتيقة في جزيرة كريت .

(28) جوهان غوتنبرغ (1400 - 1468) أحد الرواد الألمان في مجال تطوير الطباعة . اخترع الحروف

الطباعية المتحركة .

(29) البطرقيّة : لغة قديمة جداً .

(30) بيلاسجيّ : نسبة الى البيلاسجيين وكانوا يسكنون شرقيّ البحر الأبيض المتوسط وجزر بحر إيجة قديماً .

(31) حضارة يونانية في أصلها لكنها امتدت فشمل أثرها بلاد آسيا الصغرى وسورية ومصر ، ظهرت بعد حكم الاسكندر الأكبر .

(32) العالم الأتروسكي هو الحضارة القديمة جداً التي نشأت في غربي ايطاليا ، تسمى حالياً توسكانيا ، وبدأت بالإنحدار بدءً من 500 ق . م .

(33) الإنكا : اسم ملك لأمة قصيرة العمر قامت في البيرو وقضى عليها الأسبان في القرن السادس عشر .

(34) السو : عملة فرنسية صغيرة .

(35) يا للأميركيين ، كلهم سواء ، لا يعلمون ما هي الحياة ، إنهم برابرة !

(36) الأصل بالفرنسية .

(37) عازف بيانو مبدع في عالم موسيقى الجاز . (2) عازف آخر .

( ) إسم معزوفة شهيرة في موسيقى الجاز .

(39) أعظم عازف ترومبيت في موسيقى الجاز والبلوز .

(40) حركة معينة في إيقاع موسيقى الجاز .

(41) إيقاعات معينة في موسيقى الجاز .

(42) و (43) و (44) و (45) و (46) أسماء أعضاء الفرقة العظماء الذين رفعوا موسيقى الجاز إلى الذروة ، وإيلافيتز جيرالد مطربة الجاز المعروفة ما تزال تغني حتى اليوم .

(47) مونتزوما (1466 - 1520) حاكم مكسيكو حين أغار عليها الاسبان .

(48) براكسيتيليس (ولد 390 ق . م) نحات إغريقي كبير . أحد قادة المدرسة التي خلفت فيدياس .

(49) Maya , Mayan : سلالة هندية قديمة نشأت في أميركا الوسطى .

(50) Monsieur Herriot

(51) يبدو أن علاقته مباشرة بالمذبحة المذكورة .

(52) لمزيد من الإطلاع إقرأ « أوراق تتعلق بالعلاقات الخارجية للولايات المتحدة الأميركية » ، الذي نشرته وزارة الخارجية عام 1938 ، المجلد الثاني .

(53) تحذيراً من أثر هذه المشاهد : يُطلب من الجمهور بإلحاح أن لا يُظهر أية مشاعر متطرفة لدى عرض هذه المشاهد المفزعة . وكان يمكنهم أن يضيفوا أيضاً : تذكروا ، إن هؤلاء مواطنون صينيون ، وليسوا فرنسيين . المؤلف .

الجزء الثالث

إبّـان عودتي إلى أثينا وجدت بانتظاري ركاماً من البـريد آت من باريس ، واعلامات عديدة من مركز البريد يدعونني كي أتصل بهم عند أول بوادر حاجتي للنقود . ومقهى الاكسبريس الأميركي أيضاً كان لديه نقود لأجلي ، أرسلها لي أصدقاء في أميركا . دُهِشَتْ غولفو الخادم ، التي قَدِمت من لوتـراكي حيث كان كاتسيمبـاليس يملك مرة كازينـو للقمار وكانت تحدثني دائماً بالألمانية ، من امكانيتي الحصـول على عدة مبالـغ مالية على الفـور . وكذا كان الأمـر مع الساقـي المسائـي ، سقـراط ، وساعي البريد الذي يرسم دائماً ابتسامة عريضة حين يعدّ لي النقود . في اليونان ، كما في أماكن عديدة ، حين تستلم مبلغـاً من المال من مكان بعيد يُتَوقَّع منك أن توزِّع بعضه في كل اتجاه . وأُبلِغْتُ في الوقت نفسه بشكل غير مباشر بأني قد أحصل على غرفة ممتازة فيها حمام خاص في أحد أفضل الفنادق مقابل ما كنت أدفعه في فندق الغراند . وفضّلت البقاء في الغراند . أعجبني فيه الخدم ، والبوابون ، وصبيان الخـدم وصاحـب الفندق نفسه ، تعجبني الفنادق التي هي من الدرجة الثانية أو الثالثة ، النظيفة ولكن الرثّـة ، وقد مرّت عليها أيام عز ، ولهـا عبـق الماضي . أحببت الخنافس وأباريق الماء الضخمة التي كنت أجدها دائماً في غرفتي حين أدير مفتاح النور . أحببت الأروقة العريضة والمراحيض المرصوصة جنباً الى جنب كالحمامات الموجودة في نهـاية الصالـة . أحبيـت الفنـاء الموحِش وصوت كورس رجّـالي يتمرن في صالة مجاورة . مقابل بضعة

دراجات كنت أتمكن من إرسال صبي الفندق ، وهو باريسي الأصل في الرابعة عشرة ، ليسلّم رسائلي باليد ، وهو ترف لم أحلم مرة بالاستمتاع به . وحصولي على كل هذه النقود دفعة واحدة كاد يفقدني صوابي . أوشكت على شراء مجموعة من الثياب ، كنت بحاجة ماسّة اليها ، ولكن لحسن الحظ لم يتمكن عم صبي الفندق ، الذي يدير دكاناً صغيراً قرب الحي التركي ، من صنع بذلة لي بسرعة كافية . ثم كدت أشتري دراجة لصبي الفندق ، التي ادّعى إنها تنفعه نفعاً لا يقدّر بثمن في أداء مهماته الصغيرة ، ولكن لمّا لم يعثر على واحدة أعجبته فوراً عرضت حلاً وسطاً بإعطائه بعض الكنزات الصوفية وزوجاً من سراويل الفانيلا .

وفي يوم أعلن ماكس ، الذي كان عمله الوحيد هو تسليم نشرات الأخبار لمكتب الصحافة البريطانية وهو في سيارته ، انه يوم عيد ميلاده وانه سيبدّد مبلغاً صغيراً بدعوة كل أصدقائه ومعارفه ليأكلوا ويشربوا معه . كان ثمة شيء يتّسم بالتهوّر في حفلة عيد الميلاد هذه . فرغم السخاء المفرط في الشمبانيا ، والاسراف المغالي في الطعام ، والنساء ، والموسيقى ، والرقص ، فإنها لم تنجح تماماً . وطبعاً سرعان ما وقع الانكليز سكارى وغاصوا بطريقتهم الساحرة التحت ـ مائية في سباتهم المعتاد . ذكّرتني هذه الأمسية بأخرى قضيتها في لندن في صالة الرقص مع رجل من بغداد . قضى الليل كله يحدثني عن الضمان أو عن اعداد الثياب وكيفية ارتدائها . وظل ماكس ، الذي منعته حالته الصحية من الشرب ، يملأ الكؤوس ويشعُ ببريقٍ متلألىء ، كغرفة مضاءة بمعدانات رنّانة وقد أدّت فكرته عن انهاء الاحتفالات نهاية سعيدة الى دمار لعين وتحطيم السيارات . وفي احتفال سابق قاد سيارته على درج فندق الملك جورج ، أمام دهشة الخدم العظيمة . غادرت الحفلة

في حوالي الثالثة صباحاً ، وأنا سكران ولكن بلا أدنى بهجة .

في حوالي ذلك الوقت استلمت رسالة من القنصلية الأميركية تطلب مني أن آتي للتصديق على جواز السفر أو يُسْحَب . ذهبت الى المكتب لأستعلم . وبما أني مُواطن أصيل أخذت الأمر باستخفاف . إنه مجرد روتين حكومي ، قلت لنفسي . وسُئِلْتُ على الفور ، هل أحضرت معي صورة فوتوغرافية . لا ، لم أحضر واحدة . أخذني البواب الى الشارع على مبعدة بضع مبان لأبحث عن رجل يقف عند زاوية معينة عادة . كان الجهاز هناك ولكن لا أثـر للرجـل . لم يكن أمامـي شيء أفعلـه فجلست على الحاجز الحجري أنتظر بصبر . حين عدت الى المكتب كان هناك العديد من اليونانيين المتأمركين ينتظرون إجراء فحص المقابلة . سلاّني مشهد فلاح عجوز خبيث لا شك إنه اثرى في أمـيركا . كان يتحدث باليونانية مع إحدى السكرتيرات، وهي يونانية . كان واضحاً أنه لم يحب موقفها الكفوء والمتعالي نوعاً ما . أصبح عنيداً. لم يعد يجيب لا بلا ولا بنعم على الأسئلة الموجّهة اليه . وخامره الشك وأصبح حذراً ، وكادت الصبية تخرج عن طورها من الغيظ . ولكن كلما ازداد هياجها زاد بروده . نظرت اليّ في يأس . قلت في نفسي تستحقين ، لماذا تعذّبين الناس بكل هذه الأسئلة السخيفة ؟ وأخيراً جاء دوري . ماذا تفعل في اليونان ؟ أين تسكن ؟ كم تعيل من الأشخاص ؟ لحساب من تعمل ؟ كنت سعيداً جداً لاستطاعتي الاجابة على الفور ـ لا بيت ، لا عالة ، لا رئيس ، لا هدف ، الخ ، حتى إنه حين قال لي « ألا تستطيع أن تقوم بكتاباتك في مكان آخر ؟ » قلت « طبعاً ، فأنا رجل حر ، أعمـل أينما كان ، لا أحد يدفع لي لأكتب » وعلى الأثر قال ـ ببراعـة فائقـة منـه ـ « حسن إذن ، افهم أنـك يمـكن أن تكتـب في أمـيركا أيضـاً ، أليس

كذلك ؟ » فقلت « طبعاً ، ولم لا ؟ ولكن لا يهمني أن أكتب في أميركا . الآن أنا أكتب عن اليونان » على أية حال ، انتهت اللعبة ، كما اكتشفت بعد قليل . حديث قصير من أحد الأعلين وأعيد لي الجواز مُلغى . هذا يعني أن أعود الى الوطن في أسرع وقت ممكن . برّه !

في أول الأمر غضبت ، شعرت بأني خدعت . ولكن بعد أن تجولت حول البناء عدة مرات قررت أنه ربما كانت إشارة من القدر . على الأقل كنت حراً في الذهاب . أما ماكس فكان حراً فقط في البقاء وتبديد ما تبقّى معه من دراخمات . كانت الحرب تتسع . بعد فترة وجيزة سيشتعل البلقان . وقريباً لن يكون ثمة خيار .

عدت في اليوم التالي لأرى الوزير الأميركي وأعرف كم من الوقت أعطوني . استقبلني المدير السابق لصحيفة دايل ، كما اتضح لي ، بحرارة . ابتهجت لمعرفتي بتعاطفه العظيم وحبه لليونانيين . وجرى كل شيء كما يجب . ولا داعي للعجلة . ولكن أرجوك كن مستعداً للمغادرة في أسرع وقت ممكن . شعرت أنه من الأفضل الاذعان بكياسة . لذا صافحت وزيرنا ، السيد لينكولن ماكفي ، بحرارة وغادرت . في طريق الخروج لمحت علامة الصليب على الطريقة الأورثوذوكسية .

كان الشتاء يحث خطاه ، وصارت الأيام قصيرة مشمسة ، والليالي باردة وطويلة . وبدت النجوم أكثر بريقاً من ذي قبل . ونظراً لفقدان الفحم كانت الحرارة تُرسَل ساعة واحدة فقط في النهار وساعة في المساء . وزاد معي ألم النسّا وتذكرت أني أتقدم في العمر . كانت غولفو الخادم موسوسة ، وصار سقراط ، البواب ، يأتي كل مساء ليدلّكني بمرهم يوناني للخيول ، وأرسل صاحب الفندق العنب والمياه المعدنية ، ودخلت فيكي صاحبة العينين الخضراوين بلون النيل وأمسكت بيدي ،

وأحضر صبي الفندق الرسائل والبرقيات . وكان كل شيء معاً مرضياً ممتعاً جداً .

سأظل أذكر دائماً المشاوير الليلية في أثينا تحت نجوم الخريف . كنت غالباً ما إرتقي جرفاً يقع تحت ليكابيتوس مباشرة وأقف هناك ساعة أو نحوها أحلق في السماء . الرائع فيها انها كانت يونانية جداً - ليس فقط السماء ، بل والبيوت ، ولون البيوت ، والطرقات المغبرة ، العرى ، الأصوات المنبعثة من البيوت . ثمة نظافة فيها . كنت أتسكع في مكان ما خلف منطقة « الأمونيا » في مساحة مهجورة شوارعها مسماة بأسماء الفلاسفة ، بصمت ثقيل جداً ومخملي جداً معاً حتى بدا وكأن الجو مملوء بمسحوق النجوم يُصدِرُ نورها ضجيجاً لا يُسمَع أثينا ونيويورك مدينتان مشحونتان بالكهرباء ، وفريدتان حسب تجربتي . لكن أثينا تتخلّلها واقعية زرقاء بنفسجية تغلّفك مداعِبة ، في نيويورك حيوية تضرب كالمطرقة تدفعك الى الجنون من الأرق ، اذا لم يكن لديك موازن داخلي . والهواء في كلا الحالين كالشمبانيا - مقوٍ ، محيي . في أثينا مررت بتجربة بهجة التوحُّد ، في نيويورك شعرت دائماً بالوحشة ، وحشة حيوان محبوس في قفص ، تبعث شبق الجريمة ، والجنس ، والكحول ، ومصادر الجنون الأخرى .

عند منتصف الليل ، وأثناء عودتي الى الفندق ، غالباً ما كان يعترض سبيلي يوناني ماكر يعرف من الانكليزية ما يكفيه ليجري محادثة طويلة . وكان يدعوني عادة لمشاركته في شرب القهوة ، مدّعياً البهجة الطاغية لمقابلته أميركي مثلي (كذا) . وفي ليلة ذهبت مع أحد الكريتيين من يوتيكا ، في نيويورك . كان قد عاد ليؤدي خدمته العسكرية في اليونان ، كما قال . له أخ في هيراكليون ثري . وبعد الكثير من المحاورة

والمداورة ، وهو يسألني عن صحتي وما شابه ، اعترفَ خجلاً انه بحاجة الى ثلاثة وسبعين دراخما أجرة الابحار الى كريت . وثلاثة وسبعون دراخما تساوي فقط نصف دولار بالعملة الأميركية ونصف دولار هو لا شيء إذا دفع الى غريب من يوتيكا يرغب بأداء خدمته العسكرية في الخارج ، خاصة إذا كان كصاحبنا الذي أتكلم معه ودفع لتوه ثمن القهوة ، والفطيرة والمثلجات ، وقدّم لك سجائره ودعاك لاستخدام سيارة أخيه أثناء وجودك في كريت . لم أخبره اني كنت لتوي في كريت طبعاً . أنصتّ اليه بصمت متعاطف وتصرّفت كساذج وجاهل كما من المفروض على الأميركيين أن يكونوا . والحقيقة اني كنت تواقاً لأُخدَع - والاّ لشعرت بأني مغشوش ، خائب الظن بالشخصية اليونانية . وبصرف النظر عن تجربتي في اليوم الأول لم يحاول أحد في اليونان ، ولا أي يوناني في الواقع ، أن يحتال عليّ . وربما كان يمكن لهذا الشخص أن ينجح لو لم تعوزه البراعة . فأولاً كنت أعرف يوتيكا معرفة جيدة ، بما أني قضيت أحد أشهر العسل[1] هناك ، والشارع الذي قال ان بيته كائن فيه لا وجود له ، وثانياً أخطأ بالقول إنه سيستقل القارب الزي الى هيراكليون ، في حين كنت أعلم ، بما إني عدت لتوي على متن الزي ، أن القارب لن يعود الى كريت إلا بعد عدة أشهر ، وثالثاً ، حين سألته عن رأيه في فيستوس ، وهي تُلفَظ دائماً بطريقة واحدة وبكل اللغات ، حتى الصينية ، سألني ماذا تكون ، وحين أخبرته إنها مكان قال إنه لم يسمع به من قبل ، بل وشكّ في وجوده ، رابعاً ، لم يستطع أن يتذكر اسم الفندق الذي عليّ النزول فيه حين ذهابي الى هيراكليون ، وقد أذهلني تماماً فقدان الذاكرة التام لدى رجل ولد في هيراكليون ، التي لا تحوى الا فندقين يحملان إسمها ، وخامساً لم يعد بالنسبة لي يشبه الكريتيين إلا بقدر ما يشبههم رجل من كارانسي[2] ، وانتابني شك كثير

في أنه رأى المكان اطلاقاً فاسداً كان حراً كثيراً في التصرف بسيارة أخيه ، والسيارات ليست كثيرة في كريت ، حيث لا يزال الثور يجر المحراث . ما كان لأي من هذه العوامل أن تثنيني عن اعطائه الثلاثة والسبعين دراخما بما أن نصف دولار طالما بدا لي أنا المولود في أميركا ، قطعة نقدية شكلها يغري بالرمي في المجرور إن لم تكن ثمة طريقة أفضل للتصرّف بها . أردت فقط ان أعلمه أني عرفت بأنه يكذب . فاخبرته . وهنا أدّعى أنه مظلوم . وحين شرحت لماذا أجده كاذباً نهض بوقار وقال إني إذا ذهبت الى كريت وقابلت أخاه فسأندم على ما قلت ـ وبذا انطلق شامخاً يمشي مشية تدل على منتهى التأذي والألم . ناديت على النادل وسألته ان كان يعرف الرجل . ابتسم ، وقال « طبعاً أعرفه ، إنه مترجم فورى » وسألت إن كان يعيش في أثينا منذ زمن بعيد ، قال « عاش هنا طوال حياته »

كان هناك رجل آخر يدعى جورج ، جورج القبرصي ، وهو أقل براعة . ادّعى جورج انه صديق حميم للوزير الأميركي ، صاحبنا السيد ماكفي ، ليس غيره . كان يراقبني وأنا أقرأ مجلة الأخبار الألمانية في كشك صغير في منطقة « الأمونيا » نفسها . رحب بي بالألمانية وأجبته بالألمانية ، وسألني منذ متى وانا في أثينا فأخبرته . قال إنها ليلة جميلة ووافقت ، كانت جميلة حقاً . سؤاله التالي « الى أين ستذهب من هنا ؟ » قلت « ربما الى إيران » كل هذا بالألمانية ، وسأل « ومن أين أتيت » أجبت « من نيويورك » « الا تتحدث بلغة أخرى غير الألمانية ؟ » قلت « أحسن الانكليزية أيضاً » فسأل « إذن لماذا تكلّمني بالألمانية ؟ » مع ابتسامة ماكرة . قلت « لأنك أنت الذي خاطبتني بالألمانية » ، سأل بعدها « هل تتكلم اليونانية ؟ » قلت « لا ، لكني أتكلم الصينية واليابانية ـ هل تستطيع أنت ؟ » هز رأسه . « هل تتكلم التركية ؟ »

هززت رأسي . « والعربية ؟ » ومن جديد هززت رأسي قال وهو يبتسم بطريقته الغريبة « أنا أتقن جميع اللغات ما عدا الصينية واليابانية » قلت « أنت ذكي جداً ، هل أنت مترجم ؟ » لا ، ليس مترجماً . ابتسم وأخمض عينيه . قال « هل تتناول شراباً معي ؟ » أومأت موافقاً .

بعد أن جلس بدأ نقاشاً طويلاً مداوراً ليكتشف نوع عملي . قلت ليس لي عمل . . . قال وعيناه تبرقان « أنت غني اذن ، نعم ؟ » « لا ، أنا فقير جداً . ليس لدي نقود » ضحك في وجهي ، وكأن الفكرة بحد ذاتها سخيفة . وفجأة سأل « أتحب النساء ؟ » قلت أحبهم كثيراً ، خاصة اذا كنّ جميلات » عجّل بالقول « لدي صديقة ـ جميلة جداً وسنذهب لرؤيتها ـ الآن ، حالما تشرب قهوتك » قلت له لا يهمني أن أراها فوراً لأني أنوي الإيواء الى الفراش بعد قليل . وتظاهر بأنه لم يسمع تماماً وانطلق يلقي ملحمة طويلة عن مفاتنها . قلت « لا بد إنها جميلة جداً . الا تغار عليها ؟ » نظر إليّ وكأني معتوه قليلاً . قال « أنت صديقي ، وسيشرفها أن تقابلك . هيا بنا الآن » وهمّ بالنهوض . وبقيت جالساً وكأني مصنوع من الرصاص ورفعت نظري اليه وسألت برقة في أي يوم نحن . لم يكن متأكداً ـ ظن إنه الثلاثاء . قلت اسأل النادل . سأله . كان الثلاثاء حقاً . قلت متكلّماً ببطء شديد « حسن ، سأكون مشغولاً حتى الخميس بعد أسبوع ، ولكن إذا كنت حراً مساء الخميس ، السابع عشر من الشهر ، سأتصل بك لتقابلني هنا في حوالي العاشرة مساء وسنذهب لمقابلة صديقتك » ضحك . قال وهو يجرّني من ذراعي « هيا ، سنذهب الآن » بقيت جالساً تاركاً له أن يمسك ذراعي الذي أصبح خارجاً عني كأنه أنبوب موقد . كررت بهدوء « سآوي الى الفراش بعد دقائق . ثم ليس لدي نقود ـ قلت لك اني فقير ، أتذكر ؟ » ضحك . ثم جلس ، مُقرِّباً كرسيه . قال وهو يميل بطريقة

خصوصية « إسمع ، جورج يعرف الجميع . لست بحاجة الى أية نقود ـ أنت ضيفي . لن نبقى إلاّ بضع دقائق ـ المكان قريب من هنا » قلت « ولكن صار الوقت متأخراً ، قد تكون نائمة » ضحك . فتابعت « ثم ، قلت لك أني تعب ، وسيناسبني يوم الخميس بعد أسبوع ـ حوالي الساعة العاشرة » والآن غاصت يد جورج داخل جيبه وأخرج لفافة من الرسائل وجواز سفر قذر مجعّد . فتح الجواز وعرض عليّ صورته ، واسمه ، ومسقط رأسه ، الخ . أومأت برأسي . وقلت ببراءة « هذا أنت يا جورج ، لا ؟ » حاول أن يقرّب الكرسي أكثر . « وأنا مواطن انكليزي ، أتفهم ؟ أعرف جميع القناصل ، وكل الوزراء . سأتكلم مع السيد ماكفي من أجلك . سيعطيك نقوداً لتذهب الى الوطن . إنه رجل طيب جداً» هنا أخفض صوته . «أتحب الأولاد ـ الأولاد الصغار ؟ » قلت نعم ، أحياناً ، إذا كانوا مؤدبين . ضحك ثانية . كان يعرف مكاناً يوجد فيه أولاد جميلون جداً ، وغضّون أيضاً . قلت إن هذا مسلٍّ جداً ـ أردت أن أعرف هل هم أصدقاؤه ، تجاهل السؤال ، وبعد أن أخفض صوته ، سأل سراً إن كان معي ما يكفي ثمناً للقهوة والفطيرة . قلت معي ما يكفي لأدفع عن حصتي . قال وهو يبتسم بمكر « ألن تدفع عن جورج أيضاً ؟ » قلت لا صراحةً . بدا مندهشاً ـ ليس متأذياً أو مظلوماً ، بل مذهولاً حقاً . استدعيت النادل ودفعت قيمة فاتورتي . نهضت وانطلقت . هبطت الدرج . بعد لحظة ـ همس بشيء للنادل ـ لحق بي الى الشارع . قلت « حسن ، كانت ليلة ممتعة . والآن سأقول عمت مساء » أسرع بالقول « لا تذهب الآن ، دقيقتين فقط . إنها تقطن في بيت عبر الشارع » وببراءة سألت « من ؟ » « صديقتي » « أوه شيء ملائم تماماً . يوم الخميس من الأسبوع القادم إذن ، هه ؟ » وتابعت طريقي . اقترب وأمسكني ثانية من ذراعي .

« أعطني خمسين دراخما ، أرجوك » قلت « لا ، لن أعطيك شيئاً » مشيت بضع خطوات زحف اليّ من جديد « أرجوك ، ثلاثين دراخما » قلت « لا ، لا دراخمات هذه الليلة » ، « خمسة عشر دراخما » كرّرت متابعاً طريقي « لا » ، ابتعدت حوالي عشرة ياردات عنه ، صرخ « خمسة دراخمات » أجبت صارخاً « لا ، ولا دراخما واحد ، عمت مساء » .

كانت المرة الأولى في حياتي التي أصدُّ فيها رجلاً بهذا العناد . استمتعت بالتجربة ،وبينما اقترب من الفندق قفز رجل عجوز في مظهره بشعر طويل وقبعة كبيرة من النوع البوهيمي من زقاق مظلم ، وبعد أن حيّاني بلغة انكليزية ممتازة ، مد يده طالباً صدقة . وضعت يدي في جيبي غريزياً وأخرجت حفنة من القطع النقدية ، ربما خمسين أو ستين دراخما . أخذها ، انحنى باحترام وهو يرفع قبعته وأبلغني ، باخلاص وصدق يثيران الشدة ، بلغته الانكليزية التي لا تجارى ، بأنه بالرغم من شعوره بالامتنان للَفتة الكريمة فإنها لا تكفي لسد حاجته . وطلب مني اذا أمكن ، مضيفاً أنه يعرف أنه مبلغ كبير يُطْلَب من غريب ، أن أعطيه مائتي دراخما أخرى وهو المبلغ الذيّ يلزمه لدفع فاتورة الفندق . وأضاف قائلاً إنه حتى بعد أن ينال المبلغ سيضطر للبقاء بلا طعام . وعلى الفور أخرجت محفظتي وناولته مائتين وخمسين دراخماً . والآن حان دوره ليُذْهَل . لقد طلب ، ولكن من الواضح إنه لم يحلم أبداً أن يُجَاب . طفرت الدموع من عينيه . وبدأ خطاباً رائعاً قاطعته قائلاً يجب أن ألحق بأصدقائي الذين سبقوني . تركته وسط الشارع حاملاً قبعته بيده ، يحملق خلفي وكأني شبح .

وضعتني الحادثة في مزاج رائق . قال سيدنا ومخلّصنا يسوع المسيح « إسألوا وسيعطى لكم » لاحظوا ، قال « إسألوا » . ليس إطلبوا ،

ليس توسّلوا ، ليس تملّقوا ، ليس تزلّفوا . ما أبسطه ، قلت لنفسي . ما أشد بساطته . ومع ذلك أية طريقة هي أفضل منها ؟

***

الآن وقد بات رحيلي مؤكداً أخذ كاتسيمباليس يحاول جاهداً أن ينظم بعض النزهات الخاطفة . كان من المستحيل ، بسبب ضيق وقتي ، أن أفكر في زيارة جبل آثوس أو ليسبوس ، أو حتى ميكونوس أو سانتوريني . ديلفي ، نعم ، وربما ديلوس . قرابة وقت الغداء من كل يوم كان كاتسيمباليس ينتظرني في الفندق . كان الغداء يستمر عادة حتى الخامسة أو السادسة من بعد الظهر ، وبعده نذهب الى قبو صغير للخمر حيث نتناول بعض الشراب لتهيء شهيتنا لوجبة العشاء . صار كاتسيمباليس الآن في هيئة أضخم من ذي قبل ، رغم أنه لا يزال يشكو من التهاب المفاصل ، والشُقَيقة ، وفساد الكبد ، وخسارة في النقود وغيرها . حيثما ذهبنا نتأكد من انضمام أحد أصدقائه العديدين الينا . وسط هذا الجو يتطوّر النقاش الى حدود مذهلة ، إذ يتوضّع القادم الجديد داخل نظام حديثه الهندسي بنفس سهولة وبراعة نجّار أو بنّاء من القرون الوسطى . كنا نقوم برحلات بحرية وبرية ، وسافرنا على طول نهر النيل ، زحفنا داخل الاهرامات على بطوننا ، استرحنا قليلاً في كونستانتينوبل ، انتقلنا بين مقاهي سميرنا ، قامرنا في كازينو لوتراكي ومونت كارلو أيضاً ، عايشنا حربيّ البلقان الأولى والثانية ، عدنا الى باريس في الوقت المضبوط لاعلان الهدنة ، سهرنا الليالي مع رهبان جبل آثوس ، دخلنا خلف كواليس الفولي بيرجير ، تمشّينا خلال أسواق فزّان ، جننّا مللاً في سالونيكا ، توقفنا قليلاً في تولوز وكاركاسون ، استكشفنا الأورينوكو ، طفنا فوق مياه الميسيسبي ، عبرنا صحراء غوبي ، انضممنا الى الأوبرا الملكية في صوفيا ، أصبنا بالتيفوس في

تيفليس ، أدّينا فصل رفع الأثقال في فرقة ميدرانـو ، سكرنـا في طيبـة وعدنا على متن الدراجات النارية لنلعب الدومينو مقابل محطة ميترو في « آمونيا » .

أخيراً قررنا الذهاب الى ديلفي ، السرّة القديمة للعالم . فقد دعانا بركليس بيظانطيس ، صديق غيكا ، لقضاء بضعة أيام هنا في الرواق الجديد المخصّص للطلاب الأجانب الذي افتتحته الحكومة . توقّفنا في متحف طيبة في باكارد الجميلـة ـ غيكا وبيظانـطيس وأنـا . وقـد قرر كاتسيمباليس أن يذهب بالباص لسبب أو لآخر . وفي منطق غير قابل للتعليل بدت طيبة كما تخيلتها تماماً ، والسكان أيضاً كانوا قريبـين من الصورة الجلفة التي احتفظت بها منـذ أيام المدرسـة . كان المرشـد في المتحف فظاً حقاً وبدا مرتاباً من كل حركة قمنا بها ، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإغرائه بفتح الباب . ومع ذلك أحببت طيبة ، فلـم تكن تشبه أبداً بقية المدن اليونانية التي زرتها . الساعة العاشرة صباحاً تقريباً والجو منعش ، شعرنا أننا معزولون وسط فضاء شاسـع يتمـوّج بالضوء البنفسجي ، وكأننا نتوجّه صوب عالم آخر .

وبينما نحن نغادر المدينة ، نتلوّى فوق الهضاب الواطئة التي جُزّت جزّاً قصيراً وحلقيّـاً كرأس زنجي ، التفت غيكا اليّ من مجلسه بالقرب من السائق ليحكي لي عن حلم غريب رآه خلال الليل الفائت ؛ حلماً غير عادي عن موتٍ وتجلٍّ خرج فيه جسـده وتـرك العالـم وبينما هو يصف الأطياف العجائبية التي قابلها في العالم الآخر تجاوزت بنظري عينيه الى الآفاق المتموّجة الممتدة أمامنا . ها هو من جديد الانطباع الذي يخلّفه الأفق المنفتح ، الفضاء الكروي الذي يحوطنا ، الذي لاحظته في طيبة ، يستولي عليّ . كان هناك تزامن مذهل بين الحلم والواقع ؛ عالمان مندمجان في وعاء من النور الصرف ، ونحن المسافـرون معلّقـون فوق

الحياة الأرضية . أُعْدِمَ كل تفكير في الهدف ، كنا نخرخر بنعومة فوق أرض تتموّج ، تتقدّم نحو فضاء من الحس البحت ، والحلم الذي كان يهذي ، أصبح فجأة ضاجّاً بالحياة وحقيقياً بشكل لا يحتمل . وفي الوقت الذي أخذ يصف الاحساس الغريب الذي استولى عليه حين وجد جسمه يتمدّد هامداً على السرير ، حين وازن نفسه بنشاط فوقه كي يهبط بتأن ويركّب نفسه داخله ثانية دون فقدان ذراع أو اصبع قدم ، لمحت من زاوية عيني الجمال المدمِّر لسهل طيبة العظيم الذي كنا نقترب منه ، فانفجرت باكياً ، ولم أتمكن من ضبط نفسي . لماذا لم يُعِدَّني أحد لهذا ؟ هتفتُ . توسّلت الى السائق أن يقف لحظة لأشمل المشهد بنظرة واحدة ماسحة . لم نكن قد وصلنا الى حوض السهل ، بل كنا وسط الأكام والروابي التي جمدت مصعوقة برُسُل النور السريعين . كنا في مركز ذاك الصمت الناعم تماماً الذي يمتص حتى أنفاس الآلهة . لا علاقة للانسان بكل هذا ، حتى ولا بالطبيعة . في هذا الكون لا شيء يتحرّك أو يطرف أو يتنفّس إلا أصبع الغموض ، هذا هو السكون الذي يهبط على العالم قبل حلول حَدثٍ مُعْجِز . الحدثُ نفسه غير مسجّل هنا ، بل وقوعه فقط ، فقط الوهج البنفسجي لأثره . هذا هو الرواق الخفي للزمن ، فاصل زمني ، شاسع ، لاهث ، يتورّم كالرحم يرتد كساعة مرهقة بعد أن لفظ أساه . وننزلق على طول السهل المنبسط ، أول واحة يقع عليها نظري . كيف لي أن أميّزها عن تلك الجنان المرويّة الأخرى المعروفة للانسان ؟ هل كانت أكثر اخضراراً ، أكثر خصباً ، هل ناءت بحمل نتاجها الثقيل ؟ أكانت خلية نحل تضج حيوية ؟ لا أستطيع أن أدّعي معرفتي لأي من هذه العوالم . فسهلُ طيبة خالٍ ، خالٍ من الانسان ، خالٍ من نتاج مرئي . في جوف هذا الخواء يخفق نبض غزير من الدم يجري في عروق متغضّنة سوداء . لا تزال

أحلام الناس الموتى منذ زمن بعيد تبقبق وتتفجّر خلال مسام الأرض الثخينة ، نسيجها الشفاف تحمله أسراب العصافير المنذهلة صوب السماء .

الى يسارنا جرت سلسلة الجبال المؤدية الى قمة بارناسوس ، كالحة ، صموتة ، وقورة وقار الأسطورة . غريب أني طوال وجودي في باريس ، ومع كل المرح والبؤس المرافقين لمونبرناس ، لم أفكر مرة واحدة في المكان الذي استقت اسمها منه . من ناحية أخرى ، رغم أنه لم يُشرِ عليّ أحد بالذهاب الى هناك ، كانت طيبة في خيالي منذ أن وطأت أثينا . واسم طيبة ، مثل ممفيس في مصر ، طالما بعث ، بخاصيّة لا تعليل لها ، خليطاً رائعاً من الذكريات وحين رأيت ، في مستودع الموتى البارد للمتحف هناك ، ذاك الرسم الحجري الفريد الذي يشبه الى حد بعيد أحد رسومات بيكاسو ، حين رأيت التمثال الصارم المصري الطراز ، شعرت كأني عدت الى ماض مألوف ، الى عالم عرفته طفلاً تبقى طيبة ، حتى بعد زيارتها ، في الذاكرة كأحلام اليقظة الغامضة ، المرتعشة التي ترافق الانتظار الطويل في غرفة انتظار عند طبيب أسنان . حين ينتظر المرء أن يخلع له ضرس يجد نفسه منخرطاً في وضع خطة لكتاب جديد ، يصبح فياضاً تماماً بالأفكار . ثم يأتي التعذيب ، ويُمحى الكتاب من الوعي ، وتمر الأيام لا ينجز فيها شيء لامع غير إلصاق اللسان في تجويف اللثة الصغير الذي يبدو هائل الحجم وهذا أيضاً ينسى في آخر الأمر ويعود المرء الى العمل وربما يكون الكتاب قد بدأ ، ولكن ليس بنفس الحميّة التي خطط له بها هناك في غرفة الانتظار المكويّة وفي ليلة والمرء تتقاذفه النوبات ، وقد غارت عليه حشود من الأفكار المتنافرة ، اذ فجأة تتهادى كوكبة السن المفقودة فوق الأفق وإذا به في طيبة ، طيبة الطفولة القديمة التي انبثقت منها كل

الروايات ، ويرى خطة عمل حياة عظيمة قد حفرت أخيراً على لوح حجري ـ وهذا هو الكتاب الذي طالما فكّر المرء بكتابته ، لكنه ينسى في الصباح ، وهكذا نُسِيتْ طيبة والله وكل معنى الحياة وهوية الانسان وكل هويات الماضي ، وهكذا يَعبد الانسان بيكاسو الذي ظل يقظاً طوال الليل واحتفظ بسنّه النخرة . تعرف هذا حين تمر عبر طيبة ، وهو شيء مقلق ، لكنه أيضاً ملهم ، وحين تُلهَم تماماً تشنق نفسك من كاحلك وتنتظر الصقور لتلتهمك حياً . عندئذٍ تبدأ حياة مونبرنـاس الحقيقية ، مع ديانا آلهة الصيد في الخلفية والسفينكس ينتظرك عند منعطف الطريق

توقفنا في ليفاديا لتناول الغداء ، وهي نوع من قرية ألبيّة[3] تعشعش على جدار سلسلة الجبال . الهواء بارد منعش ، قائظ تحت الشمس وقارس كحد السكين في الظل . أبواب المطعم مفتوحة حتى آخرها لتتلقى الهواء المضاء بالشمس ، وهو عبارة عن حجرة طعام هائلة الحجم ملبّسة بالقصدير مثل جوف علبة بسكويت . السكاكين ، والصحون وسطوح الطاولات باردة كالثلج ، فأكلنا ونحن نحتفظ بقبعاتنا ومعاطفنا .

الانتقال من ليفاديا الى أراتشوفا كان كالانطلاق بلا توقف على السكة الحديدية بين مشاهد الطبيعة خلال جزيرة أيسلند إستوائية . نادراً ما يُرى طَرَف لبشر ، أو لوسيلة نقل ، والمنطقة تزداد تخلخلاً أكثر فأكثر ، ومعجزة أكثر فأكثر . تحت الغيوم المنخفضة أصبح المشهد فجأة يوحي بالشؤم والروع ، ولا يمكن الا لأله أن يتعايش مع انقضاض العناصر الأولى الضاري في هذا العالم الأولمبي العاري .

في أراتشوفا نزل غيكا ليتقيّأ وقفت على طرف واد ضيق وبينما أنا

أنظر الى أسفل القاع رأيت ظل نسر هائل يحوم فوق الهاوية . كنا نقف على قمة الجبال ، وسط أرض مضطربة ويبدو انها كانت لا تزال تميد وتهتز . حتى القرية نفسها لها مظهر كئيب صقيعي لمجتمع اقتطعه عن العالم الخارجي انهيار ثلجي . وسُمِع هدير شلال مثلج بدا ، رغم استتاره عن العيون ، كليّ الحضور . أضفى قرب الصقور ، التي تعتّم ظلالها الأرض بصورة غامضة ، الى البرد القارس حسّاً كئيباً بالعزلة ، ومع هذا فمن أراتشوفا الى تخوم ديلفي الخارجية تمنح الأرض مشهداً واحداً مستمراً علويّاً مأساوياً . تصوّر مرجلاً يغلي نزل فيه مجموعة من الرجال الجسورين ليمدّوا بساطاً سحرياً . تصوّر أن هذا البساط مؤلف من أكثر الأشكال براعة وأكثر الألوان تنوّعاً تصوّر أن الرجال يكدّون في هذا العمل منذ بضعة آلاف من السنين وانهم لو استراحوا موسماً واحداً لذهب جهد قرون طويلة هباءاً تصور أنه مع كل أنّة ، أو عطسة أو فوّاق من الأرض يتشقّق البساط ويتخرّب بشكل مؤلم . تصور أن التظليلات والألوان التي تكوّن بساط الأرض الراقص هذا تضاهي بفخامتها ورهافتها أجمل النوافذ الملوّنة في كاتدرائيات العصور الوسطى . تصور كل هذا وستحصل بذا فقط على فهم غامض لمشهد يتغيّر كل ساعة ، وشهر ، وسنة ، ودورة ألفية وأخيراً ، وفي حالة من الشده المذهول ، الثمل ، المنهك ، تصل الى ديلفي . لنفرض أنها الرابعة من بعد الظهر ، وثمة ضباب ينبعث من البحر غيّر العالم رأساً على عقب . أنت في منغوليا وثمة رنين أجراس ناء يسمع عبر الأخدود ينبئك أن قافلة تقترب . أصبح البحر بحيرة جبلية متوضّعة عالياً فوق قمة الجبل حيث تبقبق الشمس مثل عجّة منقوعة بالدم. على الجدار الجليدي الصلب حيث يرتفع الضباب لبرهة كتب أحدهم بسرعة فائقة كتابة مجهولة . الى الجانب الآخر ، وكأنه محمول في طريقه كالسيل ،

ينهمر بحر من العشب على منحدر الجرف السحيق . له بريق اعتدال ربيعي ، واخضرار ينمو بين النجوم في طرفة عين .

ورؤية ديلفي في هذا الضباب الشفقي الغريب بدا أكثر علوّاً واثارة للروع مما تصوّرت . الحق أني انبسطت بعدما ارتقيت أعلى الجرف الصغير فوق الرواق حيث تركنا السيارة ، لأجد مجموعة الصبية القرويين المتبطلين يرمون النرد لقد أضفى لمسة انسانية على المشهد ، ومن نوافذ الرواق الشاهقة ، المفتوحة على طول تخوم الحصن القرن أوسطي الصلبة الممتدة ، رأيت عبر الوادي الضيق ، ولما ارتفع الضباب ، جيباً من البحر ـ بعد ميناء أيتي المستتر بقليل ما ان أنزلنا حاجياتنا أخذنا نبحث عن كاتسيمباليس الذي عثرنا عليه في فندق أبولو ـ أعتقد أنه كان الضيف الوحيد منذ رحيل هـ . جـ . ويلز الذي دوّنت توقيعي تحت اسمه ، رغم أني لم أنزل في الفندق . كان له ، لويلز ، خطاً صغيراً رقيقاً ، أشبه بخط امرأة ، خط شخص مغمور ومتواضع جداً ، غير أن ما تتميّز به الكتابة الانكليزية الى حد بعيد هو أنها لا تتمتّع بأي شيء غير عادي .

بحلول وقت العشاء أمطرت وقررنا أن نتناول الطعام في مطعم صغير قائم على طرف الطريق. كان المكان بارداً كالقبر . تناولنا وجبة هزيلة تبعها أكواب عديدة من النبيذ والكونياك . استمتعت بتلك الوجبة بقدر عظيم ، ربما لأنه كانت لي رغبة في الكلام . وكما يحدث غالباً ، حين يصل المرء أخيراً الى بقعة مؤثرة ، لم يكن للحديث أية علاقة مهما كانت بالمشهد العام . أذكر بغموض تعبير الدهشة على وجهيّ غيكا وكاتسيمباليس وأنا أكيل القصف العنيف مطوّلاً على المشهد الأميركي . أظنني كنت أصف كنساس مهما يكن ، كانت صورة للخواء والرتابة

لكي أصعقها . عندما عدنا الى الجرف الكائن خلف السرادق ، حيث اضطررنا لتلمّس طريقنا في الظلام ، كانت تهب ريح عاصفة ، والمطر ينهمر غزيراً لم يكن أمامنا سوى مسافة قصيرة نجتازها ، لكنها خطرة . ولما كنا منتشين قليلاً تولّدت لدي ثقة مطلقة بقدرتي على ايجاد طريقي بلا معين . وبين الحين والحين يسطع وميض البرق على الدرب العائم بالطمي . في تلك اللحظات الرهيبة كان المشهد مقفراً بشكل مرعب حتى شعرت كأننا نمثل مشهداً من مكبث . هتفتُ « فلتهب الريح وليقصف الرعد » مبتهجاً كقبّرة الوحل ، وفي تلك اللحظة انزلقت على ركبتيّ وكدت أتمرّغ على الأرض لو لم يمسكني كاتسيمباليس من ذراعي . وعندما رأيت البقعة في اليوم التالي كاد يغمى عليّ .

نمنا والنوافذ مغلقة ونار عظيمة تهدر في المدفأة الضخمة . في وقت الافطار اجتمعنا حول طاولة جماعية طويلة في قاعة جديرة بنيل استحسان دير دومينيكاني . الطعام ممتاز ووافر ، والمشهد من النافذة فريد . المكان شاسع جداً ، والأرضية مغرية ، حتى لم أستطع منع نفسي عن اغراء الانزلاق البارع بحذائي . أخذت أبحر في طول الأروقة مراراً ، وفي حجرة الطعام ، والصالون ، والغرف الصغيرة ، أسلّم أنباء سارة من حاكم البرج التاسع عطارد نفسه

حان الوقت لتفحّص الأطلال ، لاستخلاص آخر العصارات المبهمة من السرّة البائدة . تسلّقنا التل الى المسرح حيث أطللنا منه على كنوز الآلهة المبعثرة ، المعابد المهدّمة ، الأعمدة المنهارة ، نحاول عبثاً أن نعيد خلق روعة هذا الموقع العتيق تفكّرنا طويلاً في الموقع الصحيح للمدينة نفسها التي لم تكتشف بعد . فجأة ، وبينما نحن واقفون هناك صامتون وقورون ، تقدّم كاتسيمباليس من مركز المدرّج مادّاً ذراعيه

عالياً وهو يلقي البيت الختامي لآخر وحي آلهي . كانت لحظة مؤثرة ، هذا أقل ما يقال فيها . بدا ، وللحظة ، أن الستار قد ارتفع عن عالم لم يندثر أبداً بل التفّ حول نفسه كغيمة وحافظ على تماسكه ، وصفاته ، الى أن يأتي يوم يستدعيها من جديد ، بعد أن يحيي أحاسيسه . خلال بضع اللحظات التي استغرقها إلقاؤه للكلمات ألقيت نظرة طويلة الى شارع حماقة الانسان العريض ، ولما رأيت أن لا نهاية للمدى ، اجتاحني شعور لاذع بالأسى والحزن لا صلة له أبداً بقدري بل بالجنس الذي انتميت اليه صدفة . تذكرت أقوالاً نبوئية أخرى سمعتها في باريس ، ذكرت فيها هذه الحرب بكل أهوالها ، في عبارة قصيرة ضمن جدول طويل يضم كوارث وانقلابات وشيكة الوقوع ، تذكرت الطريقة الارتيابية التي استقبلت بها هذه الأقوال . العالم الذي غاب مع غياب ديلفي مرّ وكأنه حلم . الوضع نفسه الآن ، النصر والهزيمة لا معنى لهما على ضوء الدولاب الذي يدور بلا هوادة . اننا نتحرك داخل نطاق جديد للروح ، وبعد ألف عام سيتعجّب الناس لمدى جهلنا ، وسباتنا ، واذعاننا الخانع ذا المنهج القدريّ .

تناولنا شراباً في « النبع الكاستيلي » وهناك تذكرت فجأة صديقي الحميم نك من قصر أورفيوم للرقص في برودواي ، لأنه أتى من قرية صغيرة تدعى كاستيليا تقع في الوادي خلف الجبال . كان صديقي نك مسؤولاً بشكل ما الى حد كبير عن وجودي هنا ، حسب ظني ، لأنه بواسطة جوقته النغمية الرقصيّة قابلت زوجتي جون ولو لم أقابلها فعلى الأغلب انني ما كنت صرت كاتباً ، ولا غادرت أميركا ، ولا قابلت بيتي رايان ولورنس دريل وأخيراً ستيفانيدس وكاتسيمباليس وغيكا .

بعد أن تجولنا بين حطام الأعمدة ارتقينا درب السلحفاة الى الملعب

القائم في الأعالي . خلع كاتسيمباليس معطفه وبخطى عملاقة أخذ يقيسه من طرف الى طرف . مجمل الموقع مثير . إن المرء وهو واقف تحت ذروة الجبل مباشرة يثار لديه انطباع انه عندما انتهى السباق لا بد أن سائقي العربات قادوا جيادهم المطهّمة على الحافة ومنها الى الزرقة . الجو يتجاوز الجو الانساني ، مُسْكِر حتى الجنون . وكل ما هو غير عادي ومعجز في ديلفي يتجمّع هنا في ذاكرة الألعاب التي أقيمت بين السحاب . لما استدرت للذهاب رأيت راعياً يقود قطيعه فوق الحافة ، كانت قامته مرسومة بحِدَّة على صفحة السماء حتى بدا كأنه يستحم في هالة بنفسجية ، وتحرّكت الأغنام برويّة فوق النتوء الأملس بزغبه الذهبي ، وكأنها تبزغ ناعسة من بين صفحات ميتة لأنشودة رعوية منسية .

في المتحف رأيت من جديد تماثيل طيبة الضخمة التي لم تكف مرة عن فتني . وأخيراً وقفنا أمام تمثال أنطونوس المذهل ، آخر الأرباب . لم أتمكن من منع نفسي من إجراء مقابلة في ذهني بين هذا التجسيد الأكثر روعة لثنائية الانسان الأبدية في الحجر ، الفائقة الوضوح والبساطة ، المشبعة بالحس الاغريقي على أفضل وجه ، وذاك الابداع الأدبي لكتاب بلزاك « سيرافيتا » ، الغامض والملغّز ، وغير المقنّع ، إنسانياً لا شيء آخر يمكنه أن يحسن التعبير عن الانتقال من النور الى الظلام ، من الوثنية الى المفهوم المسيحي للحياة ، من هذا الشكل المبهم لآخِر إله على الأرض ألقى بنفسه الى النيل ان التأكيد على الخواص الروحية لمسيحية الانسان لم ينجح الا في تحريره من جسده ، تحويله الى ملاك تدمجه الثنائية الجنسية في كيان علويّ روحاني هو الانسان أصلاً من ناحية أخرى ، اليونانيون يمنحون جسداً لكل شيء ، وهكذا يجسدون الروح ويخلدونها في اليونان يمتلىء المرء دائماً بحس الخلود

الذي يُعَبَّـر عنه في الهُنا والآن ، وحين يعود الى العالم الغربي ، سواء في أوروبا أو أميركا ، فإن الشعور بالجسد ، بالخلود ، بالروح المجسَّـدة هذا يتهشّـم . اننا ننتقل في الزمن الأرضي وسط انقاض عوالم بائدة ، نخترع أدوات تدميرنا بأيدينا ، متناسين القدر أو المصير ، لا نعرف لحظة استقـرار ، لا نملك ذرة من ايمـان ، ونحـن فريسـة لأكثـر الخرافـات تشاؤمـاً ، لا نعمـل لا بالجسـد ولا بالـروح ، لا ننشـط كأفـراد بل كميكروبات في كيان مريض .

في تلك الليلة ، وعلى مائدة العشـاء في القاعـة الكبـيرة ، وأثنـاء انصاتـي الى بركليس بيظانـطيس ، قررت أن أعـود الى أثينـا في اليوم التالي كان يلحّ عليّ لتوه لأبقى ، وقد كان لدي ، والحق يقال ، كل الأسباب التي تدفعني للبقاء ، ولـكن استحوذنـي شعـور بأن ثمـة ما ينتظرني في أثينا وعلمت أني لن أبقى . في صباح اليوم التـالي ، وعلى مائدة الافطار ، فاتحته بقراري ، وذُهِلَ قلت له صراحة أنه ليس لدي أي سبب وجيه لرحيلي ـ عدا أفضل الأسباب قاطبة ـ الرغبـة الملحَّة . كنت أتفرّد بكوني أول أجنبي على الاطلاق يتمتـع بامتيازات السرادق الجديد،ولا شك أن رحيلي السريع كان طريقـة سقيمـة للتعبـير عن امتناني ، ولكن هذا ما حصـل . وقـرر كل من غيكا وكاتسيمبـاليس بسرعة العودة معي . وآمـل أن يغفـر لي كيريوس بيظانـطيس الـطيب سلوكي الفظ وأن لا يعتبره تصرفاً أميركياً نموذجياً حين يقرأ ما حدث لي إبّـان عودتي الى أثينا .

كان للعودة بسرعة كبيرة بالنسبة لي أثر أبلغ بكثير من مجيئي . مررنا بطيبة في وقت لاحق من بعد الظهيرة ، وأخذ كاتسيمبـاليس يبهجنـي بقصة عن رحلاته المجنونة على دراجته النارية من طيبة الى أثينا بعد أن

يشرب حتى السكر . وبدا لي أننا انعطفنا حول منطقة معركة بلاتيه[4] العظيمة ، ولعلّنا كنا نواجه جبل كيثرون ، حين اتضح لي فجأة أننا كنا ندور داخل ما يشبه المصيدة الغريبة كفلّينة ثملةَ . ومن جديد وصلنا الى أحد تلك الممرات التي ذُبح فيها الأعداء الغازين كالخنازير ، ولا شك إنها تمثل عزاء ومتعة للقادة الحماة في كل مكان . لن أدهش حين أكتشف أن أوديب قابل السفينكس هنا وكان اضطرابي عميقاً ، هزنـي من الجذور . ما الذي هزّني ؟ أهـي الأفـكار المتـداعية التـي تولّـدت عن معرفتي بالأحداث العتيقة ؟ لا أظن ، ما دمت لم أُصِبْ إلا أهزَلَ معرفةٍ بالتاريخ الاغريقي وهـي مختَلَطـة تمامـاً ، وهـذا حظ كل التـاريخ من اهتمامي . لا ، فالأمـاكن المقدّسـة كالمرابـع الدمـوية ـ يُكتَـب سجـل أحداثها داخل الأرض . إن متعة المؤرخ أو عالم الآثار الـذي يواجـه اكتشافاً يجب أن تكون في الإثبات ، والتأكيد ، وليس في الدهشة . لا شيء ممـا حدث على هذه الأرض ، مهما دفـن عميقـاً ، يخفـى على الانسان . بعض الأماكن تبرز كالاشارات الضوئية ، فهي لا تكشـف عن اللغز فقط بل وتشير الى الحدث ـ طبعاً شريطة أن يكون الاقتراب منها بقلب صاف نقي . انني مقتنع بوجود طبقات عديدة أخـرى من التاريخ وبأن القراءة الأخيرة ستتأخر الى أن نستعيد مَلَكة رؤية الماضي والمستقبل بوصفهما شيء واحد .

ظننت ، حين عدت الى الفندق ووجدت أن نقود العودة الى أميركا قد أرسلت ، ان هذا هو الذي أعادني الى أثينا ، ولكن في الصباح حين وجدت كاتسيمباليس ينتظرني وعلى وجهه ابتسامة غامضة أدركت أن ثمة سبباً آخر أكثر أهمية كان يوماً شتائياً بارداً هبت فيه الريح القارسة من التلال المحيطة . كان يوم أحد ، وقد طرأ بشكل ما تغيير على كل

شيء كان هناك قارب سيغادر في غضون عشرة أيام ومجرد معرفتي أني سأستقل ذلك القارب أنهى الرحلة

قرر كاتسيمباليس أن يقوم بزيارة عرّاف أرمني كان هو وبعض رفاقه قد استشاروه . وافقت برشاقة ، بما أني لم يسبق لي أن ذهبت الى عرّاف في حياتي . كدت أفعل مرة في باريس ، بعد أن شاهدت الأثر الهذياني لتجربة مماثلة على اثنين من أصدقائي المقرّبين . كان رأيي انه لا يمكن توقّع أكثر من قراءة متفائلة أو متشائمة لما يجري في ذهن المرء

كان مسكن هذا العرّاف المعنيّ يقع في حي اللاجئين الأرمن من أثينا ، وهو منطقة من المدينة لم أكن قد زرته . سمعت انه قذر وفاتن ، ولكن لم أسمع عنه شيئاً يمكن اعتباره مقدمة صالحة لما استقبل ناظري . لا شك ان أقل ملامح هذا الحي غرابة كان ازدواجيته . فحول محّ البيضة الفاسد هذا تقع قوقعة اجتماعية جديدة ونظيفة . هؤلاء اللاجئين البؤساء ينتظرون منذ عشرين عاماً لِيُنقَلوا الى أحياء جديدة وُعِدوا بها ، وهذه البيوت الجديدة التي أعدّتها الحكومة وهي جاهزة للسكنى (مجاناً على ما أعتقد) هي على أحدث طراز بكل ما في الكلمة من معنى . المقابلة ما بين هذه والزرائب التي نجح اللاجئون في البقاء احياء فيها طوال جيل كامل هي ، على أقل تقدير ، مذهلة . لقد أمّن مجتمع كامل لنفسه من كومة نفايات مأوى له ، ولمواشيه البيتية ، وقوارضه ، وقمله ، وبقّه ، وميكروباته . ومشهد هذه الكتل المكسوّة بالبثور المتقرّحة من الانسانية ليس غريباً طبعاً في مسيرة الحضارة . وكلما أضحت المدن العالمية مثيرة للذهول في أناقتها وأبعادها ، في قوتها وتأثيرها ، كلما زادت الجيشانات عنفاً ، واتسعت جيوش الحفاة ، والمحرومين ، والمشردين ، والمعوزين الذين ، خلافاً لأرمن أثينا

البؤساء ، لا يُسمح لهم حتى بالبحث في أكوام القذارة عن قطع يبنون بها مآوى لهم بل يجبرون على المحافظة على المسيرة كالأطياف ، يقابلون وهم في أرضهم بالبنادق ، والقنابل اليدوية ، والأسلاك الشائكة ، يُعزَلون كالمجدومين ، يُطردون كحشرات مؤذية .

كان بيت آرام هورابديان مطموراً في قلب المتاهة وتطلَّب وصولنا اليه الكثير من الأسئلة والمناورات . وعندما عثرنا أخيراً على اللوحة الصغيرة التي تعلن عن مسكنه اكتشفنا إننا قد أبكرنا كثيراً في المجيء . قتلنا ساعة أو نحوها نتسكَّع في الحي ، مندهشين ليس لوجود القذارة بل للجهود الانسانية المتكافلة التي بُذِلَت لتزيين وتجميل هذه الأكواخ البائسة . ورغم أنها بُنِيَت من كومة من سقط المتاع كان في هذه القرية الصغيرة سحر صاف وشخصية مميَّزة أكثر مما تراه في مدينة حديثة . تثير في البال كتباً ، لوحات ، أخلاقاً ، أساطيراً ، تثير اسماء مثل لويس كارول [٥] ، هيرونيموس بوخ ، بروغل ، ماكس ارنست ، هانس ريخل ، سيلفادور دالي ، غويا ، غيوتو ، بول كلي [٦] ، وهذا بعضهم فقط . وسط أكثر أشكال الفقر والمعاناة روعاً تولَّدَ ، مع ذلك ، وهج كان مقدساً ، ودهشتنا لعثورنا على بقرة أو خروف في نفس الغرفة مع الأم والولد فسحت مجالاً فورياً لشعور المهابة . ولم يثر مرآى كوخ حقير متوّج بشمس مرتجل بُني من قطع القصدير أدنى رغبة في الضحك . كان كل مأوى مقسَّم بشكل متشابه ، وهو يضم مؤنة لطيور الجو كما لحيوانات الحقل . الحزن والألم وحدهما يقرِّبان الانسان من أخيه الانسان ، وعندئذ فقط ، كما يبدو ، تصبح حياته جميلة . توقفت ، وأنا أسير في شارع غائر مبلَّط ، برهة لأنظر الى واجهة مكتبة ، وقد أُخذْتُ بمرأى مجلات المغامرات المثيرة التي لا يتوقع المرء أن يعثر عليها في بلد أجنبي لكنها تزدهر في كل مكان من كل بلد ، وبكل اللغات تقريباً .

ظهر بارزا بينها كتاب أحمر الغلاف ولامع لجول فيرن ، نسخة يونانية من « عشرون ألف فرسخ تحت البحر » وما أثّر بي بشدة في تلك اللحظة هو ان العالم الذي تندثر فيه هذه القصة الرائعة كان أكثر روعة من كل ما تخيله جول فيرن . كيف يمكن لأي انسان ان يتصوّر ، وهو قادم من قلب السماء من كوكب آخر في منتصف الليل ، مثلاً ، وقد وجد نفسه في هذا المجتمع العجيب ، ان على هذه الأرض كائنات أخرى تعيش في ناطحات سحاب يعجز العقل عن وصف المواد المصنوعة منها ؟ وإذا كان ثمة بَيْنٌ كهذا بينَ عالمين على هذا القدر من القرب فما هو يا ترى البَينْ الموجود بين العالم الحالي والعالم التالي ؟ وتكفي رؤية خمسين او مائة سنة من المستقبل حتى ترهق مخيلتنا الى أقصى حد ، إننا عاجزون عن تصور أبعد من دورة الحرب والسلام المتكرّرة ، والغني والفقير ، الحق والباطل ، الخير والشر . اذهب ببصرك الى عشرين ألف عام الى الأمام ، فهل لا تزال ترى بوارج حربية ، وناطحات سحاب ، وكنائس ، ومصحّات للمجانين ، وأحياء فقيرة ، وبيوتاً فخمة ، وحدوداً وطنية ، وتراكتورات ، وآلات خياطة ، وسردين معلّب ، وحبوباً صغيرة لعلاج الكبد ، الخ الخ ؟ كيف ستُستأصل هذه الأشياء ؟ كيف سيحلّ العالم الجديد ، شجاعاً كان أم بائساً ؟ أسأل نفسي جادّاً وأنا أنظر الى مجلّد جول فيرن الجميل ـ كيف سيحلّ ؟ والحق اني تساءلت إن كان إلغاء هذه الأشياء قد شغل تفكيرنا جديّاً . إذ بينما أنا واقف أحلم يقظاً تولّد لدى انطباع بان كل شيء واقف مكانه ، أني لست إنساناً يعيش في القرن العشرين بل زائراً لا ينتمي لأي قرن يرى ما رآه قبلاً وسيظل يراه مراراً وتكراراً ، وتفكيري بامكانية هذا كان مثيراً للغم الطاغي .

فتحت زوجة العرّاف الباب لنا كانت سحنتها هادئة وقورة تركت

تأثيرها المفضّل عليّ على الفور . أشارت الى الغرفة المجاورة حيث جلس زوجها على طاولة بقميصه ، ورأسه معتمد على مرفقيه . كان واضحاً انه منغمس بقراءة كتاب توراتي ضخم يبحث في تفسير الكتاب المقدّس . حين دخلنا الغرفة نهض وصافحنا بترحاب . لم يكن يحوطه جو متكلّف أو متفاخر ، والحقيقة انه كان أشبه بنجّار يتابع دراساته الربّانية منه الى هيئة وسيط . أسرع بالقول انه لا يملك أية قوى غير عادية ، انه ببساطة درس القبلانيّة(*) لعدّة سنين وانه استرشد بفن علم الفلك العربي.. يتكلم العربية ، والتركية ، واليونانية ، والأرمنية ، والألمانية ، والفرنسية ، والتشيكية ولغات أخرى عديدة وظل حتى عهد قريب يعمل في القنصلية التشيكية . كل المعلومات التي طلبها هي تاريخ وساعة ومكان الولادة ، اسمي الأول والاسم الإول للأم والأب . ويجب ان أقول هنا إنه قبل أن يطرح عليّ هذه الأسئلة ألمح لكاتسيمباليس إلى اني من برج الجدي على الطريقة الجوبيتيرية . استشار كتبه ، وقام بتخميناته برويّة ونظام ثم ، رفع عينيه، بدأ يتكلم. حدّثني بالفرنسية ، ولكن بين الآونة والاخرى ، حين تعقّدت الأمور ، كان يتوجّه الى كاتسيمباليس باليونانية ويترجم هذا الأخير لي بالانكليزية . كان الوضع ، من الناحية اللغوية على الأقل ، مثيراً للاهتمام . شعرت ، وبشكل غير عادي ، بهدوء، وسكينة ، وثقة بالنفس ، واعياً ، أثناء كلامه ، لكل شيء في الغرفة دون أن أنفصل عنه مع ذلك ولو للحظة . كنا جالسين في غرفة الجلوس النظيفة والمرتّبة جداً ، وذكّرني الجو العام ، وبقوة ، ببيوت رجال الدين الفقراء الذين زرتهم في مدن أخرى من العالم .

(*) القبلانيّة . فلسفة دينية سرية ، عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط ، مبنيّة على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً . ـ مورد .

بدأ بابلاغي اني أقترب من مرحلة جديدة وعلى جانب كبير من الأهمية من حياتي ، وأني حتى هذا الوقت ، كنت أدور في حلقات مفرغة ، واني خلقت لنفسي أعداءاً كثيرين (بسبب ما أكتب) وسبّبت الكثير من الأذى والألم للآخرين . قال اني لست فقط أعيش حياة مزدوجة (أعتقد انه استخدم كلمة فصاميّة) بل حياة متعدّدة المستويات وانه لا أحد يفهمني حقاً ، حتى أقرب أصدقائي . ولكن قريباً ، قال ، سيتوقف كل هذا . فى وقت معينّ حدّده لي ، سأجد أمامي طريقاً مفتوحة واضحة ، وقبل أن أموت سأجلب الفرح العظيم للعالم ، لكل إنسان في العالم ، هكذا أكّد ، وسينحني أعظم أعدائي أمامي طالباً المغفرة . قال أني سأنعم قبل موتي بأبهى مظاهر التشريف ، والمكافآت التي يمكن لإنسان أن يمنحها لإنسان . سأقوم بثلاث رحلات الى الشرق حيث سأقابل ، من بين أشياء أخرى ، رجلاً سيفهمني كما لم يفهمني أحد من قبل وأن هذه المقابلة لا مفر منها لكلينا ، وانني في آخر رحلة لي الى الشرق لن أعود ، ولن أموت ، بل سأتلاشى في النور . هنا قاطعته لأسأل أن كان يعني بهذا إني سأخلّد من خلال أعمالي ومنجزاتي ، فأجاب بجلال وفخامة إنه لا يعني هذا ، وإنه ببساطة وحرفيّة يقصد أني لن أموت أبداً . أعترف باني ذهلت لهذا ونظرت الى كاتسيمباليس ، دون أن اتفّوه بكلمة ، لاتأكد من أن سمعي سليم .

تابع قائلاً إن هناك إشارات ودلالات لا يفهمها هو نفسه لكنه سينقلها اليّ كما هي . ورجوته أن يفعل دون أن أدهش على الاطلاق ، مضيفاً إني جدير بفهم نفسي تمام الفهم . بدا مرتبكاً بوضوح ومتأثراً بقوة لأني ، كما بدا ، أتمتع بكل دلائل القدسية وفي الوقت نفسه كانت قدماي مقيدتين الى الأرض . توقف ليشرح أقواله لكاتسيمباليس

باليونانية ، وقد بدا عليه الانفعال التام والخوف من أن يعطي تفسيراً ليس متأكدا منه . ثم استدار اليّ من جديد وشرح ، بحديثه وكلماته ، انه يعتبر إنها مناسبة فريدة أن يكوْن في حضرة شخص مثلي واعترف إنه لم ير أبداً مثيلاً للدلالات لحياة بديعة كالتي تنتظرني الآن . وسألني في هذا الخصوص ان لم أنجُ من الموت عدة مرات . أضاف ، دون أن يصبر على التأكيد « في الحقيقة إنك نجوت دائماً وباعجاز كلما واجهك موقف ميئوس منه أو غير محتمل . وستنجو دائماً ، أنت تعيش حياة ساحرة . أريدك أن تتذكر كلماتي ، كلما واجهك خطر بعد الآن ـ وانه مهما كان الموقف خطيراً يجب أن لا تستسلم ، فستنجو . إنك مثل سفينة بموجِّهين ، حين يتعطّل أحدهما يعمل الآخر . بالاضافة الى هذا فأنت مزوّد بجناحين ، يمكنك أن تحلّق عالياً عندما يحين وقت تلاشي المحيطين بك . أنت مُصَان ، وليس لديك الا عدو واحد ـ نفسك » وهنا نهض وانعطف نحوي ثم أمسك يدي ورفعها الى شفتيه .

انني أعطي زبدة أقواله ، وأحذف تفاصيل عديدة تخص علاقاتي مع الأخرين لا تهم القارىء الا اذا عرف الشخصيات وطبيعة العلاقات القائمة . كل ما قاله عن الماضي دقيق بشكل صاعق ومعظمه عن أشياء لم يكن لأي انسان في اليونان ، حتى دريل وكاتسيمباليس ، أن يُلمَّ بأي شيء حولها . تجاذبنا الحديث لبضع لحظات قبل أن نذهب وأثناء المحادثة توسّل اليّ ، بما أني عائد الى أميركا ، أن ابحث عن أخيه في ديترويت الذي كان يأمل أن ينال منه معونة . هناك حادثة صغيرة طارئة نسيتها وتستحق الذكر ، لأنها فاجأتني بكونها ذات صفة أرمنية بحتة . فأثناء ما كان يكلمني عن الشهرة والمجد ، مظاهر الشرف والمكافآت التي سأتلقاها أشار بطريقة مبهمة ـ « لكنني لا أرى نقوداً » ! هنا ضحكت

ملء قلبي . فالنقود هي الشيء الوحيد الـذي لم أملـكه ، ومـع ذلك عشت حياة غنية هي قبل كل شيء حياة سعيدة . فلماذا أحتاج الى النقود الآن ـ أو فيما بعد ؟ حين احتجت حاجة ماسّة الى النقود كنت دائماً أجد صديقــاً . ولا أزال على اعتقــادي بأن لي أصدقــاء في كل مكان . وسأكتسب المزيد والمزيد منهم مع مرور الزمن . واذا توفرت لديّ النقود فقد أصبح لا مبالياً ومتهاوناً ، مؤمناً بضمان لا وجـود له ، مؤكداً على تلك القيم الموهمة الفارغة . لا هواجس لدي حول المستقبل . في الأيام الحالكة القادمة ستصبح النقود ، وأقل من أي وقت آخر ، وسيلة حماية ضد عواتي الشر والتألّم .

لا شك إن المقابلة تركت بي أثراً عميقاً . شعـرت فوق كل شيء بأني طاهر . وبغضّ النظر عن اشارته المبهمة عن عدم موتـي فكل ما رسمه لمستقبلي شدهني . لطالما توقّعت كل شيء من العالم ودائماً كنت مستعداً لأن أهِبَ كلَ شيء . وكان لدي ، حتى قبل أن أغادر باريس ، قناعة بأني في آخر الأمر سأكسر الحلقات المفرغة التي ، كما قال ، ستدوم سبع سنين . لقد غادرت باريس قبل الحرب وأنا أعرف أن حياتي هناك قد انتهت . وقراري بنيل اجازة لمدة عام ، وامتناعي عن الكتابة في تلك الاثناء ، واختياري لليونان بالذات الذي كان ، كما أراه الآن ، البلد الوحيد الذي بامكانه أن يرضي حاجاتي الجوّانيّة ، كل هذا كان رائعاً . في آخر عام أو نحوه في باريس كنت ألمح الى أصدقائي بأني سأتخلى في يوم ما عن الكتابة كلها ، أتركها طواعية ـ هذا حين سأشعر أني أسيطر على أعظم قدراتي وبراعتي . ودراسة بلزاك ، كتابي الأخير في باريس ، لم يكن سوى تأكيد لفكرة كانت قد بدأت تتبلـور لدي ، وهـي أن حياة الفنان ، وتفانيه لفنه ، هما أعلى وآخر مراحل الأنانية في الانسـان . هناك

أصدقاء يقولون لي اني لن أكف عن الكتابة ، لأني لا أستطيع لكني توقفت ، ولفترة طويلة أثناء وجودي في اليونان ، وأعلم أني سأستطيع في المستقبل ، ووقتما أريد ، والى الأبد . لا أشعر اني مضطر للقيام بأى شيء معينٍ . بل على العكس ، أشعر ازدياداً في انعتاقي ، ويزداد أكثر فأكثر برغبتي في خدمة العالم بأسمى طريقة ممكنة . أما ما هي هذه الطريقة فهذا ما لم أحدّده بعد ، ولكن يبدو واضحاً لي أني سأنتقل من الفن الى الحياة ، لأعطي مثلاً عن كل ما برعت به ، من خلال الفن ، بأسلوب حياتي . قلت إني شعرت بالطهارة ، ويصح أيضاً أن أقول اني شعرت بالرفعة . لكني شعرت فوق كل شيء بحس بالمسؤولية لم أعرفه من قبل . وأعجّل فأقول إنه حس بالمسؤولية نحو نفسي . وبدون أن أنال المكافآت التي تحدّث عنها استمتعت بها مع ذلك مقدّماً ، استمتعت بها ، أقصد ، في الخيال . وطوال كل السنين التي كتبت خلالها أشبعت نفسي بفكرة اني لن أُقبَل حقاً ، ليس بين أبناء بلدي على الأقل ، إلا بعد موتي . وكثيراً ما أطللت من القبر ، بالكتابة ، وأنا أكثر إدراكاً لردود أفعال الآتين مني لمعاصريّ . ان قسماً كبيراً من حياتي عشته ، بشكل ما ، في المستقبل . انني ، فيما يتعلق بكل ما يثير اهتمامي بقوة ، رجل ميت حقاً ، ولست حياً الا بالنسبة للقلّة الذين ما استطاعوا ، مثلي ، الانتظار حتى يدركهم العالم . لا أقول هذا بدافع من الغرور أو التفاهة ، بل بمذلّة لا تخلو من حزن ، حتى كلمة حزن لا تكاد تكون الكلمة الصحيحة ، ما دمت لا أندم على المنهج الذي اتّبعت ولا أرغب في أن تكون الأشياء على غير ما هي عليه . أعرف الآن ما هو العالم وأعلم اني أقبله ، بخيره وشرّه . اكتشفت ان العيش بابداع يعني العيش بلا-أنانية أكثر فأكثر ، العيش في العالم أكثر فأكثر ، ومطابقة الذات معه وبالتالي التأثير فيه من اللّب ، إن صح التعبير . الفن ،

كالدين ، كما يبدو لي الآن ، هو مجرد استعداد ، ابتداء بسبيل الحياة . والهدف هو الانعتاق ، الحرية ، وهي تعني تولّي مسؤولية أعظم . ان متابعة الكتابة الى ما وراء معرفة الذات يبدو غير مُجْدٍ ومعيق . فالتفوّق في أي شكل من أشكال التعبير يجب ان يؤدي حتماً الى الصيغة النهائية ـ السيطرة على الحياة . هنا يصبح المرء وحيداً بشكل مطلق ، يقف وجهاً لوجه مع عناصر الوجود الأولى . إنها تجربة لا أحد يمكنه التكهُّن بنتيجتها . إنْ نجحت تأثّر العالم كله بها بطريقة لم تعرف من قبل . لا أود أن أبدي غطرسة ، ولا أن أقول اني على استعداد لأقوم بخطوة خطيرة مثلها ، إلا أن تفكيري متجه صوب هذا المنحى . كان اعتقادي قبل مقابلة الأرمني ، ولا يزال ، انه حين ستُخلَع عليّ مظاهر التشريف والمكافآت لن أكون حاضراً لأتلقّاها ، واني سأكون وحيداً مجهولاً في جزء ناءٍ من العالم متابعاً المغامرة التي بدأت بمحاولة معرفة ذاتي بالكلمات . أعرف أن أعظم الأخطار تقع أمامي ، والرحلة الحقّة قد بدأت للتو . بينما أكتب هذه السطور تكون قد مرّت سنة على تلك اللحظة في أثينا التي وصفتها من قبل . وأضيف هنا اني منذ مجيئي الى أميركا وكل ما حدث لي ، كل انجاز ومعرفة بعد أخرى ، تحقّق بدقّة فائقة . انني مرتاع ، لأنني الآن ، خلافاً لحياتي في الماضي ، يكفي ان أرغب في شيء حتى يلبّىٰ في يسر ، إنني في موقف حرج لشخص عليه أن يحذر من الرغبة في شيء لا يريده حقاً . وكان الهدف هو أن أقلل من رغباتي أكثر فأكثر . والرغبة الوحيدة التي ظلت تنمو باضطراد هي رغبة العطاء والحس الحقيقي بالقوة والثراء الذي يستتبع هذا هو بدوره مخيف نوعاً ما ـ لأن منطقه يبدو متناهي البساطة . لم أفهم ان حكمة العطاء ليست بهذه البساطة الا بعد أن نظرت حولي وأدركت ان الغالبية العظمى من الناس يحاولون يائسين المحافظة على ما يملكون أو زيادة

ممتلكاتهم . العطاء والأخذ هما في العمق شيء واحد ، ويرتبطان بكون المرء يعيش حياة منفتحة او منغلقة . حين يعيش المرء منفتحاً يغدو وسيطاً ، ناقلاً . بالعيش هكذا ، كالنهر ، يختبر الحياة حتى الثمالة ، يندفع مع تيار الحياة ، ويموت ليحيا من جديد محيطاً .

أيام العطل تقترب والكل يستحثّني لارجاء رحيلي الى ما بعد عيد الميلاد . يتوقّع أن يبحر القارب في غضون يومين أو ثلاثة . وفي الوقت الذي تخلّيت عن كل أمل تلقّيت كلمة تقول أن القارب قد أعيق في غيبرالتار وأننا لن نتمكن من الابحار لمدة أسبوع على الأقل ، وربما عشرة أيام . وقرر دريل ، الذي استعار سيارة ماكس ، ان يقوم برحلة الى البيلوبونيزيوس وأصر على مرافقتي له ونانسي . ان كان القارب سيبحر خلال أسبوع فثمة فرصة طيبّة في أن يفوتني . فلا يمكن لأحد أن يتأكد من موعد ابحاره . وقررت أن انتهز الفرصة وأفترض إنه سيتأخر اكثر من أسبوع .

في بعض الأحيان كنت أعود لزيارة اليوس مع غيكا . كان وقتاً متأخراً من بعد الظهر عندما دعاني الى سيارته . وحين وصلنا الى ديلفي كانت الشمس تغرب بروعة صارخة . ورسمته في مخيلتي غروباً أخضر . لم تكن السماء مرة أكثر صفاء ولا اثارة . كنا نتسابق للوصول الى الأطلال قبل حلول الظلام ، ولكن عبثاً . وصلنا لنجد الأبواب مغلقة . وبعد قليلٍ من محاولة الاقناع سمح لنا الحارس بالدخول . وقادني غيكا مشعِلاً عود ثقاب بعد آخر . كان مشهداً عجيباً ولن أنساه دهري . بعد أن انتهينا مشينا في الشوارع البائسة الى شاطيء الميناء المواجه لسلاميس . في هذا المنظر شيء مشؤوم وثقيل الوطأة في الليل . مشينا في طول الميناء وعرضه ، تلسعنا الريح القوية ، وتكلّمنا عن أيام

خلت . وساد صمت ينذر بالسوء في كل مكان وأضفت أضواء اليوس الجديدة المتألّقة على المكان جواً أكثر رثاثة مما يضفيه ضوء النهار . ولكن ونحن عائدان الى أثينا كوفتنا بالوضوح الكهربائي الذي بالنسبة لي لا مثيل له بين مدن العالم . اليوناني يعشق الضوء الكهربائي كعشقه لنور الشمس . لا ظلال رقيقة ، كما في باريس ونيويورك ، بل نوافذ تتلظّى جميعاً بالضوء ، وكأن السكان قد اكتشفوا لتوّهم عجائب الكهرباء . تتلألأ أثينا كشمعدان في غرفة جرداء مبطّنة بالقرميد . لكن ما يمنحها خاصيتها الفريدة ، رغم الأضاءة المفرطة ، هي النعومة التي تحظى بها وسط الوهج . وكأن السماء ، التي تزداد ميوعة ، ومادية ، قد انخفضت لتملأ كل صدع بدفق مغناطيسي . أثينا تسبح في تبخّر كهربائي يأتي مباشرة من السماوات . لا تترك أثرها فقط على الأعصاب والأعضاء الحسية من الجسم بل وعلى الوجود الداخلي . عند الوقوف على أية ربوة صغيرة يجد المرء نفسه في قلب أثينا ويشعر بالصلة الحقيقية للانسان مع بقية عوالم الضوء . في نهاية شارع أناغنا ستوبولو ، حيث قطن دريل ، ثمة جرف صغير يتيح للناظر الاطلال على جزء كبير من المدينة ، وصرت أقف هناك ، ليلة بعد ليلة ، بعد تركه ، لأغيب في نشوة عميقة ، ثملاً بأضواء أثينا والأضواء التي فوقها . في « القلب المقدس » بباريس يتاح للمرء شعور من نوع آخر ، ومن قمة بناية إمباير ستيت الشاهقة في نيويورك ، شعور مغاير . أطللت على براغ ، بودابست ، وفيينا ، وعلى ميناء موناكو ، وكلها جميلة ومؤثرة في الليل ، لكن لا أعرف مدينة أقارنها بأثينا عندما تشتعل بالأضواء . يبدو من سخف قول هذا ، ومع ذلك لدي شعور بانه في أثينا لا يتلاشى نور النهار المعجز تماماً أبداً ، هذه المدينة الناعمة ، الهادئة لا تحرّر ، بطريقة غامضة ، كل الشمس من قبضتها ، ولا تصدّق أبداً ان النهار

قد انتهى . وغالباً ، بعدما أودّع سيفريادس مساء أمام منزله في شارع كيداثينايون ، أتجول متجهاً الى زابيون وأتنقل تحت أضواء النجوم الباهرة ، مكرراً لنفسي وكأني أتمتم تعويذة « أنت في جزء آخر من العالم ، في خط عرض آخر ، أنت في اليونان ، في اليونان ، أتفهم » ؟ كان من الضروري تكرار كلمة اليونان لأنني أشعر شعوراً غريباً بأنني في بيتي ، بأنني في بقعة مألوفة جداً ، تشبه البيت كما يجب أن يكون حتى إنها أصبحت من شدّة النظر اليها بِوَلَه مكاناً جديداً وغريباً . ولأول مرة في حياتي أيضاً قابلت رجالاً كانوا كما يجب أن يكون عليه الرجال ـ أي ، منفتحين ، صريحين ، طبيعيين ، عفويين ، ودودين . هذه هي نماذج الرجال الذين توقّعت مقابلتهم في بلدي عندما كنت أنمو رجلاً ، ولم أجدهم أبداً في فرنسا وجدت نوعاً آخر من الكائنات البشرية ، نموذجاً أعجبني واحترمته لكنني لم أشعر بقربي منه . لقد قدّمت اليونان لي نفسها ، وكيفما نظرت اليها ، باعتبارها مركز الكون ؛ المكان المثالي لاجتماع انسان مع انسان في حضرة الله . كانت أول رحلة قمت بها وكانت مرضية تماماً . لم يكن فيها أوهى أثر لخيبة الأمل ، وفيها أعطيت أكثر مما توقعت . الليالي الأخيرة في زابيون ، وحدها ، الملأى بالذكريات الرائعة ، بأي خوف . لقد قدمت لي اليونان شيئاً لا يمكن لنيويورك ، لا ، بل حتى أميركا نفسها ، أن تدمّره أبداً . جعلتني اليونان كلاًّ واحداً حراً . شعرت أني على استعداد لمقابلة التنين وذبحه ، فقد ذبحته لتوّي في قلبي . تمشّيت متنقلاً وكأني أمشي على مخمل ، أؤدي أناشيد الاجلال والشكر لباقة الأصدقاء الصغيرة التي جمعتها في اليونان . أحب هؤلاء الرجال ، واحداً واحداً ، لأنهم كشفوا لي أبعاد الكائن البشرى الحقيقية . أحب التراب الذي نموا فيه ، والشجرة التي تفرّعوا منها ، والنور الذي أينعوا فيه ، والطيبة ، والكمال ، والكرم

الذي أبدوه . لقد وضعوني وجهاً لوجه مع نفسي ، طهّروني من الحقد والغيرة والحسد . وأظهروا لي بقدوتهم ، وليس بمقدار أقل ، انه يمكن للحياة أن تعاش بروعة وعلى أي مستوى ، في أي مناخ ، وتحت كل الظروف . دعني أقول لمن يعتقدون ان اليونان اليوم لا أهمية لها انه ليس هناك أكثر من هذا الخطأ يرتكبونه . فاليوم كما في الزمن الغابر لليونان أهمية قصوى لكل إنسان يبحث عن نفسه . تجربتي ليست فريدة . وربما يجب أن أضيف انه ليس في العالم شعب بحاجة لما تهبه اليونان أكثر من الشعب الأميركي . اليونان ليست فقط نقيضاً لأميركا بل أكثر من ذلك ، هي دواء العلل التي تنهشنا قد لا تبدو هامة من الناحية الاقتصادية ، أما روحياً فلا تزال اليونان أم الأمم ، منبع الحكمة والإلهام .

***

لم يبق الا بضعة أيام . في اليوم السابق لعيد الميلاد جلست في الشمس على دكّة فندق الملك جورج ، منتظراً ظهور دريل ونانسي مع السيارة . الجو مريب ، قد يسقط مطر غزير . كان يجب أن نغادر في العاشرة صباحاً ، والساعة الآن الثانية . أخيراً وصلوا في سيارة ماكس الصغيرة الانكليزية المهلهلة التي تبدو كبقّة متضخّمة . السيارة لا تعمل كما يجب ، خاصة الفرامل . دريل يضحك ، كعادته . يضحك ويكيل السباب في الوقت نفسه . وتكاد السيارة ترتطم بالأرض . انه يأمل أن يفوتني القارب . هل نتوقف لحظة ريثما يبتاع صحيفة وسندويشاً ؟ انه يتابع أخبار الحرب عن قرب . وأنا لم أقرأ أية صحيفة منذ تركت باريس ، أتعمّد أن لا أقرأ أية صحيفة حتى أصل الى نيويورك حيث أعرف انني سأحصل على نظرة شاملة للأمور .

أول ما لاحظت ، ونحن ننطلق مسرعين ، انه لم يعد الوقت

خريفاً . السيارة من النوع المكشوف تعلوها مظلّـة ركوبهـا ممتـع في الشمس ، ولكن ما ان يحل الظلام ستصبح غير مريحة . وبينما نحن نسير على طرف الجبل نطل على البحر يسألني دريل فجأة ماذا يخطر على بالي عند ذكر اسم كورنيث . أجيب فوراً « ممفيس » ، ويقول « وأنا أفكر في شيء ضخم ، نضر ، وحسّي » نقرر أن نقضي الليل في كورنيث ثم ننتقل الى سبارطة . نتوقف برهة عند القنال . إنها أول لمسة احمرار . في قنال كورنيث طابع مصري واضح . ندخل مدينة كورنيث الجديدة في وقت متأخر بعد الظهـر . إنهـا أي شيء عدا كونهـا جذّابـة . شوارع عريضة ، بيوت صندوقية واطئـة ، حدائـق مقفـرة ـ جديدة بأسـْوأ ما توحيه الكلمة . نختار فندقاً بتدفئة مركزية . نخرج لتنـاول كأس من الشاي ، ثم ننطلق الى كورنيث القديمة لنلقي نظرة على الأطلال قبـل هبوط الظلام . تبعد كورنيث القديمة عدة أميال ، وتقوم على مرتفع يطل على أرض بور . يتّخذ الموقع في ضوء بعد ظهر يوم شتائي طابعاً قبل ـ تاريخي . فوق الأطلال تنهض ، القاعدة العظمى لصرح كورنيث ، وهي نوع من الهضبة الأزتيكية (7) ، التي كانت تُؤَدى عليها ، ويمكن تصوّر الأمر بسهولة ، شعائر الأضاحي الدموية .

ما إن صرنا وسط الأطلال حتى تغيّرّ الانطباع كله . فقاعدة كورنيث الشامخة الآن تلـوح رقيقة سارّة ، حجر مغليث عملاق نَمَت عليه طبقة من الصوف . كل دقيقة تمر تهطل نشوة ، رقة جديدة ، على المشهد . دريل كان على حق ثمة شيء غنيّ ، حسّي ونضر في كورنيث . إنها الموت في كامل ازدهاره ، موت وسط دمار شهواني مهدّيء . أعمدة المعبد الروماني ضخمة كما قال ، شرقية في نِسَبِها ، ثقيلة ، جاثمة ، ضاربة في الأرض ، كسيقان فيل مصاب فقدان الذاكرة . في كل مكان

تتبدّى هذه الخاصيّة المزدهرة ، المتعاظمة ، المكتملة النضج ، المتسامية بضوء هو لون الورد ينبثق من الشمس الغاربة . نمشي حتى النبع ، الغائص عميقاً في الأرض كمعبد مستتر ، مكان غامض يوحي بصلات قربى من الهند والجزيرة العربية . فوقنا ينهض السور السميك الذي يحيط بالموقع، العتيق . وفي السماء يصدح لحن ثنائي أثيري رائع ، والشمس ، التي أضحت كرة من نار ، صارت الآن منضمّة الى القمر . وفي طوفان الأنغام المتبدّلة بسرعة التي أرسلها اتحاد هذين الجرمين السماويين تتوهج أطلال كورنيث وتشع جمالاً علوياً . أثر واحد فقط امتنع ـ هطول مفاجيء لضوء النجوم .

طريق العودة يقود الى عالم آخر ، فبالاضافة الى الظلام ثمة ضباب يرتفع من البحر . خيط رفيع متلألىء من الأضواء يحدّد الشاطىء في الطرف الآخر من الخليج حيث تشمخ الجبال بهدوء وتسام . وكورنيث ، كورنيث الجديدة ، مغمورة في عرق بارد يخترق العظام .

قررنا ، ونحن نبحث عن مطعم بعد ذلك بقليل ، ان نقوم بجولة منشّطة عبر البلدة أولاً . لم يكن أمامنا الا أن نطرق أحد الشوارع العريضة التي تؤدي الى لامكان . إنها ليلة عيد الميلاد ، ولكن لا شيء هنا يدل على أن أحداً على علم بذلك . وأثناء اقترابنا من بيت منفرد مضاء بمصباح كيروسين يدخّن تأسرنا فجأة أنغام ناي عجيبة . نحثّ خطانا ونقف وسط الشارع الفسيح نستقبل الموسيقى . باب البيت مفتوح ، يكشف عن غرفة ملأى بالر-ال ينصتون الى شخص بهيئة غريبة يعزف على الناي . يبدو الر- ں طروباً بموسيقاه ، موسيقى لم أسمع بمثلها من قبل وقد لا أسـع أبداً . تبدو ارتجالاً بحتاً ، واذا لم تُنهَك رئتاه ، فثمة وعود بأن لا يكون لها نهاية . إنها موسيقى التلال ،

أنغام وحشية لانسان منعزل سلاحه الوحيد آلته الموسيقية . انها الموسيقى الاصيلة التي لم تكتب لها أية نوطة ولا ضرورة لها . وهي عنيفة ، حزينة ، مستحوذة ، تثير الحنين ومتحدية ، لم تخلق لآذان الرجال بل لأذن الله . هي لحن ثنائي تسكت فيه الآلة الأخرى . وفي غمرة الانسجام يقترب منا رجل يمتطي دراجة ، يترجّل ، ينقر طرف قبعته ويسأل باحترام إن كنا غريبين ، إن كنا قد وصلنا هذا اليوم ربما . إنه ساعي برقيات ويحمل رسالة في يده الى امرأة أميركية ، كما يقول . يضحك دريل ويطلب أن يرى الرسالة . إنها تهنئة بعيد الميلاد للكونتيسة فون ريفينتللو (بربارة هتّون) ، نقرأوها ـ فهي مكتوبة بالانكليزية ـ ونعيدها اليه . يبتعد ، محدِّقاً في الظلام ككشّاف ، مستعداً ولا شك لاعتراض سبيل المرأة الطويلة القادمة ذات الشعر الذهبي الذي رأى إنها تلبس كالرجال . ذكّرتني الحادثة بأيامي الأولى في خدمة شركة التلغراف ، بليلة شتائية قابلت فيها ساعياً يجوب شوارع نيويورك مذهولاً ممسكاً بحفنة من الرسائل غير المسلّمة . ولما لاحظت النظرة البلهاء في عينيه أعدته الى المكتب الذي أتى منه ، حيث علمت انه كان تائهاً منذ يومين وليلتين . كان مزرقّاً من البرد ويثرثر كالسعدان . حين فتحت معطفه لأرى إن كان يوجد أية رسائل في جيوبه الداخلية اكتشفت إنه تحت البذلة الخشنة كان عارياً . في إحدى جيوبه عثرت على برنامج لمؤلفات موسيقية واضح انه هو الذي طبعها ، بما أن كل المقطوعات تشير الى أنه مؤلفها . انتهت الحادثة في قسم المراقبة في بلفو ، حيث وُسِمَ مجنوناً .

في المطعم ، الفسيح والمهوّى ، تناولنا وجبة لذيذة دسمة من النوع نفسه الذي يسبب غثيان الأنغلو ـ ساكسونيين . وأعترف طبعاً إنه حين

يصبح الطعام بارداً كالثلج يبطل بعض سحر المطبخ اليوناني ، ولكن بما ان الانكليز هم أسوأ الطباخين قاطبة فيجب أن يكونوا آخر من يتذمّر . وبمعيَّة بضع زجاجات من النبيذ جعلنا من ليلة عيد الميلاد الخالية من المرح أمتع ليلة . وكانت قمة الاحتفال ـ بعد أن غادر المتعشّون ـ هي كتابة بطاقات بريدية بصيغة دونكيشوتية دقيقة موجّهة الى شخصيات شهيرة مختلفة في جميع أنحاء العالم . عدنا الى الفندق ، وقد بات الآن دافئاً كقطعة خبز محمّصة وهرعنا الى السرير لتونا .

في الصباح خرجنا نبغي ميسينا التي لم تَزُرها عائلة دريل بعد . كان الهواء منعشاً ، والطريق هادئة ، نظيفة ، وكنا جميعاً بمزاج طيب . وأعتقد إن بلاد البلوبوليزيوس تترك الأثر نفسه على كل انسان . وأفضل طريقة للتعبير عنه هي القول إنه مثل طعنة ليّنة سريعة في القلب . ودريل ، الذي نشأ قرب الحدود التيبتية في الهند ، أثير أيّما إثارة واعترف إنه أحياناً يشعر وكأنه في الهند ، في الريف الجبلي . وحين اقتربنا من ميسينا تعاظم تأثره ، ورغم هذره الدائم وفصاحة تعبيره ، لاحظتُ بسرور إنه آثر الصمت .

في هذه المرة ، بما إننا مزودون بضوء كاشف ، قررنا أن نهبط الدرج الزلأق الى البئر . نزل دريل أولا ، ثم نانسي ، وتبعتهما بنشاط . في منتصف الطريق تقريباً توقفنا غريزياً ورحنا نتجادل في أمر الهبوط أكثر . مررت بتجربة الرعب نفسها التي مررت بها في المرة الأولى مع كاتسيمباليس ، وكان رعبنا أعظم حين هبطنا أكثر الى أغوار الأرض . كان ينتابني نوعان من المخاوف ـ واحد ، إن الدعامة الرقيقة الموجودة في أعلى الدرج ستنهار وتتركنا نختنق حتى الموت في الظلام الحالك ،

إثنان ، أن تزلقني خطوة خاطئة الى الحضيض وسط حشد من الأفاعي ، والسحالي والخفافيش . وقد أراحني كثيراً أن يوافق دريل ، بعد الكثير من الاقناع ، على التخلّي عن النزول . وزاد امتناني الآن لأنني صرت الأول بدل الأخير . حين وصلنا الى السطح كنت منقوعاً بالعرق البارد ولا زلت في عقلي أقوم بدفع الشياطين عني الذين راحوا يحاولون إعادتي الى الحمأة المفعمة بالرعب . حين أعود بذاكرتي اليها ، بعد مرور أشهر عديدة ، أؤمن ، وبشرف ، اني كنت أود لو أصرَع على أن أجبَر على نزول ذاك الدرج وحدي . والحقيقة ، أظن أنني كنت سأصاب بنوبة قلبية قبل الوصول الى القاع .

كان علينا أن نمر في أرغوس ، التي لم أرها إلا عن بعد من قبل ، ونعبر الجبال الى تريبولي . والصعود من سهل آرغيف الخصب الى أول طبقة من سلسلة الجبال هو تجربة مثيرة من نوع آخر . الدرب ضيقة جداً ، والمنعطفات حادة وخطرة ، والسقطة مباشرة . تسافر الباصات على هذه الطريق ، يقودها مهووسون على ما يبدو ، لأن اليونانيين ، كما ذكرت من قبل ، متهورون بالفطرة وطائشون . كانت الغيوم تتجمّع استعداداً للعاصفة وكنا قد بدأنا بعبور الجزء المكسور الممتد أمامنا . وكان السؤال الذي يضجّ في رؤوسنا هو ـ هل ستصمد المكابح ؟ طرحنا على أنفسنا هذا السؤال ونحن نفرشخ عابرين نتوّاً صخرياً شاهقاً عند منعطف حاد ، ننتظر بعصبية مرور الباص ، دون أن نمس الحاجز . أخيراً ، ونحن ندور حول حافة ما يشبه سلطانية الحساء التي قال دريل إنها أركادي ، بدأت تمطر مدراراً ، وتسبّب بتنشيط الريح القارسة ، قارسة كَيَدِ المنون ، أخذت تلسعنا بكل قواها . في هذه الأثناء ، بينما دريل يتلاعب بالدولاب المحلول بحذاقة مشعوذ ، راح يطنب بمواهب

دافني وكلوى(*) . كان المطر ينهمر من الجوانب والخلف ، وبدأت الآلة تشخر وتختنق ، وتعطّلت ممسحة الزجاج ، وتجمدت يداي وأخذ الماء يقطر من قبعتي ويسيل على ظهري . ولم أكن في أي مزاج طيب يسمح لي بسماع حكاية دافني وكلوي ، على العكس ، كنت أفكر ما اروع الجلوس على ذاك الدرج الزلّاق في ميسينا .

عندما وصلنا أعلى القمة تمكّنا من رؤية مشهد عريض تقع وسطه تريبولي فجأة توقف المطر وظهر قوس قزح ، من أكثر أقواس القزح التي رأيتها في حياتي بثّاً للشجاعة ، والمرح ، والظَفَر ، ليتبعه بعد قليل قوس آخر ، كأنهما معاً في متناول أيدينا ومع ذلك دائماً يبتعدان بإغراء عنا . لحقنا بهما بسرعة خطرة حتى التهوّر الى أسفل الوادي الضيق الملتوي المؤدي الى منبسط السهل .

تناولنا الغداء في فندق رائع ، شربنا المزيد من النبيذ ، هززنا أنفسنا كالكلاب وعدنا للانطلاق باتجاه اسبارطة . بدأت تمطر من جديد ، بسيل جارف استمر ، ما عدا لفترات انقطاع وجيزة ، ثلاثة أيام كاملة . لو أتيح لي أن أقوم بالرحلة ثانية فلن أطلب شيئاً أفضل من سيل جارف آخر كهذا . تغيّرت البريّة كلها كالسحر ، بفعل الطوفان الأسمر الذي كوّن بحيرات وأنهاراً رائعة الجمال . وأضحت الأرض أكثر فأكثر ذات طابع أسيوي في مظهرها ، تُغْني الاحساس بالرحلة وتؤكد بثقة توقعاتنا الحاذقة . ولما أمسى وادي اوروتاس في مجال نظرنا توقف المطر وجلبت الريح الجنوبية اللطيفة الدفء والعطر الممتعين متعة لا تقاوم . امتدت الى اليمين من السهل السبارطي الطويل سلسلة جبال تايغيتوس المجلّلة بالثلوج والممتدة بلا انقطاع حتى الطرف المدبب لشبه الجزيرة

(*) أسطورة يونانية تتحدث عن استيقاظ أحاسيس الحب لدى فتى وفتاة .

وازداد عبير البرتقال قوة أكثر ونحن نقترب من اسبارطة . حين دخلنا المدينة كانت الساعة حوالي الرابعة من بعد الظهر . الفندق الرئيسي ، الذي يحتل مساحة بناء مربّع ، كان ممتلئاً . واضطررنا للتجول ساعة أو نحوها قبل أن عثرنا على غرف . رأى دريل إنه مكان بائس ، ووجدته على العكس تماماً . صحيح إنه لا توجد الكثير من الآثار العتيقة في اسبارطة ، وقد لا تكون أفضل في هذا من كورنيث ، مع ذلك ، وربما لأنها مدينة جنوبية ، بدت أكثر مرحاً ، أكثر حياة وفتنة بالنسبة لي من كورنيث . يحوطها جو سوقي ، وقح ، وعدواني نوعاً ما ، وكأنها تأثرت بعودة اليونانيين المتأمركين . وسرعان ما لاحظوا إننا من الانكليز وتلقّينا التحية بالانكليزية عند كل منعطف ، وهو تصرف يمقته الانكليزي لكن أميركياً مثلي لا يتحسس كثيراً منه . الحقيقة اني أميل الى الاستمتاع بتلك التحيات المعتادة ، بما اني دائم الفضول وبقوة لاكتشاف إخواني من البشر ، وخاصة اليونانيين ، الذين يتمتعون بعبقرية النفاذ حتى أبعد الأماكن وأنآها . وما لم يتمكن دريل من فهمه ، بما إنه لم يذهب الى أميركا أبداً ، هو إن اللغة الخرقاء وسلوك هؤلاء اليونانيين الفائقي الود مألوفة تماماً ، وطبيعية ومقبولة لدى الأميركي ، بما إنها لا تكتسب إلا الاتصال مع أميركي أصيل . اليوناني ليس هكذا بالفطرة ، بل هو ، حسب تجربتي ، رقيق الحديث ، لطيف ومراع لشعور الآخرين . رأيت في أولئك السبارطيين آثاراً من الأشياء نفسها التي أرثيها في أبناء بلدي ، وددت لو أهنّئهم ، أفراداً وجماعات ، لنيّتهم الطيبة في الرجوع لأرضهم الأم .

ولما كان أمامنا وقت نقتله قبل العشاء قمنا بجولة سريعة الى ميستراس ، القرية البيزنطية التي تشكل آثارها العنصر الرئيسي لجذب

الزوار لاسبارطة . لم يكن مرقد أوروتاس المرصّع بالجلاميد قد أصبح السيل الدوّام الذي سيؤول إليه غداً . هو الآن أقرب الى مسيل سريع ، مثلج يندفع كأفعى سوداء في حوضه الضحل المتلألىء . لم ندخل الى موقع الأطلال لسبب أو لآخر ، واكتفينا بالجلوس في السيارة نمد أنظارنا عبر السهل المترامي . في طريق عودتنا مررنا بصديق لدريل ـ ولم نقف . هزّتني التحية لأنها شديدة العفوية والتلقائية . سألت « ماذا حدث ، هل أنت متخاصم معه » ؟ وبدا دريل مندهشاً لملاحظتي . لا ، ليس متخاصماً مع صديقه ـ ما الذي جعلني أظن هذا ؟ سألت « يعني ، أليس غريباً قليلاً أن تتجاوز صديقاً قديماً في بقعة غريبة من العالم كهذه » ؟ ولا أذكر الكلمات بالضبط التي استخدمها في إجابته ، لكنها كانت بشكل أساسي كالتالي « ماذا ستفعل مع انكليزي هنا ؟ إنهم سيئون بما يكفي في الوطن . هل تريد أن تفسد علينا عطلتنا » ؟ دفعتني كلماته للتأمل . وتذكرت ، في باريس لم أكن أطيق مقابلة أميركي . لكن هذا كان لأني اعتبرت باريس بيتي وبلدي ، مهما كانت الفكرة خاطئة ، فيها يشعر المرء بحقه في أن يكون فظاً ، متعصباً وانطوائياً . ولكن بعيداً عن الوطن ، وخاصة في مكان غريب تماماً ، طالما شعرت بالارتياح عند الالتقاء بأحد أبناء بلدي ، حتى وان اتضح انه ممل بشكل لا يطاق . والحقيقة اني عندما أتخلص من الصلات المألوفة ، فان الملل ، والعداوة والتحامل تزول عني . ولنفرض مثلاً إني قابلت أسوأ أعدائي في سمرقند ، فأنا متأكد من أني سأتقدم منه وأمد له يدي . بل وسأصبر على قليل من الاهانة والأذى لكي أربح حظوة عنده . ولا أدري لماذا ، اللهم الا إذا كان مجرد البقاء على قيد الحياة والتنفس في جزء مختلف من العالم يجعل العداوة والتعصب يبدوان من التوافه ، وهما كذلك . أذكر مقابلة مع أحد اليهود كان يمقتني ونحن في

أميركا ، لأنه اعتبرني معادياً للسامية . تقابلنا في محطة للسكة الحديد في بولندا بعد مضي عدة سنوات . وما ان وقع نظره عليّ حتى تلاشى حقده . لم أكن فقط سعيداً لمرآة بل ومتلهفاً للتعويض عن إثارة حقده ، خطأ أو صواباً بقصد أو بلا قصد . لو أني قابلته في نيويورك ، حيث تعارفنا مرة ، فما كان من المتوقع أن تكون ردود فعلنا هي نفسها . وأعترف أن التأمل هو تعقيب محزن على القيود الانسانية . إنه يثير تأملات أخرى أسوأ ، كالحماقة التي تسمح للزمر المتنافسة أن تستمر في قتال بعضها بعضاً حتى وهي تواجه عدواً مشتركاً .

نعود الى البلدة . نجلس في مقهى مزدحم حتى الاختناق بحجم محطة سكة حديد ، وإذا بصديق آخر يحيينا ، هذه المرة يوناني ، موظف باحدى الوظائف تعرّف عليه دريل في باتراس . وسرعان ما تمّ التخلص منه بطريقة مؤدبة ، ووديّة . لم يقصد جرحه ، أنا متأكد ، لأن دريل في هذا المجال أبعد ما يكون عن الخلال الانكليزية ، ومع ذلك شعرت بشكل ما كأننا نبني جداراً من الجليد حولنا . لو كنا في لندن أو نيويورك لانزعجت من مرح الجمهور الصاخب ولكن بما إننا في سبارطة فقد كنت في غاية الرضى عن هذا الجو الميلاديّ . لو كنت وحيداً لقدمّت نفسي بلا شك لمجموعة متجانسة وشاركتهم مرحهم ، مهما بدا تصرفي أحمقاً . لكن الانكليز لا يفعلون هذا ، الانكليز ينظرون ويتألمون ، بسبب عجزهم عن الانطلاق . إن ملاحظاتي هذه تعطي صورة مزيفة تماماً عن دريل للأسف ، وهو بشكل عادي الأكثر انطلاقاً ، ووداً ومرحاً ، وصراحة وعفوية مما يمكن تصوره في إنسان . لكن يوم عيد الميلاد هو يوم يسبّب المرض للأنغوساكسونيين الحساسين وقيادة سيارة متهدمّة على طرقات خطرة وتحت المطر لا تسمح للانسان بأن يسند ظهره على

المخمل . أنا مثلاً لم أعرف دهري معنى قضاء ليلة عيد الميلاد هنيئة . ولأول مرة في حياتي أستعد لها ـ في سبارطة . لكنها لم تتم . لم يكن أمامي سوى شيء واحد أفعله ـ أن آكل وآوي الى الفراش ، وأصلي كي يتوقف المطر عند الصباح .

ودريل الذي أتصوره داخلاً يجرجر نفسه تعباً ، رفض أن يبحث عن مطعم . خرجنا من المقهى وهبطنا الى قبو مملوء بالدخان ، بارد ورطب . الراديو يصرخ بأعلى صوته مع مكبرات ثلاثية ، وأبواق ، وأجراس الأبقار ومزامير العشاء . ومما زاد على انزعاج دريل ان البرنامج كان يبث من محطة ارسال ألمانية أخذت تقصفنا بتراتيل حزينة لعيد الميلاد ، وتلفيق تقارير عن الانتصارات الألمانية ، وفالسات مهترئة من فيينا ، وآريات(*) فاغنيرية معتلّة ، وشذر من أغان متبدّلة النغمات تثير الجنون ، وتبريكات للهر هتلر وعصبته من القتلة البائسين ، الخ . وتتويجاً لكل هذا كان الطعام مقرفاً . لكن الأضواء كانت رائعة ! في الحقيقة ، كانت الاضاءة من التلألؤ حتى ان الطعام بدأ يبدو مغرياً بشكل هستري . بالنسبة لي على الأقل بدأ الجو يقترب من جو عيد الميلاد ـ أي ، بغيضاً ، نخراً ، يثير الشؤم ، مفعماً بالطعام ، مدوّداً ، عفناً ، أبلهاً ، جباناً وخرفاً تماماً ، ولو دخل يوناني ثمل راكضاً وهو يحمل ساطوراً وراح يقطّع أيدينا لقلت « برافو ! أتمنى لك عيد ميلاد سعيد ، يا صاحبي الصغير المرح » ! لكن اليوناني الثمل الوحيد الذي رأيت كان شخصاً قميئاً يجلس على الطاولة المجاورة وقد شحب لونه فجأة ، ودون أن يتفوّه بكلمة تحذير قذف ملء صحن من القيء البرّاق ثم غمس رأسه الثقيل بهدوء فيه محدثاً صوت طرطشة مكبوتة . وأقول

(*) الأريا ، نوع من أنواع التأليف الغنائي في الموسيقى الغربية الكلاسيكية .

من جديد لا يمكنني أن ألوم دريل لانزعاجه . وفي ذلك الحين كانت أعصابه قد أصبحت على الحافة . وبدل أن نعجّل بالمغادرة بقينا لنُجْرى مناقشة بلهاء عن المواهب النسبية لأناس عديدين . وبينما نحن نعبر الساحة بقناطرها الغربية بعدها بقليل ، تحت رذاذ ناعم ، بدت سبارطة لي أكثر فتنة من اللمحة الأولى . بدت أقرب لاسبارطة الأصلية ، هذا ما ظننت ـ وهذه عبارة لا معنى لها ولكنها بالضبط ما أعني . طالما بدت سبارطة في ذهني ، عندما كنت أفكر بها من قبل ، كقرية صغيرة مجلّلة بزرقة وبياض مبهرين وقد دُسّت بعيداً كقاعدة أمامية منسية وسط سهل خصب . اذا فكّرت في الأمر ولو قليلاً ، فلا بد أن تثير سبارطة في ذهنك صورة مناقضة تماماً لصورة أثينا ، والحقيقة أن البيلوبونيزيوس كلها تبدو بما لا يدعو للشك ، إنها توقظ إيحاءاً بالعدم . وعلى أتيكا البراقة المشعّة كجوهرة يرسم المرء حيوان الكسلان العنيد الذي يقاوم دون أي سبب معقول غير المقاومة الشاذة . ولسبب خاطىء أو مصيب تبرز اسبارطة أمام عين العقل كصورة للاستقامة المشاكسة البليدة ، كعملاق ضخم أبله من الفضيلة لا يضيف شيئاً الى العالم رغم مثله التقدمية المحسنّة

هذه الصورة تتمرّغ الآن في الوحل ، ناعسة كسلحفاة ، راضية كبقرة ، عديمة النفع كآلة خياطة في صحراء . يمكنك أن تحب اسبارطة الآن لأنه بعد قرون عديدة من الاهمال لم تعد تشكّل تهديداً للعالم . انها الآن وبالضبط قرية غريبة ، أقرب للبشاعة ، تميل للرثاثة وجذّابة كما تصوّرتها ، وبما انك لم تخدع أو يخيب ظنك يمكنك قبولها كما هي ، سعيداً لأنها لا أكثر ولا أقل مما تبدو . يمكن لكاتبنا فوكنر أن يجلس ويكتب كتاباً ضخماً عن جوانبها السلبية ، ومثالبها هذه وتلك . في المطر ، وسط المرح المرضي لآثار بيزنطية ، رأيت حقيقتها الايجابية الوحيدة ، وهي انها موجودة ، انها سبارطة ، وكونها سبارطة يعني انها

يونانية ، وهو كاف بحد ذاته للتعويض عن كل شواذ البيلوبونيزيوس المتناقضة وأعترف اني شعرت في داخلي بفرح منحرف بسبارطة ، لأنها كشفت لي أخيراً الانكليزي الكامن في دريل ، وهو أقل جوانبه اثـارة للاهتمام ، ويجب أن لا ينظر اليه . أدركت في الوقت ذاته اني لم أشعر مرة في حياتي إنني أميركي تماماً ، وهي حقيقة غريبة وربما لا تخلـو من أهمية . والأمر كله قدّم نفسه للوعي باعتباره Q. E. D(*) منسياً منذ زمن خارجاً من التاريخ الاقليدي للعالم .

ظلت تمطر طوال الليل وفي الصباح ، حين هبطنا لتناول الافطار ، كانـت لا تزال تصـب سيولاً . أصر دريل وهــو لا يزال يشعــر انــه انكليزي ، على تناول بيضتين مسلوقتين على الافطار . جلسنا في زاوية صغيرة منعزلة تطل على الساحة . عندما وصل البيض كنت وناسي على وشك الانتهاء من شرب الشـاى وأكل الخبـز المحمّص . قلـب دريل البيضة وكسر الأولى برفق . كانت بالكاد مسلوقة وباردة تماماً ، وأعلن شكواه بصوت عال ، طالباً النادلة ، وكانت زوجة صاحب الفنـدق . قال « أرجوك إغليهما أكثر من ذلك ، كليهما » إنتظرنـا عشـر دقائـق أو خمس عشرة دقيقة . والشيء نفسه والنتيجة نفسهـا . عدا ان هذه المرة كسرت البيضة بشكل سيء ولم يعد ممكناً سلقها ثانية . مهما يكن رن دريل الجرس من جديد ، مصراً على تناول بيضة . وأخذ يشرح بدقة ، بغضب مكبوت بلا نجاح ، انه يريد أن يغلي بيضة بشكل معتدل . قال « لا عليك من هذه ، خذي هذه فقط واغليها قليلاً ـ وبسرعة ، رجاء ، لا يمكنني الجلوس هنا طول الصباح » . ذهبت المرأة وهي تَعِدُ بأن تبذل جهدها . ومن جديد انتظرنا ، هذه المرة أكثر من سابقتها . وطلبنا أنا

(*) Q. E. D : وتعني المطلوب إثباته في الرياضيات .

وناسي مزيداً من الشاى والخبز المحمّص . ودخنّا سيجارتين . وأخيراً وقفت لأنظر من النافذة ، وقد سمعت ضجة غريبة في الأسفل ، وبينما أنا أنظر لمحت المرأة تعبر الساحة وهي تحمل مظلة والبيضة في يدها قلت « ها قد أتت » قال دريل « ما الذي أتى » ؟ « البيضة ! انها تحملها بيدها » .

سأل دريل وهو يأخذ البيضة الباردة ويهشّم القشرة « ما معنى كل هذا » ؟ قالت المرأة « ليس لدينا مدفأة . وكان عليّ أن آخذها الى الخبّاز ليغليها . ألم تصبح أصلب الآن » ؟

وراح دريل يعتذر « إنها جيدة تماماً » وهو يكسرها بقوة بظهر ملعقة . وأضاف مبتسماً لها بامتنان بالانكليزية - « يا لها من بلهاء ملعونة ، أما كان باستطاعتها ان تخبرنا هذا من أول الأمر ؟ إنها صلبة كالصخرة ، يا لليسوع » .

عدنا نمشي تحت المطر ، متوقفين هنا وهناك على حافة جرف لنلتقط بعض الصور . كانت السيارةتسير بشكل سيء . تنفث وتلهث كأنها على آخر نفس . وعلى بعد ثلاثة أميال من تريبوليس ، وسط مجموعة من نوبات المطر ، مصحوبة بالبرد والرعد والبرق ، طاف الطريق وصار كحقل أرز ، وفجأة اهتزت السيارة هزة عنيفة ووقفت ميتة . وكان يمكن اعتبار اننا على بعد خمسين ميلاً ، فليس هناك أية وسيلة نقل لنحصل منها على معونة . والخروج من السيارة كان يعني أن نغوص حتى ركبنا . وكان عليّ أن ألحق بالقطار الذاهب الى أثينا من تريبوليس ولم يكن يوجد غير قطار واحد . واذا فاتني فسيفوتني القارب المغادر في اليوم التالي . كان من الواضح جداً ان السيارة قد لفظت إخر أثر من حياة حتى إننا جلسنا هناك نضحك ونتبادل النكات حول بليتّنا دون أن

نفكر بالقيام بأدنى جهد لتشغيلها ثانية . بعد عشر أو خمس عشر دقيقة من هذا تلاشى الضحك ، وصرنا كأنما حكم علينا بالجلوس هناك طوال بعد الظهر ، وربما طوال الليل . قالت نانسي « لماذا لا تحاولان عمل شيء ؟ » وقال دريل كما يقول دائماً حين تقدّم نانسي نصيحتها ـ « لماذا لا تخرسين » ؟ ـ لكنه قام غريزياً ببعض الحركات الآلية . وسمعنا مندهشين الآلة تبصق . قال بثقة تامة « هذه اللعينة تعمل » وقد قال الحق ، فما إن داس على الغاز حتى قفزت كالكينغارو وانطلقت وصلنا الى باب الفندق ونحن بأقصى سرعتنا وحيّانا حمّال معه مظلة كبيرة . بدت السيارة وكأنها على وشك أن تجرف مع التيار وتتوضّع على قمة جبل أرارات(*) .

كان من المقرر أن يغادر عند الساعة الرابعة ، لذا بقي أمامنا وقت لتناول آخر وجبة معاً . بذل دريل جهده لاقناعي بالبقاء ليلة أخرى ، وهو مقتنع بأن القارب لن يغادر في موعده . وأكد لي قائلاً « لا شيء يسير حسب الجدول في هذا البلد اللعين » . في قلبي كنت أتمنى أن يؤخرني وقوع حادث مناسب . لو فاتني القارب لما وجدت غيره لمدة شهر وأثناءه قد تعلن ايطاليا الحرب على اليونان ، وهكذا أُحْصَر في منطقة المتوسط ، وهو توقّع مبهج . ومع ذلك تابعت عملية المغادرة . صار الأمر محتوماً الآن ، هكذا قلت في نفسي . كان دريل ونانسي ذاهبين الى أبيدوروس ومنها الى أولمبيا . وأنا سأعود الى السجن .

كانت العربة والحصان ينتظرانني عند الباب . وقف دريل ونانسي على الدرج يلوحان مودعين . بدأت أجراس العربة ترن ، أسدلت الستارة أمام عينيَّ وانطلقنا وسط ضباب كثيف من المطر والدموع . سألت نفسي « أين سنلتقي ثانية » ؟ ليس في أميركا ، ليس في انكلترا ،

ليس في اليونان ، فكّرت . اذا تقابلنا فسيكون هذا في الهند أو التيبت . وسنتقابل بمحض الصدفة ـ على قارعة الطريق ـ كما تقابل دريل وصديقه في الطريق الى ميستراس . لن تكتفي الحرب بتغيير خارطة العالم بل وستؤثر على مصير كل من يهمني . حتى قبل اندلاع الحرب ، كنا متفرقين في الجهات الأربع ، نحن الذين عشنا وعملنا معاً وليس لدينا أية نيّة بعمل أي شيء خلاف ما كنا نفعل . صديقي X ، الذي كان يرتجف رعباً لمجرد ذكر الحرب ، وتطوع للخدمة في الجيش البريطاني ، وصديقي Y ، الذي كان لا مبالياً تماماً وكان يقول انه سيتابع عمله في المكتبة الوطنية ، بحرب أو بلا حرب ، انضم الى الفيلق الأجنبي ، وصديقي Z ، الذي كان مسالماً مائة بالمائة ، تطوع لخدمة الاسعاف ولم يسمع به أحد منذ ذلك الحين . بعضهم انتهى في معسكرات الاعتقال في فرنسا وألمانيا ، أحدهم يتعفن في سيبيريا ، وآخر في الصين ، وآخر في مكسيكو وغيره في أوستراليا . حين سنتقابل ثانية سيكون بعضهم أعمى ، وبعضهم مخبول ، والبعض تملؤه المرارة والسخرية . ربما سيغدو العالم مكاناً أفضل للعيش ، وربما يبقى كما هو ، ربما يصبح أسوأ مما هو الآن ـ من يعلم ؟ وأغرب شيء على الاطلاق انه في أزمة كونية من هذا النوع يعرف المرء غريزياً ان البعض مقدّر عليه الموت وآخرين سينجون . مع البعض ، المشرقين عادة ، البطوليين يرى المرء الموت مكتوباً على وجوههم ، إنهم يتوهجون معرفة بموتهم . وآخرون ، ممن قد يظن بأنه لا فائدة منهم بالمعنى العسكري ، تشعر بالرغم من ذلك انهم سيغدون جنوداً قساة ، سيخوضون نار جهنم دون أن يمسّهم أذى ويظهرون وهم يبتسمون ، ربما ليستقروا بعدها في الروتين القديم نفسه ويبلغون العدم . لقد رأيت أثر الحرب الأخيرة على بعض أصدقائي في اميركا ، واستطيع أن أرى الأثر الذي ستخلّفه هذه الحرب

بوضوح أكبر. ثمة شيء مؤكد ، قلت لنفسي ـ العماء والفوضى اللذان تولّدهما هذه الحرب لن نتخلّص منهما أبداً . لن يمكننا البدء من حيث انطلقنا العالم الذي عرفناه مات واندثر . وفي المرة القادمة عندما سنتقابل ، أي منا ، سيكون لقاؤنا على رماد كل ما رعيناه ذات مرة .

كان المشهد العام في محطة سكة الحديد هو الفوضى شاملة . وقد وصل نبأ يقول أن القطار سيتأخر ساعة أو ساعتين ـ فعلى الخط في مكان ما طرأ عطل ، ولا أحد يعلم أين بالضبط . انهمر المطر بلا رحمة ودون توقف . وكأن جميع صنابير شبكة التمديدات السماوية قد فتحت وضاعت جميع المفاتيح الانكليزية . جلست على المقعد في الخارج وهيأت نفسي لحصار طويل . بعد بضع دقائق اقترب رجل مني وقال « مرحباً ، ماذا تفعل هنا ، هه ؟ هل أنت أميركي » ؟ أومأت وابتسمت . قال « بلد لعين هذا ، هه ؟ فقير جداً ، هذه هي علّته . من أين أنت ـ من تشيكاغو » ؟

جلس بقربي وبدأ يمضغ أذني بالفعالية الرائعة لخطوط الحديد الأميركية . وهو يوناني ، طبعاً ، عاش في ديترويت ، تابع قائلاً « لا أعلم لماذا عدت الى هذا البلد . الكل فقير هنا ـ لا يمكنك أن تربح نقوداً هنا . قريباً ستذهب الى الحزب . كم كنت أبله لعيناً بمغادرتي أميركا . ما رأيك باليونان ـ أتعجبك ؟ منذ متى أنت هنا ؟ أتظن أن أميركا ستشترك في الحرب » ؟

وقررت أن أتخلّص من براثنه بأسرع ما يمكن . قلت وأنا أرسله الى مكتب التلغراف « حاول أن تعرف متى سيصل القطار» . لم يتزحزح . قال « ما الفائدة ، لا أحد يعرف متى سيأتي القطار . ربما غداً صباحاً » وأخذ يتكلم عن السيارات ، فمثلاً ، ما أروع سيارة الفورد .

قلت « لا أفهم شيئاً في السيارات »
قال « شيء مضحك ، مع انك أميركي »
« لا أحب السيارات »
« ولكن سيان ، فاذا أردت أن تذهب الى مكان . .
« لا أريد الذهاب الى اي مكان »
قال « شيء مضحك ، ربما تحب القطار أكثر ، نعم » ؟
« أحب الحمار أكثر من القطار ، وأحب أن أمشي أيضاً »
قال « وأخي يحب هذا أيضاً ، انه يقول ولماذا تريد السيارة ؟ أخي لم يركب سيارة في حياته . انه يبقى هنا في اليونان . انه يعيش في الجبال ـ فقير جداً ، لكنه يقول إنه لا يأبه ما دام لديه ما يكفي ليأكل »
قلت « يبدو لي رجلاً ذكياً » .

« مَنْ ، أخي ؟ لا ، إنه لا يعرف شيئاً ، لا يُحسِن القراءة أو الكتابة ، لا يمكنه حتى كتابة إسمه » قلت « رائع ، إذن لا بد إنه إنسان سعيد » .

« أخي ؟ لا ، إنه حزين جداً . لقد فقد زوجته وثلاثة أطفال . أريده أن يذهب الى أميركا معي ، لكنه يقول : ولماذا أذهب الى أميركا ؟ أقول له لكي تصنع مالاً كثيراً هناك . فيقول إنه لا يريد نقوداً . إنه يريد فقط أن يأكل كل يوم ، فقط . لا أحد لديه طموح هنا . في أميركا الكل يريد أن يصبح ناجحاً . قد يصبح ابنك رئيساً للولايات المتحدة ، نعم » ؟

قلت ، فقط لأرضيه « ربما »
« في أميركا هناك فرصة للجميع ـ حتى للفقراء ، نعم » ؟
« طبعاً »

« قد أعود ثانية لأجمع مالا كثيراً ، ما رأيك » ؟

أجيب « لا شيء يعادل المحاولة »

« طبعاً ، هذا ما أقوله لأخي . يجب أن تعمل . في أميركا تعمل كإبن عاهرة ـ لكنهم يدفعون مقابله . هنا تعمل وتعمل وماذا تنال ؟ لا شيء . ربما إعطوك كسرة خبز . أية حياة هذه ؟ كيف يمكنك أن تنجح » ؟

وأزمجر .

« أظن إنك تحصل على الكثير من النقود في نيويورك ، نعم ؟ »

قلت « لا ، اني لم أدخل سنتاً واحداً »

قال « ماذا تعني ؟ ألم تستطع الحصول على عمل في نيويورك » ؟

وأجيب « كان لدي الكثير من الأعمال »

« إذن فأنت لا تبقى في العمل الواحد طويلاً ، نعم » ؟

قلت « تمام »

« ربما لأنك لا تجد العمل الملائم . يجب أن تجرّب أعمالاً كثيرة ـ الى أن تجد ما يلائمك . يجب أن تحصّل نقودك . فقد يصادفك سوء الحظ أحياناً ـ عندئذ يكون لديك شيء لوقت الضيق ، نعم »

قلت « كما تقول »

« أحياناً تمرض وتخسر كل نقودك . أحياناً يختلس صديقك كل ما تملك . لكنك لا تيأس ، صح ؟ وتتدبّر أمرك . تحاول من جديد » .

وأدمدم « هذا هو الصحيح »

« أظن أن ثمة عملاً طيباً بانتظارك في نيويورك » ؟

قلت « لا ، ليس لدي أي عمل »

قال « لم يعد هناك أعمال كثيرة كالسابق . في عام1928 كان هناك

الكثير من الأعمال . والآن الكل فقراء . إنني أخسر عشرة آلاف دولار في سوق البورصة ، وبعضهم يخسر أكثر من ذلك ، فأقول لنفسي ، لا بأس ، حاول من جديد . ثم أتيت الى هذا البلد لأرى أخي . مكثت طويلاً . هنا لا يوجد نقود . لا يوجد سوى المشاكل . . . أتظن ان ايطاليا ستسبِّب متاعب لليونان » ؟

قلت « لا أعلم »

« أتظن إن ألمانيا ستربح ـ أم فرنسا » ؟

« لا يمكنني التكهن »

« أعتقد ان بامكان الولايات المتحدة أن تشترك في الحرب . الولايات المتحدة ستمسح أولاد الحرام هؤلاء بسرعة ، نعم ؟ إذا شنَّت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا فسأقاتل مع الولايات المتحدة » ؟

قلت « هذا هو التصرف السليم »

تابع « طبعاً ، ولم لا ؟ لا أحب القتال ، لكن الولايات المتحدة بلد طيب . الكل يأخذ نصيباً عادلاً ، أغنياء وفقراء ، العم سام لا يخشى أحداً . وسنجمع عشرة ملايين ، عشرين مليون جندياً ـ هكذا ! سنقتل أولاد الحرام كالكلاب ، نعم » ؟

« كما تقول ، يا أخي »

« أقول لنفسي سيعطيني العم سام بندقية ، ويرسلني الى ساحة الوغى لأقاتل ، لأقاتل لأجله . الشعب اليوناني لا يحب الايطاليين . الشعب اليوناني يحب أميركا . الجميع يحبون أميركا . . . » قلت وأنا أنهض لأصافحه « وأنا أحبك أيضاً ، ولكن يجب أن أتركك الآن ـ يجب أن أتبوّل » قال « لا بأس ، سأنتظرك »

ستنتظر طويلاً ، قلت في نفسي ، وأنـا أختفـي داخـل المحطـة . خرجت الى الطرف الثاني من المحطة وأخذت أتجول تحت المطر . ولما عدت علمت إنه يُتَوقع وصول القطار في الساعـة الثامنـة . كان عنـد الـرصيف صف من السيارات ينتظـر وصـول القطـاع الآخـر . نحـو السابعة وصل خادم من الفندق وسلّمني مذكّرة . إنها من دريل يلحّ عليّ فيها بالعودة الى الفندق لتناول العشاء معهما ، وينبئني بأن القطـار لن يصل قبل أن تتجاوز السـاعة العاشرة . قلّبت الأمر في ذهني وقررت أن لا أعود ، خاصة لأنني أكره الوداع للمرة الثانية أكثر من أي سبب آخر .

دخلت إحدى الحافلات وجلست هناك في الظلام . وقرابة التاسعة والنصف دخل قطار من الجهة المقابلة وابتهج الجميع . ولـكن عندمـا حاولنا الصعود وجدنا إنه قطار مخصّص للنزهات وقـد استأجـره أحـد النوادي . بينما أنا واقف على الرصيف الخاص علمت إنه ذاهب إلى أثينا بعد دقائق . وتساءلت إن كان بامكاني اقناعهـم بأخـذي معهـم وإذا برجل يتقدّم مني ويحدثني باليونانية . أجبت بالفـرنسية قائـلاً انـي لا أحسن اليونانية ، واني أميركي ومتلهّف جداً للوصول الى أثينا في أقرب وقت ممكن . نادى على سيدة شابة تتكلم الانكليزية ولما علمـت إنـي سائح أميركي ابتهجت وطلبت أن أنتظر ، قائلة إنها تظن إن بامكانها حل مشكلتي . انتظرت بضع دقائق أهنّىء نفسي على حظي الحسن . عادت الصبيّة بصحبة رجل وقور ، متجهّم وبسيماء فضولية . سألني بدمائـة صافية لماذا يهمني أن أعود الى أثينا بسرعة ، لماذا لا أنتظر القطار التالي الذي كان متأكداً من إنه سيصل بعد قليل ، أجبت بكياسة بالغة إنه لا سبب آخر غير الخوف . أكد لي انه لا داعي للقلق على الاطلاق . القطار التالي سيصل بعد قليل وليس لديه أدنـى شك بأنـه سيغـادر في وقـت

مناسب . تردّد لحظة ثم سأل بحذر وأدب ، وكأنه يمد لي قشة لأتعلّق بها ، وبمنتهى اللباقة ، وكأنه لا يريد انتزاع السر مني ، إن لم يكن لدي سبب أكثر إلحاحاً للمغادرة في وقت مبكّر . كان في هيئة شيء أنذرني بأنه من الأفضل عدم اختلاق سبب مزيف . ثمة شيء دلّني إلى أنه يرتاب في كوني أكثر من مجرد سائح . تحت ذاك المظهر الدمث ، الكيّس اكتشفت فيه مخبر البوليس . صحيح أنه كان في جيبي رسالة من مكتب السياحة أعطاه لي سيفريادس حين ذهبت الى كريت ، لكن التجربة علّمتني أنه حين يرتاب بك رجل فكلما كانت أوراق اعتمادك أفضل ساء موقفك . عدت بهدوء أهبط الدرج ، شاكراً له دماثته ، طالباً الصفح عني للازعاج الذي سببته له . قال وقد برقتِ عيناه « وحقائبك ؟ » قلت وأنا أختفي في الحشد « لا حقائب لدي » .

حالما خرج القطار عدت الى رصيف المحطة وغصت في المقصف حيث ازدردت بعض القطع من لحم الضان الطري وبضع كؤوس من الكونياك . شعرت إني أفلتُّ من الذهاب الى السجن بإعجوبة . دخل سجينان مصفدان يرافقهما جنديان ، وعلمت بعد ذلك إنهما اغتالا رجلا اغتصب اختهما . كانا رجلين فحلين ، من الجبال ، وقد استسلما دون مقاومة . خرجت وثارت شهيتي وأنا أراقب لحم ضان يشوى على النار . كان لا يزال لدى بعض الكونياك ، فدخلت إحدى المركبات وانخرطت في حديث مع يوناني عاش في فرنسا . وكان أكثر إثارة للملل من ذاك الذي عاش في ديترويت . كان مثقفاً يحب كل الأشياء الخاطئة . خلّصت نفسي بأكبر قدر من الكياسة وعدت لأتمشّى في المكان تحت المطر .

عندما أتى القطار عند منتصف الليل لم أكد أصدق عينيّ . وطبعاً

لم ينطلق حتى حوالي الثانية صباحاً ـ ولم أتوقع منه أفضل من ذلك . وقد غيرّت تذكرتي الى مقصورة الدرجة الأولى ، ظاناً اني سأحظى ببعض النوم قبل بزوغ الفجر . لم يكن معي غير رجل واحد في المقصورة وسرعان ما غاص في النوم . وبقي المقعد كله لي ، مقعد منجّد علّقت فوقه مناديل بيضاء . تمدّدت على طولي وأغمضت عينيّ . وسرعان ما شعرت بشيء يزحف على عنقي . استقمت ونفضت صرصاراً ضخماً وبينما أنا جالس هكذا ، أحملق أمامي بغباء ، لاحظت طابوراً من الصراصير يرتقي الجدار المقابل لي . ألقيت نظرة الى جاري المسافر ، فأثار قرفي أن أرى إنها تزحف بنشاط على طرف معطفه وتتقدم الى ربطة عنقه ومنها الى داخل ثيابه . نهضت وأخذت أهزّه ، مشيراً الى الصراصير . عبس ، نفضهم عنه وعاد الى النوم مبتسماً . أنا لا أستطيع . بقيت يقظاً وكأني ابتلعت لتوي نصف دزينة من فناجين القهوة . انتابني الحك في كل مكان . خرجت ووقفت في الممر . كان القطار يهبط تلا ، ليس بالسرعة التي تسير بها القطارات وهي تهبط تلا ، بل كأن السائق ذهب في النوم وترك المخنق مفتوحاً حتى آخره . شعرت بالقلق تساءلت إن كان من الحكمة ايقاظ زميلي لأحذّره بأن ثمة عطلاً . أخيراً أدركت اني لا أحسن التعبير عن هذا باللغة اليونانية وتخلّيت عن الفكرة . تعلّقت بالنافذة المفتوحة بكلتا يديّ وصلّيت للمسيح ولجميع الملائكة الصغار كي نصطدم بالوادي دون أن نخرج عن الخط . وقبل أن نصل الى آرغوس شعرت ان المكابح قد بدأت تعمل وعلمت ، مطلقاً تنهيدة ارتياح ، ان المهندس كان في مركزه . حين توقفنا شعرت بدفقة هواء دافىء ، عطر . ضج بعض القادمين الحفاة في القطار وهم يحملون سلال الفاكهة وماء الصودا . بدوا كأنهم انتُزعوا من سرير النوم لتوهم ـ كلهم أطفال صغار ، في حوالي الثامنة أو العاشرة .

لم أر سوى الجبال في كل مكان والقمر في الأعالي يعدو بين السحب . بدا الهواء الدافىء كأنه يتصاعد من البحر ، ويرتفع ببطء وثبات ، كالبخور . وكومة من الأربطة القديمة تتلظّى ناراً وتنشر ضوءاً غريباً على الجبال السوداء البعيدة هناك

***

في الفندق بأثينا وجدت مذكرة من مقهى الأميركان اكسبريس تقول إن القارب سيتأخر اربعاً وعشرين ساعة أخرى . غمر الفرح غولفو الخادم لرؤيتي . كانت جواربي وقمصاني ملقاة على السرير ، وكلها رُتقت بطريقة جميلة أثناء غيابي . بعد أن اغتسلت وغفوت قليلاً اتصلت تليفونياً بكاتسيمباليس وسيفريادس لتناول آخر عشاء معاً . لسوء الحظ كان القبطان أنطونيو ينوي الذهاب بقاربه الى سالونيكي . لم يستطع غيكا المجيء ، لكنه وعد أن يوصلني الى القارب في الغد . وكان ثيودور سيفريادس في كورفو يعدُّ مختبر أشعة × . دريل ونانسي إما انهما قابعان في الفندق بتريبوليس أو جالسان في المدرّج الروماني بابيدوروس . وثمة شخص آخر اشتقت اليه ايضاً هو سبيرو من كورفو . لم أكن أعلم عندئذ ، لكن سبيرو كان يفارق الحياة . وفي اليوم التالي استلمت رسالة من ابنه ليليس يقول فيها إن آخر كلمات سبيرو كانت : « نيويورك ! أريد العثور على بيت هنري ميللر ! » وهكذا عبَّر عنها ابنه ليليس في رسالته « مات أبي المسكين واسمك على شفتيه اللتين أغلقتا الى الأبد . في اليوم الأخير ، فقد وعيه وأخذ يلفظ بعض الكلمات الانكليزية مثل « نيويورك ! نيويورك ! أين يمكن أن أجد بيت هنري ميللر ؟ » مات فقيراً كما كان دائماً . ولم يدرك حلمه ليصبح غنياً . في هذا العام أنهيت دراستي في المدرسة التجارية في كورفو لكني عاطل عن العمل ، بسبب الحرب البائسة . من يعلم متى سأحصل على عمل

لأعيل عائلتـي ؟ هذه هي الحياة على أية حال وليس بيدنـا شيء نعمله . . . » .

لا ، ليليس على حق تماماً ـ ليس بيدنا عمل أي شيء ! لهذا أتذكر اليونان بفرح غامر . ولحظة خطوت على المركب الأميركي الذي سيقلني الى نيويورك شعرت بأني في عالم آخر . ومن جديد عدت واحداً من المستأصلين ، أحد الأرواح القلقة التي تود ، بما أنها لا تعرف كيف تعيش حياتها ، أن تغيّر عالم كل إنسان . صعد غيكا ، الذي أوصلني الى الرصيف ، الى السطح ليلقي نظرة على المركب الأميركي الغريب الراسي في مرفأ بيريوس . كان البار مفتوحاً فتناولنا آخر كأس معاً . أحسست كأني صرت في نيويورك . فثمة ذاك الجو النظيف الفارغ ، اللامسمّى الذي أعرفه جيداً وأمقته من كل قلبي . تأثر غيكا من مظهر المركب المترف ، فهو يطابق الصورة التي رسمها في ذهنه . أما أنا ، فملأني الغم . كنت آسفاً لأني لم أتمكن من أن أستقل مركباً يونانياً .

وازددت غمّاً عندما وجدت أن الذي جلس أمامي على المائدة جرّاح يوناني أصبح مواطناً أميركياً وقد قضى عشرين سنة أو نحوها في أميركا . كان لقاؤنا سيئاً منذ البداية . كل ما قاله خالفته وكل ما أحبه كرهته . لم أقابل في حياتي رجلاً مقتُّه كهذا اليوناني . أخيراً ، وبنهاية اليوم الثاني ، بعد أن تنحّى بي جانباً لينهي نقاشاً كان قد بدأه على مائدة العشاء ، قلت له صراحة إنه بالرغم من سنّه ، ومعرفته وكونه يونانياً ، فاني أعتبره أبله جاهلا ولا أريد أن تربطني به أية علاقة . كان رجلاً يقترب من السبعين ، وواضحٌ إنه محترم وسط من يعرفونه ، شهيراً لشجاعته في ساحة الوغي ومنح رتبة الشرف لإسهامه في مجال الطب ، وسافر أيضاً الى كل بقعة وزاوية من العالم . كان شخصية بارزة وفي

سنين عمره الأخيرة عاش مدركاً هذه الحقيقة ، لذا كانت كلماتي له بمثابة صعقة حقيقية . وقال إنه لم يوجَّه له كلام بهذه الطريقة مرة في حياته ، وأعلن بانه قد أهين وأبدى غضبه . قلت له إنـي سعيد لهـذا ، فهـو سينفعه .

منذ تلك اللحظة لم نعد نتبادل كلمة واحدة . عند الوجبات أنظر أمامي متجاوزاً إياه ، كأنه شفـاف . سبَّـب هذا إربـاكاً للآخـرين ، خاصة أننا كنا محبوبين ، لكنني لم أكن أفكر في استرضاء ذاك الحشرة المؤذية إلا بقدر ما أفكر بالقفز من المركب . وطوال الرحلـة والـطبيب يلقي بآرائه التي أنصتَ اليها الجميع بكامل الانتباه والاحترام ، ثم ألقي أنا آرائي ، مستمتعاً استمتاعاً شاذاً بتقويض كل ما قال ، دون أن أجيبه مباشرة بل أتحدث وكأنه قد غادر المائدة لتوّه . عجيب كيف لم نُصَبْ بسوء الهضم قبل نهاية الرحلة .

والآن بعد عودتي إلى أميركا أنا سعيد بالقول اني لم أقابل مثيلاً له مرة ثانية . حيثما أذهب أرى وجوهاً يونانية وغالباً ما أستوقف رجلاً في الشارع وأسأله ان كان يونانياً . وكم يشجعني أن أتبادل حديثاً قصيراً مع غريب من سبارطة أو كورنيث أو آرغوس . ومنذ أيام قليلة فقط ، في غرفة للمغاسل في فندق كبير بنيويورك ، تبادلت حديثاً وديّاً مع الخادم الذي اتضح إنه يوناني من البيلوبونيزيوس . وقد أفادني بحديث طويل نيّر حول بناء البارثينـون الثانـي . وغـرف المغاسـل تكون عادة تحـت الأرض ونادراً ، كما قد يُظَن ، ما يكون الجو ناقلاً لحديث جيد ، لكني تبادلت حديثاً رائعاً في هذه الثغرة بذاتها وقررت ذهنياً أن أعود اليها في أوقات معينّة لأستعيد الحديث مع صديقي المكتَشَف حديثاً . وأعـرف عامل مصعد ليلي في فندق آخر يسعدني أيضاً التحدث معه . والحقيقة

هي أنه كلما كان العمل متواضعاً وجدت اليوناني مسليّاً .

التأثير الأعظم الوحيد الذي تركته اليونان عليّ هو أنها عالم بحجم الانسان . صحيح إن فرنسا تركت بي التأثير نفسه ، ولكن ثمة فرقاً ، فرقاً عميقاً . اليونان هي وطن الآلهة ، قد يكونون موتى لكن وجودهم لا يزال يشبّت نفسه . للآلهة أبعاد إنسانية . فهم مخلوقات من روح انسانية . في فرنسا ، كما في أي مكان من العالم الغربي ، هذه الصلة بين الانساني والقدسي مقطوعة . والشكوكية والشلل اللذان يسببّهما هذا الانفصال في طبيعة الانسان ذاتها تعطي التفسير للانهيار المحتوم لحضارتنا الحالية . إذا كفّ الناس عن الايمان بأنهم سيصبحون آلهة ذات يوم فسيغدون حتماً ديداناً . لقد قيل الكثير عن النمط الجديد من الحياة الذي سيسود على هذه القارة الأميركية . ويجب أن نثبّت في أذهاننا إنه لم يَلُحْ حتى قبس لبداية تصوّر للألف سنة القادمة على الأقل . إن أسلوب الحياة الجديدة ، وهو اسلوب أميركا ، مقدَّر له الموت كما هو الحال في أوروبا . لا يمكن لأي أمة على الأرض أن تلد نمطاً جديداً للحياة قبل ان ترسّخ تصوراً للعالم . لقد تعلمنا من أخطاء مريرة ان كل شعوب الأرض متّصلة ببعضها حيوياً ، لكننا لم نستفد من هذه المعرفة بطريقة عقلانية . عاصرنا حربين عالميتين وسنعاصر ولا شك حرباً ثالثة ورابعة ، وربما أكثر . لن يكون هناك أمل أو سلام حتى يهشّم النظام القديم . يجب أن يعود العالم صغيراً من جديد كما كان عالم اليونان القديم ـ صغيراً بحيث يضم الجميع . لن يكون هناك مجتمع إنساني حقيقي حتى يتّسع لآخر رجل فيه . يقول لي وعيي إنه سيحل هذا النمط من الحياة بعد مرور وقت طويل ، لكن وعيي يقول لي أيضاً انه لن يرضي الانسان أقل من هذا . والى أن يصبح انسانياً تماماً ، الى أن يتعلم

كيف يتصرّف باعتباره عضواً في الأرض ، سيظل يخلق آلة تدمّره . ان مأساة اليونان لا تكمن في دمار ثقافة عظيمة بل في إجهاض رؤيا عظيمة . ونخطىء اذ نقول ان اليونانيين أنّسوا الآلهة . انه العكس تماماً . الآلهة هي التي أنّست اليونانيين . لقد مرت لحظة بدا فيها أن أهمية الحياة الحقيقية قد فُهِمَت ، كانت لحظة تحبس الانفاس بات فيها مصير الجنس البشري في خطر ، وقد ضاعت هذه اللحظة وسط بريق السلطة الذي غمر اليونانيين الثملين . لقد صنعوا من الواقع مجموعة أساطير كانت تتجاوز فهمهم الانساني . ننسى ، وسط إنبهارنا ، أنها ولدت من الواقع ولا فرق بينها أساساً وبين أي شكل آخر من أشكال الخلق ، عدا ان لها علاقة بصميم الحياة . نحن أيضاً نخلق أساطيراً ، مع إننا لا نعي ذلك . ولكن في أساطيرنا لا مكان للآلهة . إننا نقيم عالماً مجرداً لا إنسانياً من رماد ماديّة مضلّلة . إننا نثبت لأنفسنا أن الكون خاو ، وهي مهمة يبررها منطقنا الخاص الأجوف . لقد قررنا أن نَقهر وسنَقهر ، لكن المدحور هو الموت .

يبدو الناس مذهولين ومصعوقين حين أتحدث عن الأثر الذي تركته بي زيارتي لليونان. يقولون إنهم يحسدونني ويتمنّون الذهاب الى هناك يوماً . ولماذا لا يفعلون ؟ لأنه لا أحد يمكنه أن يستمتع بالتجربة التي يبغي الاستعداد لها . قلّما يقصد الناس ما يقولون . كل من يقول انه يتحرّق اشتياقاً للقيام بشيء يغاير ما يقوم به أو أن يكون غير ما هو عليه يكذب على نفسه ، فالرغبة ليست فقط تمنّي . الرغبة هي أن يكون المرء ما هو أصلاً . بعض الناس سيدركون بلا شك ، حين يقرأون هذا ، انه ليس أمامهم الا أن ينفّذوا رغباتهم . إن سطراً واحداً مّما كتبه ميترلنك حول الحقيقة والعمل غيرّ كل مفهومي عن الحياة ، واستغرق

مني خمسة وعشرين عاماً لأعي تماماً معنى هذه العبارة . ثمة بعض الناس هم أسرع في التنسيق بين الرؤية والعمل . لكن المسألة هي أنه في اليونان حققت أخيراً هذا التناسق . أصبحت ضئيلاً ، عدت الى أبعادي الانسانية الصحيحة ، وأنا على استعداد لقبول نصيبي ولأعطي من كل ما أخذت . حين وقفت في ضريح أغاممنون مررت بحالة ميلاد جديدة حقيقية . لا يهمني على الاطلاق ما يظن الناس أو يقولون حين يقرأون هذا الإقرار . ليست لدي أية رغبة في استمالة أياً كان الى طريقتي في التفكير . صرت أعرف الآن ان أي تأثير قد أخلّفه في العالم سيكون نتيجة للقدوة التي تمثّلتها وليس بسبب كلماتي . أعطي هذا السجل عن رحلتي ليس بوصفه مساهمة في المعرفة الانسانية ، فمعرفتي قليلة وضئيلة الأهمية ، بل كمساهمة في التجربة الانسانية . في هذا التقرير هناك حتماً أخطاء مختلفة ، لكن الحقيقة هي أن ثمة شيئاً حدث لي وهذا بالضبط هو ما أعطيته باخلاص كما عرفته .

صديقي كاتسيمباليس ، يا مَنْ كتبتُ لأجله هذا الكتاب ، على سبيل العرفان بالجميل له ولأبناء بلده ، هل لي أن آمل بمغفرتك لي لأني بالغت في تشبيه أبعاده بأبعاد أحد التماثيل الضخمة . إن من يعرفون أماروسيون سيدركون إني لم أبالغ ، على الاطلاق ، في تقدير عظمة المكان ، أو في عظمة كاتسيمباليس ، أو في عظمة تاريخ اليونان كله . ولكن ثمة شيئاً جباراً في أي مخلوق بشري حين يصبح هذا الفرد إنسانياً حقاً وكُلاً . لم اقابل شخصاً اكثر انسانية من كاتسيمباليس . حين كنت أمشي معه في شوارع أماروسيون يتملكني شعور بأني أمشي على الأرض مشية جديدة تماماً . اصبحت الأرض أكثر حميمية ، أكثر حياة ، أكثر أملا . كان كثيراً ما يتكلم عن الماضي ، هذا صحيح ، ليس باعتباره

شيئاً ميتاً منسياً ، بل كشيء نحمله داخلنا ، شيء يخصب الحاضر ويجعل المستقبل مغرياً . تحدَّث عن أمور صغيرة وعظيمة على قدم المساواة ، لم يكن ينشغل الى الحد الذي يجعله يتوقف ويستقر عند الأشياء التي تثيره ، كان لديه وقت غير محدود يتصرَّف به ، وهذا بحد ذاته علامة النفس العظيمة . كيف يمكن أن أنسى آخر انطباع تركه بي حين توادعنا في محطة الباص في قلب أثينا ؟ ثمة رجال خصبون جداً ، أغنياء جداً ، يمنحون أنفسهم بتمامها حتى انك كلما تركتهم تشعر أنه لا يهم أبداً إن فارقتهم ليوم أو الى الأبد . يأتون اليك وهم يفيضون ويملؤنك حتى تفيض بدورك . لا يطلبون منك شيئاً عدا أن تشاركهم في وفرة إستمتاعهم بالحياة . لا يسألون من أي طرف من السور أنت لأن العالم الذي يقطنون فيه ليس له أسوار . يجعلون أنفسهم منيعين بتعريضها بشكل مستمر لكل خطر . يزدادون بطولة الى حد الكشف عن مواطن ضعفهم . في الحكايا الرائعة التي لا تنتهي ، وكان كاتسيمباليس يقصُّها عليّ عادة ، لا بد أنه كان هناك عنصر جيد من الخيال والتشويه ، وحتى إذا ضحَّى أحياناً بالحقيقة لصالح الواقع فاز الرُجل الكامن وراء الحكاية لا ينجح إلا في إثبات شدَّة إخلاصه وكمال صورته الانسانية . عندما استدرت لأذهب ، تاركاً إياه جالساً في الباص ، وعينه اليقظة المستديرة تُولمُ على مشاهد أخرى ، ألمَحَ سيفريادس الذي رافقني الى البيت بمشاعر عميقة ، قائلاً « ميللر إنسان عظيم ، ولا شك في هذا ، إنه غير عادي . . . بل أقول إنه ظاهرة إنسانية » ، قال هذا وكأنه ، أي سيفريادس ، هو الذي سيسافر وليس أنا . عرف كاتسيمباليس كما يمكن لأي رجل أن يعرف آخر ، حسب تصوّري . تارة يضيق ذرعاً به ، ويصل هياجه طوراً الى حد يفوق التصوّر ، وأحياناً أخرى الى أقصى مراحل الغضب ، ولكن حتى لو

اصبح يوماً ما عدوّه اللدود فلا أتصوره يقول كلمة ينتقص بها من قدر أو روعة صديقه . ما أروع سماعه يقول ، بعد أن علم اني غادرت كلتسيمباليس لتوّي ـ « هل أخبرك تلك الحكاية عن النقود الأثرية التي عثر عليها » ؟ أو مهما كان الأمر . ويسأل بحماس المولع بالموسيقى الذي يرغب ، وقد علم أن صديقه ابتاع غرامافون ، أن يشير عليه بشراء اسطوانة يعرف أنها ستجلب متعة كبرى لصديقه . غالباً ، عندما نكون مجتمعين وقد انغمس كاتسيمباليس في حكاية طويلة ، ألمحُ ابتسامة التقدير الدافئة تلك على وجه سيفريادس ـ تلك الابتسامة التي تنبىء الآخرين بأنهم على وشك سماع شيء تمّ إثباته وفحصه واتضح أنه جيد . أو قد يقول بعد ذلك ، وهو يأخذني من ذراعي ، ويتنحى بي جانباً « من المؤسف جداً أنه لم يحْكِ لك كل الحكاية هذا المساء ، ففيها جزء بارع يحكيه عندما يكون في مزاج جيد ـ من المؤسف أن تفتقده » وكان من المسلّم لدى الجميع أيضاً ، كما بدا لي ، ليس فقط أن لكاتسيمباليس الحق في الإرتجال كما يريد بل أن يفعل هذا حقاً . واعتُبِرَ أيضاً كعازف كمان ، لا يعزف إلا مؤلفاته لذا كان له الحق في تغييرها كما يحب .

كان ثمة جانب ممتع آخر من موهبته الرائعة ، جانب يشترك فيه مع الموسيقى . في الوقت الذي تعرّفت عليه كانت حياة كاتسيمباليس هادئة نوعاً ما وخالية من المغامرات . لكن حين كانت تقع لكاتسيمباليس أتفه حادثة اذا بها تزدهر وتتحول الى حدث عظيم قد لا تكون أكثر من إنه قطف زهرة عن جانب الطريق ، ولكن بعد انتهاء الحكاية تكون هذه الزهرة ، رغم بساطتها ، قد أضحت أروع زهرة قطفها إنسان . وتبقى هذه الزهرة في ذاكرة المستمع باعتبارها تلك الزهرة

التي قطفها كاتسيمباليس ، تصبح فريدة ، ليس لأن فيها شيء غير عادي ، بل لأن كاتسيمباليس خلّدها بانتباهه إليها ، لأنه وضع في تلك الزهرة كل أفكاره ومشاعره عن الأزهار وكأنها أضحت ـ كوناً .

انتقيتُ هذه الصورة لا على التعيين ، ولكن ما أنسبها وأدّقها ! عندما أتخيل كاتسيمباليس منحنياً ليقطف زهرة من تراب أتيكا الأجرد ينهض أمامي كل العالم اليوناني ، ماض ، وحاضر ومستقبل . أرى من جديد الروابي الملساء المنخفضة التي يختفي فيها الأموات المشاهير ، أرى الضوء البنفسجي الذي تبرق فيه الشجيرات الجامدة ، والصخور المتآكلة ، وجلاميد حوض النهر الجاف الضخمة تلمع كالميكا(؟)، أرى الجزر الصغيرة جدا تطفو فوق سطح البحر ، مطوّقة بشرائط مبهرة البياض ، أرى النسور تنطلق من فوق جروف تسبب الدوار على ذرى جبالٍ لا تُرتَقىٰ ، ظلالها القاتمة تصبغ ببطء سجادة الأرض البراقة في الأسفل ، أرى قامات رجال متوحدين يقودون قطعانهم فوق نتوء التلال الأجرد وصوف خرافهم كله زغب ذهبي كما في ايام الأساطير ، أرى النسوة متجمعات عند الآبار وسط كروم الزيتون ، بملابسهن ، بسلوكهن ،بحديثهن الذي لا يختلف الآن عما كان عليه في أزمان توراتيّة ، أرى هيئة الكاهن البطريركية المهيبة ، الخليط الذَكَريّ الأنثويّ التام ، بسحنته الوقورة ، الصريحة، المفعمة بالسلام والجلال ، أرى النمط الهندسي للطبيعة وقد أظهرته الأرض نفسها في صمت يصيب بالصمم . الأرض الاغريقية تنفتح أمامي كرؤيا القيامة . لم أعلم من قبل ان الأرض تحوي كل هذا القدْر ، فلطالما مشيت معصوب العينين بخطى مضطربة مترددة ، وكنت متكبراً متعجرفاً ، راضياً بحياة انسان المدينة المزيفة المحصورة . ضوء اليونان فتح عينيّ ، نفذ الى مسامّي ،

وسَّع كياني كلـه . عدت الى بيتـي العالـم بعـد أن عثـرت على المركز الصحيح والمعنى الحقيقي للثورة . لا يمكن للحروب الناشبة بين أمم الأرض أن تزعج هذا التوازن . قد تتورَّط اليونان نفسها ، مثلما نحن الآن متورطون ، لكنني أرفض صراحـة أن أصبـح أي شيء أقـل من مواطن عالمي، كما أعلنت نفسي بصمت وأنا واقف في ضريح أغاممنون . ومنذ ذلك اليوم سخَّرت حياتـي لإعـادة اكتشـاف قداسـة الانسـان . أقول ، فليحل السلام على كل البشر ، ولتكن حياةً أكثر وفرة !

ملحق

بعد أن كتبت آخر سطر سلّمني ساعي البريد رسالة مميّزة من لورنس دريل مؤرخة في 10 / آب 1940 . أرفقها هنا لأكمل بها صورة كاتسيمباليس

الفلاحون مستلقون في كل مكان على سطح المركب يأكلون البطيخ ، والمجارير تتدفّق بالعصير . حشد هائل مجتمع للحج الى عذراء تينوس . ها نحن الآن نخرج بحذر من الميناء ، نستكشف الأفق خوفاً من الغواصات الايطالية . وما يجب أن أخبرك به هو قصة ديوك أتيكا ؛ إنها ستكمل صورتك عن كاتسيمباليس التي لم أقرأها بعد لكنها تبدو رائعة من كل ناحية ، وهي كالآتي : ذهبنا الى أكروبوليس ذات أمسية قريبة ونحن سكارى تماماً ومنتعشين بالنبيذ والشِعر . كانت ليلة حارة حالكة ودمنا يهدر بالكونياك . جلسنا على الدرج خارج البوابة الكبيرة ، نتبادل زجاجة الخمر ، وكاتسيمباليس يلقي الشعر و غ ـ يبكي قليلاً ، واذ فجأة ينتاب ك ـ شيء كالنوبة . وأخذ يقفز على قدميه ويصرخ ـ « هل تريدون سماع حكاية ديوك أتيكا ، أيها المتمدنون الملاعين » ؟ وفي صوته نبرة هستيرية . لم نجب ولم ينتظر هو جواباً . هرع الى طرف الجرف ، كملكة خيالية ، كملكة خيالية متّشحة بالسواد ومهيبة ، بثيابه السوداء ، ورفع رأسه ، وضرب برأس عصاه المعقوف على ذراعه المجروحة ، وأطلق صرخة تجمّد الدم في العروق لم أسمع

بمثلها في حياتي . كوك ـ دوودل ـ دووو . تردد صداها في جميع أرجاء المدينة ـ كأنها كرة سوداء مرصّعة بالأضواء كالكرز . وارتدّت من رابية الى رابية وتدحرجت عالياً عند أقدام البارثينون . . . كنا مصعوقين حتى تجمّدنا صامتين . وبينما نحن نتبادل النظرات في الظلام ، واذا بصوت ديك ناعس يجيب ، ويا للعجب ، عبر الفضاء الصافي الرنّان مخترقاً الظلام ـ وتبعه آخر ، فآخر . وهاج ك . وسوّى من شأن نفسه ، كعصفور يستعد للطيران في الفضاء ، ورفرف بأذيال معطفه ، ثم أطلق صرخة مريعة ـ وتضاعفت الأصداء . وظل يصرخ حتى برزت عروقه في كل جزء منه ، وبدا كديك مضروب ومنتوف في وضع جانبي ، يرفرف وهو يقف فوق كومة روثه . وتابع صراخه حتى الهذيان وجمهوره في الوادي يزداد باضطراد حتى شمل أثينا كلها بنداءاته المتكررة مجيباً إياه . أخيراً طلبنا منه بين نوبات الضحك والهستريا أن يكف . وانتعش الليل بصياح الديكة ـ في كل أثينا ، كل أتيكا ، كل اليونان ، حتى تخيّلتكَ يقظاً أمام مكتبك في نيويورك في وقت متأخر من الليل منصتاً لهذه اللآلىء الفضيّة الرائعة : فجرٌ كاتسيمباليسي في أتيكا . كانت ملحمةً ـ لحظةً عظيمة وخاصة بكاتسيمباليس فقط . ليت كان بوسعك سماع هذه الديكة ، ديكة أتيكا الشبيهة بآلات سنطور مسعورة بقيت أحلم بها بعد ذلك بليلتين . حسن ، نحن في طريقنا الى ميكونوس ، وقد هدأنا بعد سماع ديكة أتيكا من أكروبوليس . أود لو تكتب هذا ـ إنه جزء من المنظومة كلها . . .

هوامش الجزء الثالث

(1) تزوج ميللر عدة مرات ، كما هو معروف .

(2) حيّ الفقراء في مدينة نيويورك .

(3) أي تقع بين جبال الألب .

(4) Battlefield of Plataea .

(5) لويس كارول : صاحب قصة « أليس في بلاد العجائب » .

(6) أسماء لرسامين ينتمون لعصور ومدارس فنية مختلفة .

(7) هي بلاد المكسيك أيام ازدهار حضارتها الأزتيكية في القرن الخامس عشر .

(8) كما حدث لسفينة نوح .

(9) الميكا : مادة زجاجية خاصة .

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع